الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبي

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبو القاسم سعد الله –الجزائر2-

كلية العلوم الإنسانية

قسم الفلسفة

حدود النزعة الإنسانية في فلسفة برتراند راسل

limits of humanism in the philosophy of Bertrand Russell

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (ل.م.د) في الفلسفة تخصص: فلسفة حديثة ومعاصرة

إعداد الطالب:

عبد الحق نغاز

إشراف البروفيسور:

عبد العزيز بن يوسف

لجنة المناقشة:

عبد المجيد دهوم	أستاذ التعليم العالي جامعة تيسمسيلت	رئيسا
عبد العزيز بن يوسف	أستاذ التعليم العالي جامعة الجزائر 02	مشرفا و مقررا
أسعدي بن أزواو	أستاذ التعليم العالي جامعة الجزائر 02	مناقشا
فاطمة الزهراء أمغاز	أستاذ محاضر أ جامعة الجزائر 02	مناقشا
حسين رمضاني	أستاذ محاضر أ جامعة تيارت	مناقشا
نورية خالف	أستاذ محاضر أ المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة	مناقشا

الموسم الجامعي 2022/2021

People's Democratic Republic of Algeria

Ministry of Higher Education and Scientific Research

University of Abu al-Qasim Saadallah - Algeria 2-
Faculty of Humanities Department of Philosophy

limits of humanism in the philosophy of Bertrand Russell

A thesis submitted to obtain a doctorate degree in the third phase (L.D.) in Philosophy

Specialization: Modern and Contemporary Philosophy

student preparation : neghaz abdelhak **Supervised by Professor: Abdulaziz ben Youssef**

Discussion Committee:

Abdel-Majid Dahoum,	**Professor of Higher Education, University of Tissemsilt**	**President**
Abdelaziz Ben Youssef	**Professor of Higher Education, University of Algiers, 2**	**supervisors and rapporteurs**
Assadi Ben Azouaou	**Professor of Higher Education, University of Algiers 2**	**discussing**
Fatima Zahra Amghar	**Professor Lecturer A University of Algiers 2**	**discussing**
Hussein Ramdani	**a lecturer at the University of Tiaret,**	**discussing**
Nouria Khalaf	**Professor, Lecturer A, Higher School of Teachers, Bouzareah**	**discussing**

University season: 2021/2022

الإهداء

إلى كل أفراد عائلتي إلى الوالدين الكريمين وريح الجنة أطال الله في عمرهما إلى زوجتي ورفيقتي وسندي إلى البر عمتين الناعمتين بنتي الغاليتين إلى أخوي و أخي الصغير وفقك الله ورعاك ...

إلى كل من علمني أبجديات القراءة إلى أساتذتي الكرام من الابتدائي إلى هذه اللحظة ...

إلى كل روح غالية فقدناها...

إلى جميع أصدقائي و زملائي في الدراسة ...

إليكم جميعا أهدي هذا العمل

كلمة شكر

أشكر الله الذي وفقني و سدد خطايا و أمدني بالقوة و الصحة من بداية هذا العمل حتى نهايته.

أقدم الشكر إلى كل أساتذتي الذين ساهموا في تكويننا خلال هذه السنوات الخمس و أخص بهم أ.د عبد العزيز بن يوسف الذي أشرف على هذا العمل منذ بدايته و حتى أخر لحظة منه أشكره على دعمه المعنوي و الفلسفي و سعت صدره في توجيهي كما أقدم الشكر للأستاذ.د عبد المجيد دهوم الذي قدم لنا كل الدعم المادي و المعنوي و جعل من مخبره مدرسة فلسفية هو و جميع أساتذتنا في قسم الفلسفة بجامعة الجزائر و كذلك أساتذنا الذين تشرفوا بزيارتنا خلال فترة التكوين مقدمين من القضايا الفلسفية ما أشبع رغبتنا و فتح لنا مجال التفكير الحر كما أوجه الشكر لأساتذتي بجامعة تيارت وكذلك بالمدرسة العليا للأساتذة الذين ساهموا في تكويننا الفلسفي خلال مرحلتي الليسانس و الماستر إليكم جميعاً أهدي هذا العمل .

الفهرس

الفهرس

الفصل الأول: الهيومانيزم ومفهوم الإنسان21-90

- **المبحث الأول:** مفهوم النزعة الإنسانية21-53
- **المبحث الثاني:** مفهوم الإنسان عند راسل53-90

الفصل الثاني: راسل والكوسموبوليتية91-161

- **المبحث الأول:** نقد راسل للفلسفة الماركسية والبرغماتية91-120
- **المبحث الثاني:** الغاية الإنسانية من الحكومة العالمية121-161

الفصل الثالث: قيمة برتراند راسل في الفلسفة المعاصرة163-220

- **المبحث الأول:** فلسفة التربية عند برتراند راسل163-195
- **المبحث الثاني:** مكانة راسل في الفلسفة المعاصرة196-220

المقدمة

جنون الحرب وهوسها لا يبدأ مع انطلاق المدافع أو طلقات الرصاص المدوية عندما يحصل هذا يكون الوقت قد تأخر بالفعل، تبدأ الصراعات الإنسانية في أكبر أشكالها من العقول والنفوس ثم عندما تتوفر الظروف المناسبة تتجسد على أرض الواقع، لذا فإن الحيلولة دون نشوب الحرب ينبغي أن تبدأ بإزالة بذرة العنف والدمار من العقول والنفوس بدلاً من اللجوء إلى الوساطة بعد انتشارها، مثلها مثل الشجرة حين تزرع بذرتها في الأرض وتترك فإنها تنمو وتكبر وتصبح إزالتها كل يوم أصعب مما قبله.

يجادل السياسيين دائماً بأن للحروب أسبابها المنطقية التي لا مفر منها أحيانا، وأن أعمال العنف قد تكون مقبولة إذا كانت تخدم غرضا لهذا البلد أو ذاك أو هذه القضية أو تلك، بل هناك من يذهب إلى تقسيم الحروب إلى أنواع منها: الحرب العادلة والاستباقية والهجومية والدفاعية والرادعة، ولكن الحقيقة أنه لا توجد أي حرب إيجابية حتى وإن كان لها ما يبررها، فإنها ليست سوى تعبير عن جانب سيء تكبد الإنسانية تلبية للجوع وتعبير عن الخوف وحب السلطة والطمع في النفوذ، هكذا أصبحت الإنسانية على مر العصور تعيش تراجع ملحوظ في مسار القيم، وتشهد تسارعاً كبيراً في جنون العظمة وحب الأذية غير مدركة للخسائر التي ستذرها هذه الطبيعة غير الإنسانية التي اكتسبتها بعدما فقدت ميزتها الأولى، وهي حالتها العاقلة التي لا طالما كانت أحد مفاهيم الإنسان منذ زمن اليونان وصولاً إلى يومنا هذا، حيث يميل عدد كبير من الشعوب إلى تشجيع مواجهة الشر بالشر، ففي النزاعات الداخلية مثلاً وخاصة المسلحة منها يعتبر هؤلاء أن الرد على عنف الحكومات ينبغي أن يكون من نفس الجنس، ويذهبون إلى الاستشهاد بالأديان والمواثيق الدولية وما شابهها لتبرير ما يعتبرونه دفاعاً عن النفس، ولا ريب أن الطبيعة البشرية (وهي طبيعة في مجملها

خاضعة لسيطرة الأنا) تميل إلى هذا النوع من الرد وتعتبره إجراء منطقيا ومشروعاً. لكن الواقع أن مواجهة العنف بالعنف لا توقف المعتدي، وإنما تقويه إنها تقدم له مبرر استخدامه للعنف بأثر رجعي ثم أنها تشيع ثقافة العنف على جانبي النزاع وتديم استمراره والحقيقة أنه لا حدود للعنف، فكلما ازداد ضراوة كلما شعرت الإنسانية المتضخمة بأنها بصدد تحقيق غاياتها وأمانيها.

على العكس من ذلك فإنه يجب مواجهة العنف بالسلم وعدم الانجرار إلى منطقه الجارف للسقوط في العداوة والانسلاخ من الأبعاد الإنسانية ، لذا فإن الأمر المرجو تحقيقه من هذه النزعة الكبرى التي كان ينشدها الفكر الإنساني المتميز هو إرساء أكبر مذاهب التاريخ البشري حرصاً على حرية الإنسان وطبيعته العاقلة، إنها النزعة الإنسانية أو المذهب الإنساني الذي ظهرت بوادره المتينة وقوالبه المنظمة بعد عصر النهضة الذي شاهدته أوروبا، والذي غير من وتيرة الفكر وحركية القيم بين منحى تصاعدي أو تنازلي، وبين هذا وذاك كانت هناك محاولات كثيفة لرد هذه القيم إلى منحاها التصاعدي بحثاً عن إنسانية مستقرة وأكثر عقلانية وهدوء وكان لهذه العملية النبيلة التي سعت إليها الإنسانية جاهدة شخصية فذة عرفت بمناصرتها لقضايا الإنسان ودفاعها عن حقوق الأفراد وحرياتهم المختلفة، إنه الفيلسوف وشيخ الفلاسفة المعاصرين برتراند راسل الفيلسوف والمنطقي والرياضي ذو الأصول الإنجليزية والروح العالمية التي لم تؤمن يوماً بأي حدود على الإنسانية، أو أي نوع من السلطة تفوق سلطة الإنسان وإرادته الحرة.

كان برتراند راسل أحد أبرز دعاة السلام في العالم، فقد خيّبت الفترة التي سبقت اشتعال فتيل الحرب العالمية الأولى آماله في صحة عقول البشر، إذ وجد عباقرة الجنس البشري يتسابقون في ابتكار أفضل الوسائل الكفيلة بتدمير هذا الجنس وإبادته.

أخذ الفيلسوف يدين مبدأ الحرب وكان يعدها أشبه بالمأساة الإغريقية، وقد ألقى عدداً من الخطابات الهامة يهاجم فيها الحرب ويطالب شعوب العالم الحديث بأن تكون أكثر عقلانية وحيادية فيما يخص هذه المسألة، ناقش راسل أفكارا رائجة ووقف دائما ضد التعقيد والتعصب الديني والمذهبي والسياسي لخطورة ذلك على التعايش السلمي والطمأنينة الإنسانية وحرية الفرد والسعي لتحقيق أحلامه البسيطة أمام هذا الخضمّ المعقد من التحديات التي يواجهها في الأزمنة الراهنة.

أطلق جورج سنتيانا على الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل 1872 – 1970 لقب "فرنسيس بيكون القرن العشرين"، لأنه أراد للفلسفة أن تحقق ما أحرزه العلم ويشبه بعض الباحثين بفولتير لسعة أفقه وحرية فكره حصل رسل على جائزة نوبل في الآداب عام 1950 لأن شهرته شملت العلم والسياسة، بنى راسل فلسفته التي سطرها في كتبه المتعددة منها: مشكلات فلسفية، معرفتنا بالعالم الخارجي، مدخل إلى الفلسفة الرياضية، تحليل العقل، الذرية المنطقية، وكان يظهر له كل عام كتاب أو أكثر من كتاب، من بينها تحليل المادة، النظرية العلمية، بحث في المعنى والصدق، المعرفة البشرية، تاريخ الفلسفة الغربية، وله كتب في الأخلاق التاريخ والسياسة والسلطة كان إنتاج راسل مقارنة مع باقي المفكرين والفلاسفة في عصره أكثر توسعا وضخامة، كثيرة هي الأشياء التي تميز فلسفته مثل: النزعة العلمية التحليلية، المنطق، السياسية، لكن ما يلفت النظر باعتقادي هو نزعته الإنسانية والفردانية وكانت هي الأسباب الموضوعية في اختياري لهذا الفيلسوف دون غيره لما يتميز به طابعه الفلسفي في التأليف والحجاج من إنسانية ومواقفه المعارضة للجمود العقلي وبرودة العاطفة البشرية التي فقدت الكثير من خصائصها الجمالية والأخلاقية وقيمها التربوية في ظل تسارع الأنظمة والإيديولوجيات التي كانت وراءها فلسفات وعقائد منغلقة وضالة.

يتميز موضوع القيم الإنسانية بتشعبه وكثرة مراجعه ومصادره التي قد تبدوا كثيرة ولكنها صعبة التداول والقراءة لأن فيها ذلك النوع من القراءة السهلة الممتنعة، هذا ما أثارني في راسل أنه كان شخص غزير الكتابة صاحب نظرة نقدية علمية لحياة الإنسان وواقعه الذي أفرز عن أمال ضيقة الأفق أنبئت بمستقبل مجهول، ماذا حصل لتلك القيم التي اجتهدت فيها العقول الفلسفية والعلمية والأدبية أين هي تلك الرغبة في الإصلاح الإنساني ذو الطابع العالمي ؟ هل توقفت القيم أم أن المجتمعات المعاصرة حولت من حقيقة الإنسان من كونه ذلك الكائن المنفرد بخصوصياته الروحية والإنسانية ليصبح مجرد أداة تحركها خيوط نسجت من وحي عقائد عنصرية تختفي خلف شعارات كاذبة كل هذا جعلني أتمنى الغوص في أعماق النفس الإنسانية حتى أدرك طبيعة الحدود التي رسمتها لمسار القيم هاجس في داخلي دفعني للتساؤل لماذا هناك حدود على الإنسانية؟ لماذا نجد دائماً تعارضاً بين ما نريده وما يريده العالم؟ هل نحن على اختلاف في المبادئ التي يجب أن تقوم عليها الإنسانية؟ أم أننا على خلاف حول من يملك القدرة على أن يكون سيداً للأرض والطبيعة؟

وجدت القيم الإنسانية منذ أن أدرك الإنسان أنه في حاجة للتعايش المشترك مع أبناء جنسه، تلك اللحظة التي تحول فيها الصراع من صورته الطبيعية المنفردة ليصبح عملاً جماعياً يقوم به المجتمع البشري بشكل منظم داخل جماعات سمية بالجماعات الإنسانية اجتهدت عبر العصور في وضع قيم ذات أبعاد كونية، ولكن الذي حصل أن هذه النظرة العالمية أصبحت لا تجد من يدعهما سوى القليل من الناس الذين كانت لهم ذات إنسانية مفعمة بالحرية ورغبة الحياة، كان راسل أحد هؤلاء الأشخاص الذين لم يرى العالم مثلهم لمدة قرون من الزمن، إنه فيلسوف ابتعد عن كل عنصرية تصنعها ثقافة اللون أو اللغة أو الهوية الدينية والوطنية بل عمل على تحقيق هوية واحدة

للإنسان، وهي الهوية الإنسانية بعدما رأى بأن الفكر الإنساني بكل ميزاته رسم الكثير من الحدود على القيم وعرقل مسارها. وهو ما أثر سلباً على الإنسان الحديث الذي لم يكتشف ذاته بين هذه التعددية في العقائد والتي أفضت إلى خلق تصورات مختلفة عن الإنسان ومفهومه في هذا العالم، فكانت منها تلك التي تعطيه نظرة اقتصادية وأخرى دينية أو ثقافية ولا ننسى تلك ذات الطابع العلمي والتقني، التي جعلت غايتها الأولى أن تصنع من الفرد أداة فاقدة للروح والإرادة والعزيمة.

تحدث رسل عن السلام العالمي الذي ينشده في خطبته التي ألقيت على مجلس السلام العالمي بقوله " تواجه الإنسانية خطراً لم يسبق لها أن واجهته على مدى التاريخ الإنساني, فإما أن ننبذ الحرب أو يجب علينا أن نتوقع الفناء للجنس البشري" فقد تعالت صيحات كثيرة من رجال العلم البارزين والسلطات العلمية بالإستراتيجية العسكرية منذرة بالخطر الداهم، ولا يستطيع احد منهم أن يحدد أسوء النتائج على وجه التأكيد، كان راسل واعياً لحجم الكارثة التي ستحل بالإنسانية إذا استمرت الحروب وبرزت النزعات العدوانية وقلت القيم ووتيرة تصاعدها، وربما يرجع سبب وعيه هذا وتقديره العميق لحجم الكارثة التي ستحل بالإنسان عن كونه فيلسوف علم لديه أبحاث في مجالات مختلفة، لذلك لم يهدأ له بال ولم يكفى عن صيحاته التي كانت تعلو في كل مكان ومناسبة، فلم يخشى أيّ سلطة أو حكومة ولم يتوقف قلمه عن النقد أينما وجده صالحاً لذلك، وربما كانت ثمرت مساعيه الدءوبة للسلام هي إنشائه مجلس السلام العالمي الذي يوضح فيلسوفنا في إحدى اجتماعاته كيفية الحصول عليه وآلية الوصول إلي السلام المنشود لأنه يمثل شرطاً أساسياً لبقاء الجنس البشري يقول " إما أن نسمح للجنس البشري بإبادة نفسه، أو أن نتنازل عن بعض الحريات العزيزة جداً على أنفسنا وعلى وجه الخصوص حرية قتل الأجانب كلما شعرنا بميل لذلك."

ربما نجد راسل يوضح للناس خيارين يتوجب القضاء عليهما وإزالتهما من قواميس الشعوب، وربما نجده يتوق إلي تطبيق الأممية ورفض كل أشكال التمييز والعنصرية. إذ يؤكد أن إبادة البشرية ستكون دون شك إذا استمرت الحكومات في التعدي على الشعوب أو تعدي الدول بعضها على بعض، ويدعو إلى التنازل عن لذة قتل الأجانب التي كانت تمثل في الأزمان الغابرة شرفاً لا يستحقه إلا المجرمين الذين يبدعون في إبادة الشعوب.

كان قصدنا بالنزعة الإنسانية في فلسفة برتراند راسل معرفة القيم التي سعى راسل الى إعادة قراءتها بشكل تاريخي قراءة نقدية تحليلية، ضبط من خلالها قدرة كل حضارة في تقديم مفاهيم حقيقية لمختلف أبعاد الحياة الإنسانية، اجتماعيا سياسيا وثقافيا وحتى علميا، علما أن هذه النزعة تظهر بشكل جلي في مواقفه المختلفة ضد الاستعمار والحروب التي خاضتها البشرية بكل أشكالها، وبهذا أردنا أن نكشف الوجه الأخر لهذا الفيلسوف ورجل العلم، وهو امكانية ان يكون راسل حاملا لنفس القيم التي حملها فلاسفة الانوار في ثورتهم ضد الانظمة الفكرية والسياسية والأيديولوجيات الفاسدة.

إن دعوة رسل واضحة إلي توحيد العالم وإعادة تأسيس القيم الإنسانية التي وضعت عليها حدود مختلفة، جاءت نتيجة تراكمات عرفت عبر الزمن أشكال مختلفة وتظهر هذه الحواجز والحدود على النزعة الإنسانية وقيمها في تلك الحواجز الطبيعية أو المصطنعة، أو الاختلافات في الانتماء القومي أو المذهبي أو الديني وغيرها من المسميات التي تولد التباعد بين الناس، لذلك يتوجب على جميع الشعوب أن تستوعب فكرة أن الإنسانية تجمعنا وأن الاختلاف وليد أساليب الحياة المتبعة فضلاً عن المناهج التربوية التي تخلق هي الأخرى فجوة بين الشعوب، ومما لاشك فيه أن الإنسانية هي الكلمة التي يتوجب على الجميع أن يعرف معناها وهو الأمر الذي جعلني اختار هذا

الموضوع لأنه يتناسب مع طبيعتي كإنسان يحب التفاؤل والتسامح والتقارب الإنساني. كيف أستطيع أن أغير من فكرة الحسد؟ كيف أقنع غيري بأن العالم ليس لنا وحدنا وأننا لسنا المجتمع الأحق من غيرنا؟ كل هذه الأسئلة دفعتني لاختيار هذا الموضوع كرسالة في أطروحتي للحصول على درجة دكتوراه في الفلسفة والتي كانت موسومة بعنوان " **حدود النزعة الإنسانية في فلسفة برتراند راسل** " أين قمت بتقسيم هذا العمل إلى ثلاثة فصول، حاولت من خلالها أن أبين موقف راسل من التيارات الفلسفية التي عاصرها ومن الأسباب التي كانت وراء التراجع الملحوظ للقيم الإنسانية، خاصة في عصره الذي امتاز بجنون الحرب وهوس الاضطهاد، لذا حاولت أن أقسم هذا العمل من خلال تقديم دراسة تاريخية للقيم الإنسانية ومسارها التصاعدي منذ فترة الحضارات القديمة بداية من تلك التي عرفت عند المصريين وصولاً إلى الحضارة اليونانية مع تبيان مدى توفر تلك الحقب الزمنية الماضية على ما يثير الاهتمام ويبعث الدهشة مع ذكر المحيط الاجتماعي للبيئة الإنجليزية باعتبارها الأرضية الخصبة التي أخذ منها راسل أولى أفكاره ومبادئه بحثاً مني عن أي تفاصيل للقيم الإنسانية وللحرية الفكرية في المجتمع البريطاني خاصة فترة ما بين القرن 17 و19، لأنها عرفت الكثير من التحولات السياسية والفكرية في الواقع الأنجلوسكسوني وتمت تسمية هذا الفصل ب" **الهيومانيزم ومفهوم الإنسان**" غاية هذا الفصل هي تبيان المفهوم الذي قد نجده الأقرب لهذه النزعة الإنسانية وإدراج أهم التصورات التي انبثقت عن الفكر الإنساني وتحديدا مفهومها لهذا الكائن، الذي نراه أكثر تعقيداً من الموجودات الأخرى وفي هذا الفصل تم وضع مبحثين هما " **مفهوم النزعة الإنسانية** " وهو المبحث الأول الذي قدمت في صفحاته أهم المفاهيم التي تمت صياغتها عن هذه النزعة مع ذكر تفصيل تاريخي عن ظهورها وتطورها في العالم وبالخصوص في البيئة الإنجليزية. أما عن المبحث الثاني فقد كان عبارة عن ورقة تضمنت المفهوم الذي يراه راسل مناسب للإنسان ولطبيعته

وهو المبحث الذي أدرجته بعد تحديد مفهوم الحركة الإنسانية أو الهيومانيزم أين ذكرة هذا الجزء من الفصل الأول بعنوان" **مفهوم الإنسان عند برتراند راسل** "، بعد هذا التدرج الذي جاء في إطار تقديم مفهوم خاص بالنزعة الإنسانية وبالإنسان أعرجت في تقديم تحليلا لمعطيات أخرى في الفصل الثاني من هذه الأطروحة وهو " **راسل والكوسموبوليتية**" أين وددت أن أبين كيف جهز راسل لفلسفة تتجاوز القيم والأسس المحدودة بدائرة القطر الواحد والوطنية الضيقة أو القومية لتعتنق فلسفته ما نسميه اليوم فكرة العالمية وهي أن نرى العالم والإنسانية بنظرة واحدة دون أي عنصرية وهذا الفصل كذلك أدرج في مبحثين تماشياً مع التسلسل المنطقي لهذه الأطروحة حيث كان المبحث الأول " **نقد راسل للفلسفة الماركسية والبرغماتية**" وهو عمل يبين موقفه من تلك التيارات الفلسفية الكبرى التي اجتاحت الفكر الإنساني المعاصر مع التركيز على أهم الانتقادات التي قدمها راسل لهذين الفلسفتين ومدى إمكانية أن تكون الماركسية البرغماتية إحدى الفلسفات التي يمكن لها أن تؤسس الفعل الإنساني الحقيقي وتنمي الروح الفردية والقيم الجمالية والأخلاقية فينا، فقد كان راسل دائم الشك في قدرة الفكر الماركسي المادي وفي إيمانه بالصراع الطبقي على أن يحقق مفهوم الدولة الإنسانية ذات الأبعاد المختلفة، كما حرص على عرض مفصل لكل مزايا الفكر البرغماتي خاصة لدى ديوي وجيمس في الفلسفة الأمريكية المعاصرة التي نشأة على مبدأ الآداتية وتسخير الإنسان للمصلحة العلمية التطورية، إضافة إلى هذه المحاولة في عرض أكبر مذهبين فلسفيين خلال القرن التاسع عشر عملت في المبحث الثاني على معالجة أحد أهم النقاط التي تناولها راسل في فلسفته السياسية والاجتماعية الإصلاحية وهي وجود ذلك النظام الذي يمكنه تسيير شؤون العالم الذي دخل مرحلة من الاستلاب وانعدام الروح الإنسانية وهذه هي الغاية التي يجب أن تحقق في مطلب أساسي لراسل وهو الحكومة العالمية، من هنا جاء المبحث الثاني كعرض لمفهوم الدولة الكونية وإمكانية

تحققها اليوم لذا كان عنوانه الخاص هو " **الأبعاد الإنسانية للحكومة العالمية** " التي كشفت أن لراسل بعدا عالمياً سبق فكرة العولمة أو الانفتاح على الأخر دون حدود جغرافية وتحت إطار هذا الفكر الواحد تتوجه الإنسانية نحو مستقبل أكثر تعقلاً مما نحن فيه، وأخيراً قدمت الفصل النهائي من هذا العمل من أجل غاية واحدة وهي إبراز مكانة راسل في تاريخ الفلسفة بشكل عام وفي مسار الفلسفة المعاصرة بشكل خاص وسبب ذلك أن هذا الفيلسوف لا يعرف فكره انتشاراً واسعاً في العالم العربي رغم أنه أحدث بفلسفته السياسية والإنسانية تغيراً جذرياً في مسار العالم بعد الخمسين سنة التي تلت الحرب العالمية الأولى، فكان لفلسفته مزايا متعددة بين ما هو رياضي ومنطقي وعلمي وفلسفي وسياسي إنه بدون منازع شيخ لفلسفة العصر الذي نحن فيه ومن أجل تقديم المكانة المناسبة التي حظى بها راسل تناولت في المبحث الأول مشكلة التربية وأبعادها الإنسانية لأنها أول خطوة نحو نبذ الفكر والعواطف التي تمزق وحدة البشرية وتعرضها للخطر الدائم وكان عنوان المبحث الأول هو " **فلسفة التربية عند برتراند راسل** "و كأخر محطة من هذه الأطروحة جاء المبحث الأخير من العمل الذي وددت لو أنه لن ينتهي نتيجة الشعور التي تكبد قلبي وعقلي والمتعة التي وجدتها في بحثي عن الإنسانية وحقيقتها فكانت هذه المرحلة الأخيرة من العمل تحمل ميزة مناسبة من غيرها وهي " **قيمة برتراند راسل في الفلسفة المعاصرة** " هل هي قيمة تحددت بفعل أنه راسل الذي يندرج من العائلة المتحررة هل مكانته حددتها كنيته التي لقيت صيت كبير بين شباب عصره وفلاسفته أم أنها نتجت عن ما قدمه هذا الفيلسوف من تنظير فلسفي وبحث علمي ورياضي وسياسي، كيف كانت حياة هذا الرجل التحرري صاحب القدرة الفذة على النقد والمواجهة وهنا تعرفت على أحد الميزات الحقيقية للطبيعة الإنسانية وهي الحسد الذي تكبد المرء إن هو لم يحقق ما وصل إليه غيره وهو ما حصل مع راسل الذي عاش الكثير من المعاناة بسبب أفكاره التي واجهة الظلم

الإنساني وفي هذا المبحث توقفت عن بعض المحطات الكبرى في حياته وأكثر اللحظات التي عاش فيها راسل ألم العنصرية وضيق الأفق الذي لا طالما رفضه وحاول تعويضه بأشكال أخرى مثل الانفتاح والإعجاب والحرية والمساواة.

جاءت هذه الأطروحة لأهداف مختلفة أولها محاولة فهم الطبيعة البشرية الإنسانية وتحديد أهم نقاط ضعفها وقوتها، من خلال محاولة الإجابة عن إشكاليات مختلفة تصب في نفس القالب الفكري لإشكالية كبرى وهي:

كيف بدأت القيم الإنسانية مسارها في هذا العالم الذي تغيرت ملامحه بشكل متواصل ومنذ عصر الإنسان أو لحظة اجتماعه الأولى مع بني جنسه وما هي صور هذا التطور وأبعاده هل كانت ذات صبغة إنسانية أم أنها مجرد تحولات حدثت بفعل قوى مختلفة وما هي وجهة نظر راسل من تاريخ القيم وانعطافاتها أيمكن أن نصفها بالإنسانية أم أنها قد تتأرجح بين طابعها الإنساني وغير الإنساني؟ ما مفهوم الإنسان الذي أراد راسل أن يقدمه للفكر الفلسفي و هل كانت المرحلة التي سبق فكر راسل قادرة على أن نسميها حقا فلسفة إنسانية ؟

هذه هي الإشكالية العامة والكبرى لهذه الأطروحة المقدمة بعنوان "**حدود النزعة الإنسانية في فلسفة برتراند راسل**" والتي كانت غايتها الأولى هي البحث في ما هو إنساني خالص ونقد كل توجه يمكنه أن يبعد الفرد عن أن يكون موجوداً صالحاً لكل بيئة قد يعيش فيها، إن هذا العمل ليس مجرد محاكاة لفكر راسل بل هو إيمان بالاعتقاد الذي أمن به فيلسوفنا وحاول توسيعه في ربوع هذا العالم دون تحديد لمنظومة اجتماعية عن غيرها.

تم اعتماد المنهج التحليلي في تقديم معطيات هذه الأطروحة نظرا لما يعرف على هذا المنهج في البحوث العلمية و قدرته على تفكيك المشكلات ودراسة جزئياتها بدقة، من خلال التحليل والنقد، وبعد ذلك استعادة الهيئة الكلية الجدية مرة أخرى واستنباط الأحكام ومن ثم التعميم، ويُعتبر من أهم أنواع مناهج البحث العلمي. من مميزات المنهج التحليلي التعمق في دراسة موضوع معين والحصول على خلاصة دقيقة مما يؤدي إلى استخراج الحلول التي تساهم في معالجة أي إشكالية تحتاج للتحليل.

لا شك أن كل عمل قد نقوم به كباحثين أكاديميين له من المصاعب ما يحمل المشقة والتعب النفسي والعقلي والجسدي، ولكن مع ذلك تصبح هذه العقبات لذة معرفية لا يدركها سوى صاحبها، لهذا فأنا لا أختلف عن غيري من الباحثين لأنني وجدت كذلك مصاعب كثيرة في معالجتي لهذا الموضوع منذ أن بدأت أولى القراءات والتصفحات في فكر راسل وفي تاريخ الفلسفة كانت هذه المعاناة الفكرية ناجمة عن أسباب مختلفة أولها تلك المنبثقة من طبيعة الموضوع الذي امتاز بتشعبه وكثرة مراجعه فوجود نزعة إنسانية في فكر راسل هو عملية تحليل لكل كتبه مؤلفاته التي وجدت ما يقارب 50 بالمائة منها، ولكن البعض الأخر لم يتوفر نظراً لعدم إدراجه في المكتبات الإلكترونية سواءً مصادره التي كتبة باللغة الإنجليزية أو الترجمات التي أجريت على بعض مؤلفاته ومقالاته، ومن الصعوبات الأخرى التي واجهتنا في هذا البحث هو عملية الترجمة لبعض كتبه والتي لم أستعمل منها الكثير لأنني وجدت ضالتي في معظم كتبه التي عربت من طرف بعض الباحثين والأساتذة في جامعات مختلفة من العالم العربي.

إضافة إلى هذه الصعوبات المتعلقة بالمصادر والمراجع هناك صعوبة أخرى كانت أشد وقع وهي لغة راسل وأسلوبه العلمي في الكتابة الذي جعلني أتوقف أياماً وأسابيع بحثاً عن صياغة مناسبة لأفكاره تلك التحليلات التي قدمتها وأنا في حيرة من أمري هل وفقت في فهم راسل؟ أم أنني أحتاج المزيد من الوقت لأحقق ذلك؟ ولكن ضيق الفترة الزمنية للبحث في ظل تكوين الدكتوراه الخاص بنظام ل.م.د L M D جعلني أعجل في التحليل والعرض الذي أشعر بأنه لم يكن كافياً لأحيط بكل فكر هذا الرجل الموسوعي ولسوء حظنا جاءت هذه المرحلة من البحث متزامنة مع الوباء العالمي جائحة كورونا كوفيد 19 وهو الأمر الذي أصابني بنوع من ضيق النفس والحيرة اتجاه مصيرنا في هذا العالم.

لم تكن طبيعة الموضوع هي الوحيدة التي شكلت صعوبات في عملية البحث بل هناك كذلك صعوبات أخرى تتمثل في نقص الموارد المالية التي تمكنني من اقتناء كل كتب راسل المتوفرة خاصة باللغة الإنجليزية إضافة إلى ذلك هناك عامل الوظيفة التي أشغلها كأستاذ تعليم ثانوي أين التحقت بالتكوين وأنا في السنة الثالثة من مشواري كأستاذ فلسفة في الثانوية وهو الأمر الذي ألمني كثيراً بين أن أتنحى عن المهنة التي شغفت بها أو أتوجه إلى مسار البحث العلمي ولكن مع ذلك اخترت في الأخير أن أفعل كلاهما شغف البحث ورغبة التعليم الخاص بمحبة الحكمة كل هذه التراكمات جعلتني أتوقف بين الفينة والأخرى لألتقط نفساً جديداً يمكنني من مواصلة هذه المرحلة من حياتي وأحمد الله الذي جعل أساتذتنا الكرام سنداً لنا في كل خطوة قمنا بها منذ التحاقنا بالتكوين الجامعي للحصول على درجة الدكتوراه طور الثالث ل. م. د.

مع كل هذه الصعوبات كانت هناك دعائم أخرى ساهمت في إعطاء هذا البحث الفلسفي نوع من الدافعية والتقدم وهي تلك الدراسات السابقة لفكر راسل من رسائل

ماجيسترا أو دكتوراه ومقالات في مجلات مختلفة على مستوى الجامعة الجزائرية بالخصوص والعربية بشكل عام وكان من الدراسات التي وجدتها عن هذا الموضوع أطروحة لنيل دكتوراه علوم في الفلسفة " الدولة العالمية والنظام الدولي الجديد " إعداد إبراهيم أحمد جامعة وهران السنة الجامعية 2010/2009 وكذلك أطروحة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة " الفكر التربوي والأخلاقي عند برتراند راسل " من إعداد حبيبي أحمد جامعة وهران 2012/2011، الأسس الفلسفية لنظرية التربية عند برتراند راسل أطروحة لنيل شهادة الماجستير جامعة المسيلة 2016، المنطق والرياضيات عند برتراند راسل أطروحة لنيل شهادة دكتوراه ل.م.د جامعة وهران 02 السنة الجامعية 2017 ، إشكالية تطور المنطق المعاصر بين الدوافع الداخلية والتأثيرات الخارجية أطروحة دكتوراه علوم فلسفة إعداد حميدة محلوس جامعة الجزائر02 أبو القاسم سعد الله السنة الجامعية 2017/2016، كما وجدت أيضا مقالات مختلفة حول راسل ومن بينها "الأبعاد الأخلاقية والإنسانية في فلسفة برتراند راسل" الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية كتبه الدكتور جودي علي جامعة الجيلالي بونعامة جميس مليانة، مقال موقف برتراند راسل من النظريات التربوية تأليف قريبي مشري و بوشيبة محمد مجلة أبعاد جامعة وهران2 كلية العلوم الاجتماعية، وفيما يخص الأعمال التي وجدتها على مستوى الجامعات العربية كدراسات سابقة حول الفيلسوف الإنجليزي راسل أطروحة دكتوراه موسومة بعنوان "فلسفة برتراند راسل التحليلية وتطبيقاتها التربوية" من تقديم عبد الله سمير لطف الله جامعة بغداد العراق، التفكير الناقد بين المقاربة الفلسفية والمقاربة العلمية " برتراند راسل وجون ديوي نموذجا " من إعداد عصام زكرياء جميل جامعة القاهرة مصر 2017، كانت هذه بعض الدراسات السابقة حول برتراند راسل وهي كثيرة ومختلفة بينها ما يعالج قضايا فلسفية علمية مثل المنطق والرياضيات أو مواضيع التربية والأخلاق والسياسة ولكن لم أجد بينها ما يعالج مسألة محدودية القيم

الإنسانية وإمكانية تجاوز نظرتها الضيقة لهذا وجدت أن عملي هذا ربما يكون بحثاً جديداً أكشف من خلاله الوجه الأخر لشخصية الفيلسوف الإنجليزي المتميز برتراند راسل.

الفصل الأول: الهيومانيزم ومفهوم الإنسان

المبحث الأول: مفهوم النزعة الإنسانية

المبحث الثاني: مفهوم الإنسان عند راسل

المبحث الأول: مفهوم النزعة الإنسانية

النزعة الإنسانية* أو الهيومانيزم Humanisme هي تعبير عن روح عصر النهضة Renaissance الذي شهدته أوروبا مع مطلع القرن 15، ولكن مع ذلك يجب أن نتساءل حول مدى قابلية أن توجد قيم إنسانية عند الحضارات التي سبقت عصر النهضة والأنوار، فكما هو معروف بأن الفكر الإنساني يمتاز برقيِّه وتطوره من حقبة زمنية لأخرى، ما جعل حركة القيم تكون أحياناً تصاعدية أو تنازلية، ومما هو متفق عليه أنه لا يمكن أن نربط وتيرة القيم أو تأسيسها بمجتمع أو حقبة تاريخية واحدة.

عن أثر الحضارات القديمة في مجال القيم والأخلاق يذكر لنا برتراند راسل*Bertrand Russel 1872-1970في مؤلفه تاريخ الفلسفة الجزء الأول أن الحضارات التي سبقت العهد اليوناني كانت متميزة في مجالات الفن والعمران والزخرفة، فأعظم اختراع إنساني هو الكتابة التي اكتشفها المصريون القدماء حوالي 4000 عام ق م، ثم جرت عليها بعض التطورات في الأقطار المجاورة وأصبحت تسمى بالحروف الأبجدية، وضمن بحوثهم الأخرى تلك المتعلقة بالنفس وطبيعتها وكذا محاولة تفسيرهم للعالم ولظاهرة الموت، فقد اعتبروا أن الأرواح يمكن أن تعود للأجسام

---

* الإنسانية باللغة الفرنسية humanité وبالإنجليزية humanity وباللاتينية numanitas والتي تعني كل ما يختص به الإنسان من صفات وهي عند الفلاسفة القدماء المعنى الكلي المجرد الدال على ما تتقوم به ماهية الإنسان إنها مفهوم يجمع بين خصائص مشتركة كالحيوانية والحياة والنطق وهذا بالمعنى القديم الذي نجده عند الفلاسفة العرب واليونان.(جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الكتاب الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت،د.ط، سنة 1992. ص 159) أما النزعة الإنسانية humanism فهي حركة ازدهرت لإحياء التعليم الكلاسيكي أثناء عصر النهضة وكلمة إنساني مشتقة من الاصطلاح الإيطالي umonista.

* راسل برتراند آرثر وليام Bertrand Arthur William Russell فيلسوف إنجليزي ولد في رافنسكروفت مقاطعة مونموتشاير بتاريخ 18 ماي 1872 وتوفي في شمال مقاطعة الويلز بتاريخ 2 فيفري 1970، كان والده الفيكونت أمبرلي رجلا ذو مبادئ ليبرالية وعقل جاحد وأمه من مناضلات الحركة النسوية في إنجلترا، أبدى راسل اهتمامه الكبير بالرياضيات منذ صغره، ودرس الفلسفة متأثرا يومئذ بهيجل تمدرس بكلية كامبردج على كل أشكال المنطق ونظريات العلم، قدم أطروحته لنيل شهادة التبريز في ترينيتي كوليج عام 1890 تحمل عنوان " محاولة في أسس الهندسة ". (جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت، ط3، سنة 2006. ص 319)

من جديد فأبدعوا علم التحنيط وبناء المقابر خاصة الملوك، وهي الأهرامات التي أصبحت فيما بعد من عجائب الدنيا.[1]

عرفت هذه المرحلة من التاريخ الإنساني أي الفراعنة نوعاً من الجمود الديني فكان الرقي من بين الأمور المستحيلة، كانت أراضي مصر القديمة مسرحاً للحروب والصراعات مما جعلها تتعرض للغزو المتواصل ولعل أشهره ذلك الذي قام به الساميون، كما غابت عندهم القيم الإنسانية نتيجة سيطرة الخرافة الدينية على الطابع الاجتماعي الذي كان منتشراً آنذاك فكان الفرد مجرداً من الحرية خاضعاً لأوامر ونواه الآلهة.

إن طبيعة هذا النمط الفكري والعقائدي الذي كان سائداً في مصر القديمة اعتبر الفوز في الحروب ووفرة المحاصيل الزراعية دليلاً على مرضاة الآلهة، لذا تميزت الحضارة البابلية عن الفرعونية أنها اهتمت بطبيعة الإنسان وبحياته وانشغالاته اليومية بشكل اكثر، كما يرجع لهم الفضل في بعض الجوانب العلمية كقسمة اليوم إلى 24 ساعة ودراسة بعض الظواهر الفلكية مثل الخسوف والكسوف[2]، كما انتشرت في تلك الفترة بعض الجزر يذكر راسل أشهرها جزيرة كريت التي امتازت بطابعها التجاري ونمطها العمراني الفخم مثل القصور، وتعرف الحضارة التي نشأت فيها باسم مينوس لكنها دمرت عند نهاية القرن 14 ق م والأرجح أن من دمروها هم غزاة يونان، كان سكان هذه الجزيرة يؤمنون بفكرة العقاب وما بعد الموت وما يزيد قيمتها أنها عرفت رموزً ولغتاً تكتب بشكل مستقيم لا تزال موضوعاً للدراسة حتى اليوم، كما عرف عن أهلها طابعهم المسالم لدرجة أنهم لم يبنوا أسواراً تحميهم من أي عدوان خارجي.[3]

[1]– راسل برتراند: تاريخ الفلسفة الغربية، الجزء الأول الفلسفة القديمة، ترجمة، ز.نجيب محمود، الهيئة المصرية للكتاب ط1، سنة 2010. ص 32–33

[2]– المصدر نفسه. ص 33–34

[3]– المصدر نفسه. ص 35–36

أحدثت هذه الثقافات الكثير من العناصر الحضارية ألفت بعد ذلك المدينة اليونانية تعبيراً عن الاكتمال الفكري لدى الإنسان، فلا شك أن البحث في العالم الإنساني وانتقال الفلسفة من العالم الطبيعي نحو فهم الطبيعة البشرية أو الإنسانية قد كان مع اليونان، الذين وصفو الإنسان بالكائن السياسي والاجتماعي العاقل، لقد أصبح الإنسان في الحضارة اليونانية محوراً لكل تفكير وإنتاج فلسفي.[1]

رغم أن العصر الهيليني يعتبر المهد أو الحجر الأساس لظهور الفلسفة مع ذلك فإن فضل الفلاسفة الطبيعيين لا يمكن إنكاره، فقد كانوا أول من وضع الإنسان في دائرة التفسير الكوني وقوانينه، وهي الإرهاصات الأولى لبداية التفكير العلمي الذي بدأ يتزايد بشكل مستمر حتى اللحظة الأولى لميلاد الفلسفة، اجتهد فلاسفة الطبيعة في فهمهم للنفس فهم لم يعتبروا الإنسان مجرد جسم بل أكدوا على وجود جانب ثاني له الأثر الكبير على الجسد وهي النفس التي اختلفوا حول ماهيتها وطبيعتها ورغم أهمية الفكر اليوناني عند راسل، لكنها تبقى حضارة متأخرة زمنياً إذ ما تمت مقارنتها بسابقاتها، فالكثير من المعارف التي وجدت في اليونان كانت قد استقتها من بابل ومصر لكن النقص الذي كان عند هؤلاء أنهم لم يبلغوا التنظير العلمي والفلسفي الذي وصل إليه الإغريق.[2]

حاول فلاسفة الطبيعة الإجابة على هذا الوجود الإنساني إرضاءً لنزعتهم التأملية الواسعة وإيماناً منهم بأن الإنسان جزء من هذا العالم الطبيعي الفسيح الذي يستوجب الانتباه والبحث، فالإنسان كائن فريد من نوعه يتغير باستمرار ويتطور من لحظة لأخرى ليس في شكله أو في عضويته، بل في حيويته وثقافته وعاداته ومواقفه وعلاقته مع الآخرين لأنه يملك صفات جوهرية عدا تلك التي تملكها الموجودات الأخرى.[3]

---

[1]– المصدر السابق. ص 31

[2]– راسل برتراند: حكمة الغرب الجزء الأول، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة،د.ط، سنة 1983. ص 21–22

[3]– جون لويس: الإنسان ذلك الكائن الفريد، ترجمة د.صالح جواد الكاظم،الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة،د.ط، سنة 1996. ص69

كما عرف عن الحضارات القديمة تميزهما في الكثير من الميادين خاصة العمران والزخرفة، وقد ذكرنا من قبل جزيرة كريت التي تحدث عنها راسل في كتابيه " تاريخ الفلسفة الغربية الجزء الأول" و "حكمة الغرب الجزء الأول "، حيث أظهرت الدراسة التي قام بها عن الكريتيين أنهم من بين شعوب البحر وقد أطلق عليهم المصريون اسم بليست Peliset وهؤلاء هم الفلسطينيون الأصليون الذين استمد منهم اسم الأرض التي مكثوا فيها واستقروا عليها.[1]

أما عن الفلاسفة الذين سبقوا فترة اليونان كان أكثرهم تأثيراً على الجوانب العلمية هي المدرسة الأيونية الشهيرة والتي سميت نسبة إلى مدينة أيونيا التي تميزت بانفتاح أراضيها مما ساعدها على الاحتكاك الحضاري بفعل عنصر التجارة وبسبب قربها من البحار والأنهر الكبرى كبحر إيجة والبحر الأسود، هذا ما جعلهم يتعلمون فنون التجارة والتعامل بالنقود ويعتبر طاليس الملطي أحد أكبر فلاسفة أيونيا بل أكثرهم اكتساباً للنظرة العلمية، فقد كان أول من فسر بعض الظواهر مثل الكسوف الشمسي كما يعود له الفضل في أنه قدم تفسيراً علمياً عن نشأة الأشياء وتكونها، من خلال قوله :" الماء يشكل جزءاً من تركيب جميع الأشياء"، وهو ما بينته العلوم المعاصرة بعد اكتشاف عنصر الهيدروجين الذي يعتبر أهم العناصر المكونة للماء كأحد أهم المركبات الموجودة في جميع الكائنات الحية والجامدة في العالم.[2]

تميز واختلف فلاسفة أيونيا أو مالطية في مفهوم الفلاسفة الذي نعرفه اليوم فكانوا أناساً منهمكين في محاولة فهم العالم والحياة المدنية للإنسان، أما الحضارة اليونانية فإن أكثر ما يجب التركيز عليه حسب راسل هو الجانب السياسي الذي عرف صراعاً وانتقالاً في أشكال الحكم، من الملكي إلى الأرستقراطي الذي تبعته فترة حكم سيطر عليها الطغاة، وأخيراً النظام الديمقراطي الذي كان يعني انتقال الحكم إلى الشعب وإرادته ، كما تميز هذا العصر بجاذبية الأدب والشعر والأسطورة.

[1]– راسل برتراند: حكمة الغرب الجزء الأول. ص 23

[2]– المصدر نفسه. ص 30

أكبر الأعمال الأدبية كانت قصائد وأشعار هوميروس خاصة الملحمتين اللتين كتبهما بعنوان الإلياذة والأوديسة حولي 800 ق م، تعبيراً عن الأوضاع السياسية والتاريخية شكلت هذه القصائد تاريخ اليونان القديم وعكست الأوضاع الدينية والاجتماعية المختلفة آنذاك، إضافة إلى هذا فإن الإلياذة قدمت تصورها الخاص عن الإنسان ووصفته بأنه يملك جانباً وحقيقة أخرى غير الجسم ويبدو هذا في الأسطر الأولى منها، حيث تقول "رجلاً غاضباً تلك هي قصتي، غيرة آخيل السوداء، صورة حقده المر جلبت آلاف المصائب على فرسان الآخليين"،[1] تظهر هذه العبارة البعد الروحي والنفسي لدى الإنسان، الذي يغضب ويحب ويكره ويلوم غيره فإلياذة هوميروس هي تعبير عن ثنائية إنسانية هي الروح والجسد.

كانت العقيدة والدين في المجتمع اليوناني دون فاعلية وتأثير مع ذلك وجدت قيم أخلاقية وعادات راقية مثل الكرم وحسن الضيافة، ومزجت كذلك بطابع غير إنساني مثل التضحية بالبشر في المواسم والتقرب إلى الآلهة بطقوس وشرائع نادرة، هذه الواقع في أرض اليونان عبرت عاطفتين إنسانيتين متصارعتين هما العقل والغريزة فمن العنصر العقلي خلقت الفلسفة والأدب والفن والعلم ومن العنصر الثاني انتشرت العقائد البذيئة والفاسدة.[2]

اعتبرت أثينا في التاريخ اليوناني أنموذجاً فكرياً وثقافياً ظهرت هذه المدينة خلال القرن 5 ق م بشكل تدريجي كونها حلت مكان مدينة كورينثه كنقطة عبور تجارية بين مختلف الشعوب والحضارات، لكن ما يهمنا هو كيف نظر راسل للمدن اليونانية وثقافتها؟

إنها حسبه ثقافة عبقرية مبدعة لها الفضل في إثراء الإنسانية بعديد من العلوم والأفكار، وكل الحضارات التي جاءت بعدها تعلم يقيناً ما قدمه اليونان في ميادين الفن والأدب وما قدموه في النطاق العقلي الخالص كان أشد غرابة وعظمة مما قدموه في

[1]–Werner.Jeager : The Theology of Early Greek philosophers,The Gifford Lectures 1936. p.55–59

[2]– راسل برتراند: حكمة الغرب الجزء الأول. ص 24–25

الفنون والأدب فهم من اخترعوا الرياضة[1] والعلم والفلسفة اختراعاً ويعود لهم الفضل في كتابة التاريخ متميزاً عن مجرد سرد للأخبار، وهم الذين أرسلوا الفكر حراً في الطبيعة دون قيود العقائد الموروثة، لذلك ما تزال الناس حتى العصور الراهنة يندهشون لعبقرية هذه الثقافة ويتحدثون عنها كأنهم يتحدثون عن ألغاز السحر.[2]

أما الواقع الاجتماعي فقد كان نظاماً يختلف اختلافاً بعيداً في مناطق اليونان مثل اسبرطة أين كانت تعيش الفئات الغنية على استغلال العبيد من سلالة مختلفة ، أما المناطق الزراعية كان السكان من الطبقة الفقيرة يعملون على زرع أراضي يملكونها بمعونة عائلاتهم، كانت بلاد اليونان تسير في طريق نحو التطور السياسي أولا من الملكية إلى الأرستقراطية ثم طغيان وديمقراطية متناوبان، لم يكن ملوك اليونان مطلقي السلطة كما في مصر وبابل، بل لهم مجلس للشورى يتكون من شيوخ وكبار الأعيان الذين ما استطاعوا أن يدوسوا على حرمة التقاليد دون أن ينالهم العقاب ليس معنى الطغيان بالضرورة حكومة فاسدة إنما هو حكم رجل واحد، أما الأمر الذي ساهم في نهوض هذه الحضارة أنهم عندما استعاروا أحرف الهجاء من الفينيقيين ثم صوروها حتى تلائم لغتهم وأضافوا لها جزءاً من عبقريتهم وهي الأحرف المتحركة بعد أن كانت كلها ساكنة.[3]

عرفت هذه الفترة انتشاراً واسعاً للأشعار الهوميرية كالقصص الغرامية التي لعبت دوراً أساسياً في مجال الفنون والآداب، حتى أنها سادت العصور الوسطى كوجهة نظر للطبقة الأرستقراطية المتمدنة التي لم تأبه للخرافات التي ما تزال شائعة بين عامة الناس وعملت على تحرير نفسها من ترسبات الفكر الأسطوري اليوناني والروماني.[4]

[1]– راسل برتراند: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الأول الفلسفة القديمة. ص 31

[2]– المصدر نفسه. ص 31–32

[3]– المصدر نفسه. ص 39

[4]– المصدر نفسه. ص 38–40

باعتبار أن البعد الديني العقائدي يشكل جزءاً أساسياً من الكيان الإنساني كان لدى اليونان طابع ديني بدائي قبلي وأكثرها انتشاراً العقائد الشخصية، حيث كان الناس يؤدون شعائراً معينة قصد استخدام السحر والشعوذة، كما عرفت هذه المرحلة طقوساً لا إنسانية مثل التضحيات أين كانت تذبح أو تحرق حيوانات مختلفة وأفراداً من الإنسان.[1]

يظهر البعد الإنساني للمجتمع اليوناني أنهم أول من عرف حقيقة المدينة التي تلجم الدوافع الفطرية وتكبحها وكذلك تخفف من الجانب الغريزي للإنسان، وتجعله أكثر اتساقاً في أجزائه حيث لا ينقض بعضها بعضاً، فوصفت مجموعة من الأفعال بأنها إجرام وخصص لها العقاب أما بعضها الآخر لا يعاقب عليه القانون. وعلى المستوى الفكر فإن اليونانيين قد عرفوا نطاق الفكر، فالمدينة الرصينة هي والعلم اسمان على مسمى واحد على وجه التقريب لكن العلم الخالص وحده لا ينفع، فالناس بحاجة مع العلم إلى العاطفة والفن والدين ولئن جاز للعلم أن يصنع الحدود للمعرفة فلا يجوز له أن يضع مثل هذه الحدود للخيال عند اليونان وهو جوهر إنسانية العصر اليوناني.[2]

حكم الأوضاع السياسية في بلاد اليونان صراع حاد بين أنظمة الحكم تمثل في النزاع الديمقراطي والأرستقراطي على الحكم، وهو صراع تشكل نتيجة الحروب المتتالية التي كانت السبب الرئيس وراء فقدان أثينا لقوتها السياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط، إلا أنها في نفس الوقت حملت صوراً من الإشعاع الفكري ثم اختارت لنفسها طريق الديمقراطية بعد أن دعت إلى الاتحاد بين المدن المتفرقة.

كانت هذه الصفة المميزة للعصور التي جاءت قبل الظهور الفعلي للنزعة الإنسانية إبان القرن 16م، أما فيما يخص التعريف التاريخي الذي قمنا به عن الهيومانيزم Humanism، لاحظنا في تحديد هذا الاصطلاح الكثير من الالتباس نظراً لاندماجه بمفاهيم مختلفة مثل الشعور الإنساني الذي يعني التعاطف مع الغير وهو موقف أخلاقي خالص، أو قد يعني الحركة الإنسانية التي ظهرت في أوروبا خلال القرن

[1]– المصدر السابق. ص 41

[2]– المصدر نفسه. ص 47–48

الرابع عشر بإيطاليا والسادس عشر بفرنسا، وهي التي تعرف بعصر النهضة The Renaissance وتعد المفهوم الأكثر قرباً من النزعة الإنسانية، التي تعبر عن رؤية جديدة للحياة الإنسانية وللوجود الإنساني تلك النزعة الممهدة للعصور الحديثة في أوروبا ولعصر التنوير.[1]

ارتبط هذا المفهوم أي الهيومانزم في تأصيله التاريخي بالتاريخ اليوناني والروماني فهناك عبارة لدى اليونان وهي Enkiklia Paedia وتعني التعليم المتوازن الذي يضم مجموعة من المعارف الإنسانية مثل فنون البلاغة والمنطق وكذلك علم العدد وعلم الفلك مع غيرها من العلوم الأخرى، كما اعتبرت طرق التعليم في تلك المرحلة تقنية تحكم في الشخصية الإنسانية، وبالنسبة للرومان فإننا نجد الخطيب اللغوي شيشرون قد اختار كلمة أخرى ليعبر عن فكرة التعليم المتوازن وهي Humanitas أصبح هذا المصطلح متداولاً في عصر النهضة بشكل آخر إذ كان يدل على مجموعة من المواد المدروسة في مجال اللغات والآداب الكلاسيكية Stdudia Humanitatis التي تمت ترجمتها إلى الإنسانيات Humanities، أما الشخص الذي يدرس مثل هذا النوع من المواد فهو Humanista أي Humanist. إن أكبر التباس صادف دارساتنا لهذا المفهوم كان الفرق بين الصفة والاسم فصفة الإنساني هي عبارة عن اشتقاق تم استخراجه من اللغة اللاتينية في مطلع القرن 16، أما كلمة النزعة الإنسانية Humanisme فقد ارتبطت بمطلع القرن 19، وبالتحديد سنة 1859 أين كتب كل من المؤرخين بوركهاردت وفويجت كتاب بعنوان " إحياء الكلاسيكيات القديمة أو القرن الأول للهيومانزم " وكان لهما الفضل في ربط هذا المفهوم بعصر التنوير في أوروبا.[2]

أطلقت صفة الإنساني على كل الباحثين في ميدان العلوم والأداب القديمة مثل الرومان واليونان وظهر الإنسانيون أول مرة في إيطاليا قبل أن يكون لهم وجود في بقية

[1]– س. درسدن: الحركة الإنسانية والنهضة، ترجمة عمر شخاشيرو، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ط، دمشق سنة 1972. ص4

[2]– المرجع نفسه. ص 11

ربوع القارة الأوروبية، ارتبطت النزعة الإنسانية كما ذكرنا بعصر النهضة الذي عرفته أوروبا وكان ذلك مع أعلام الأدب والشعر والفن والمسرح.

في خريف عام 1486 كتب بيك دولا ميراندول* خطبة لخص فيها آرائه الفلسفية وعرضها على المناقشة، لم تُلقى الخطبة أو تنشر إلا فيما بعد ثم توسعت لتصبح " خطبتاً في الكرامة الإنسانية " اعتبرت الخطبة بياناً للنهضة ولفكر الإنسانيات وشملت عدداً كبيراً من الشخصيات كداوود موسى وأفلاطون في "الطياوس"، وذكر في الخطبة فيثاغورس وتلامذته وهينوك وأصحاب الكابال، والنبي محمد وزرادشت والقديس بولص وغيرهم، جاء في بداية نص الخطبة : " الإنسان عقدة هذا العالم وفي البؤرة عندما تمت الخليقة ظهر الإنسان فقال الإله لم أخصص لك مكاناً أو حداً تقف عنده أومهمات معينة ذلك لكي تستطيع أن تقوم بكل عمل من الأعمال وتحتل الموقع الذي تحب وصاح عندئذ قائلاً ما أعظم فضل الله أبينا، وما أكبر سعادة الإنسان من ذا الذي لا يعجب بهذه الحرباء التي هي نحن"[1]، يظهر البيان وكأنه مزيج من الموضوعات الفلسفية والدينية التي يجب أن تكون منفصلة تبعاً لمفاهيمنا الحاضرة كما تركز اهتمام الخطاب الميراندولي على ماهية الإنسان نفسها وهي الحرية والتحول شرط أن يستعملهما في سبيل الوصول إلى الحق.

إن أهمية الخطبة وقيمتها في حقل الإنسانيات ليس أول محاولات الفلاسفة والآباء قد سبقها عديد من الأسماء شجعت لإثراء التراث الأوروبي بسمة مميزة هي الاتصال بقدماء الرومان والإغريق، وهي ميزة عرفتها الحركة الإنسانية في القرن 16،هذه العودة التاريخية للقدماء كانت بمثابة ردة فعل على المسيحية التي سادة العصور الوسطى

*جوڤاني پيكو دلاّ ميراندولا Giovanni Pico della Mirandola ولد بتاريخ 24 فيفري 1463 وتوفي ب 17 نوفمبر 1493كان فيلسوفا إيطاليا في عصر النهضة اشتهر بأحداث 1486 وكان عمره 23 سنة حين اقترح الدفاع عن 900 أطروحة في الدين والفلسفة والفلسفة الطبيعية والسحر ضد كل معارضيها، حيث كتب خطبة في كرامة الإنسان الشهيرة التي سميت "بيان/مانيفستو النهضة" وكانت نصا رئيسا في إنسانية النهضة وفي ما سمي "الإصلاح المحكم".

[1]– جيوفاني بيكو دولا كيراندول: خطبة في الكرامة الإنسانية (بيان مانيفستو النهضة)، ترجمة حسين إسماعيل، المدونة الإيحائية الجديدة، د.ط. ص 3

وعملت على دحض وإنهاء كل تراث يوناني أوروماني قديم، باعتباره تراثاً وثنياً معادياً للدين المسيحي فتم وصفه بالفكر الملحد لله والمسيح وروح القدس، حاربت المسيحية هذا التراث ولم يبقَ منه سوى بعض آراء أرسطو وأفلاطون، لكن عملية إحياءه بدأت تظهر من جديد مع بعض الشخصيات البارزة من بينها دانتي أليجيري* أحد كبار أدباء زمانه الذين أكدوا على ضرورة العودة إلى التراث القديم باعتباره عصراً عرف الإنسان خلاله نور العقل والقيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية. [1]

بعد قرن من الزمن جاء نيكولا مكيافيليMachiavelli Niccola 1469-1527 يؤسس دعوته هو الآخر ليعمل على خلق الوحدة الإيطالية ووضع أسس الدولة الحديثة بدلاً من الدولة المسيحية الكنسية، في كتابه الأمير كانت مناداته بتطهير إيطاليا من البرابرة الأجانب كما فعل سابقه بترارك*، ويُعتبر مؤلف مكيافيلي" الأمير" الذي لم يكن بحثاً في الفلسفة السياسية ولم يتساءل فيه عن ما هو الحكم الأفضل أوالمشروع ولا ما هي السلطة أو الدولة عموماً بل كان دراسة للوضع الإيطالي في تلك المرحلة.

أكد مكيافيلي على تفوق الأنموذج المختلط إذ لم يكن متحدثاً أرسطياً أوأفلاطونياً في مسألة أشكال الحكم وتيقن بأن الأسلوب الأمتن والأبقَ أن يحكم الأمير والعظماء والشعب معاً الدولة كما ألح على أهمية الميثاق الدستوري وحقوق المواطنين لأنه لا

* دانتي أليجيري 1265-1321(Dante Alighieri) كان شاعرا إيطاليا، أعظم أعماله "Divina Commedia"أو الكوميديا الإلهية، بشقيه الفردوس والجحيم، الذي يعتبر البيان الأدبي الأعظم الذي أنتجته أوروبا أثناء العصور الوسطى وقاعدة اللغة الإيطالية الحديثة، فهي واحدة من الأعمال الرئيسية لعملية الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة الفكر. وتعتبر تحفة من الأدب الإيطالي وواحدة من قمم الأدب العالمية.

[1]- س. درسدن: الحركة الإنسانية والنهضة. ص 11

* فرانشسكو بترارك Francesco Petrarca 1304-1374 باحث وشاعر إيطالي أحد إنسانيي عصر النهضة المبكرين كثيرا ما يدعى بترارك أو الإنسانية، ثارت سوناتاته الإعجاب في أوروبا وجرى تقليدها على نطاق واسع خلال عصر النهضة وأصبحت نموذجاً للشعر الغنائي. وسميت بالسونيته الإيطالية أو البترارکية، حيث قام بترارك بتطوير هذا الجنس الأدبي في عمله ديوان الشعر الغنائي، الذي بدأه عام 1336.

يمكن أن ينسجم النظام المدني مع وجود طبقة نبلاء إقطاعية متسلطة لأن الحكم الصحيح للبلاد لا يلغي أحقية الجميع في المشاركة السياسية.[1]

بحثَ ميكافيلي عن مشروع سياسي يمكن إيطاليا من تأسيس دولة حديثة مستقرة فكان كتابه الأمير منهجاً في نمط الحكم الصحيح والخصال والأساليب التي يجب أن يتزود بها الملك حتى يحكم البلاد بالشكل العادل. ومنها أن يكون شخصاً محبوباً من طرف رعيته التي ستساعده أثناء الحاجة، لكن عليه أيضاً أن يمتاز بالمكر والخداع حتى يصون الدولة من كل خطر سواءً داخلي أو خارجي وبالتالي تكون جميع الوسائل المتاحة أمامه لتحقيق هذه الغاية ذات طابع أخلاقي مقبول. يرى ميكافيلي أن وجود الدولة في حياة الفرد أمراً ضرورياً لكنه كان يزدري بشدة الحكم الكنسي أو ما يسميه الكرسي المقدس لأن الدين ليس سوى وسيلة للتماسك الاجتماعي ولابد أن تخضع هذه الوسيلة لإرادة الدولة كما يخضع الفرد لسلطة النظام حرصاً منه على بناء دولة حديثة وبهذا فإنه كان يقف من المسيحية موقفاً معادياً ومناهضاً.[2]

صاحبَ موقفه هذا من الكنيسة انتقاده المتواصل للطبقات الأرستقراطية ذات الأصل الإقطاعي كما رفض أن تبنى الدولة على تلك الدوافع الطبيعية للإنسان لأنها تعطل كل القيم الأخلاقية والقوانين فأعطى قيمة كبيرة للتنظيم العسكري في الدولة كونه القوة الوحيدة القادرة على توفير الأمن والاستقرار، لذا تعتبر فلسفته السياسية من الأسباب الأساسية التي سمحت للفصل الجذري بين مدينة الله ومدينة البشر.[3]

لم تكن الميكافيلية المحاولة الوحيدة للفصل بين الأبعاد الدينية والسياسية وعلاقتهما بالإنسان، فالمصلح الديني مارتن لوثر* أكّد هو الآخر على الطّبيعة القاصرة للإنسان

---

[1]– جان توشار: تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار الجزء الثاني، ترجمة د ناجي الدراوشة دار التكوين للتاليف والترجمة والنشر، ط1 سنة 2010. ص 353–355

[2]– المرجع نفسه. ص 355–357

[3]– المرجع نفسه. ص 358

* مارتن لوثر 1483–1546 راهب ألماني، وقسيس، وأستاذ للاهوت، ومطلق عصر الإصلاح في أوروبا بعد اعتراضه على صكوك الغفران نشر في عام 1517 رسالته الشهيرة المؤلفة من خمس وتسعين نقطة تتعلق أغلبها بلاهوت التحرير وسلطة البابا في الحل من "العقاب الزمني للخطيئة".

وعلى حرية الله المطلقة التي يخضع لها الفرد حتى يمتلك النعيم الأخروي هذا الفصل كان تأكيداً على مشروعية الإيمان بالله وفشل الإنسانية في صناعة مكانة وكرامة لنفسها كونها مجرد رهينة للذات الإلهية، إن هذا الفصل اللوثري هو في صف الدولة الإلهية وليس الوضعية التي دافع عنها ميكافيلي فقد قللت اللوثرية من قيمة الإنسان كما أنها استهانة بإحدى تعاليم الكنيسة وهي صكوك الغفران، كان الإصلاح اللوثري عودة مباشرة واتصالاً مكتملاً بين الإنسان والله وهي علاقة سلبية يخضع فيها البشر للإرادة الإلهية بشكل مطلق فلا إمكانية لتصحيح الخطأ بالدعاء أو بالصك الغفراني حتى الباب لا يمكنه إصلاح ذلك لو حدث معه، هذا يعني أن كل المحاولات البابوية لتخليص الإنسان من الذنب والخطيئة غير ممكنة لأن البابا لا يمكنه أن يعطي النعمة لأي إنسان، حتى أنه لن يتمكن من أن يدرك هل هو في نعمة أم نقمة فيكون الأمل الوحيد للإنسان الدخول في علاقة وثيقة بينه وبين الله. فيأخذ كل شيء من نصوص الكتاب المقدس دون أن يطالب بأي شيء اسمه الحقوق الدنيوية.[1]

تبقى الميكيافيلية فلسفة سياسية جديرة بالاهتمام، إلّا أن أبعادها الإنسانية لم تكن مكتملة بحق، لأنها نظرية تفرض استعمال القوة والعنف من طرف الحكام على شعوبهم كما أنها تنفي الجانب الديني في الطبيعة البشرية، فرغم أن الإيديولوجية الدينية قد خلقت الكثير من العنصرية والدموية، لكن ذلك لا يعني أن ينسلخ الفرد من أحد أبعاده الأساسية وهو الدين.

بعد مُضيِّ زمن ليس بالبعيد عن الفترة التي جاء فيها ميكافيلي نجد فرنثيسكو دي فيتوريا*، الذي اعتبر الدولة مثل المجتمع الإنساني من ناحية أن كلاهما ينتمي لذلك المبدأ الطبيعي الذي تنتظم بفعله كل الموجودات، وأكد أنه لا يمكن تصور الإنسانية دون تنظيم اجتماعي أو سياسي فهما يعملان على نشر الخير المشترك بين جميع الناس، أو ما يسميه دي فيتوريا المصلحة العامة، حيث يجب أن تحكم الدولة وفق

[1]– كوينتن سكن: أسس الفكر السياسي الحديث عصر الإصلاح الديني الجزء الثاني، ترجمة حيدر حاج إسماعيل،المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 ، بيروت سنة 2012. ص 42–44

* فرانثيسكو دي فيتوريا، Francisco de Vitoria 1486–1546 كاتب وأستاذ جامعي بمدرسة سلامانكا، اشتهر بأفكاره وإسهاماته المميزة في القانون الدولي والاقتصاد الأخلاقي على أساس الفكر الإنساني في الواقعية الأرسطية.

مقتضيات عادلة وإنسانية من خلال عدم التفريق بين سلطة الملك وسلطة الجماعة وهذه العلاقة التي بينهما هي التي تشكل تماسك الدولة وانسجامها.[1]

عرف عن الحركة الإنسانية أو المذهب الإنساني في أول بداياته دفاعه عن الحرية الإنسانية بكل أشكالها، أين أيقظ في نفوس الناس الشعور بطاقاتهم الدفينة والكامنة داخلهم وجعلهم يؤمنون بحرية التعبير وإبداء الرأي في جميع شؤون الحياة، حتى يتمكنوا من الشعور برسالتهم وغايتهم التي خلقوا من أجلها.

إن المذهب الإنساني رغم كونه ثورة ضد كل سلطة حاولت التحكم بالإنسان ومكانته لم يعارض القيم الدينية أو العلمانية التي كانت موجودة ولم يعارض سلطة الدولة أو القانون، بل قام بفتح المجال أمام حقوق الإنسان الشخصية. لهذا فإن أي اصطدام حدث بين الحركة الإنسانية وبين الدين والدولة سببه أن هاتين المؤسستين حاولتا القضاء عليها وقمعها بكل الوسائل المتاحة، لذلك حق القول أن أوروبا مَدينة للنزعة الإنسانية بكل توسع للقيم والمعرفة والتنوير الذي شهدته بعد عصور طويلة من الظلام.[2]

عرف الإنسانيين الأوائل لعصر النهضة شمول معارفهم وسعة عقولهم مثل بيترو باولو فيرجيريو* صاحب أكبر رسالة إنسانية في حقل التربية De ingenuis Moribusالتي حملت برنامجاً ثرياً استوفى معارف فلسفية وأخلاقية وموسيقية، كما أمن المذهب الإنساني بواقعية الإنسان ورفعته عن الموجودات بنوع من الكمال فكان مشجعاً للتميز فاتحاً المجال أمام التعاطف والتسامح الذي لم يوجد في العصر الوسيط بسبب الجهل كعدو أول للإنسان بعد الخرافة والعقيدة اللتين كانتا مرتبطتين بفعل سلطة الكنيسة وهيبتها، كانت النزعة الإنسانية فكراً متحرراً من التعاليم الدينية أو الوثنية متشبعاً بالقيم الروحية كالخير والعدل والتسامح وكل أنواع الفضيلة، لقد كان مذهباً

[1]– جان توشار: تاريخ الأفكار السياسية، مرجع سابق. ص 372–373

[2]– رالف بارتون: إنسانية الإنسان، ترجمة، سلمى الخضراء الجيوسي ، منشورات مكتبة المعارف بيروت، د.ط. ص 59–60

* بيترو باولو فيرجيريو peitro paolo vergerio 1498–1565 مصلح إيطالي بروتستانتي عرف باهتمامه الأدبي واللغوي، دعم وطور اللغة السلوفينية والآداب الكرواتية.

يسعى لملئ قلوب الناس بالمحبة والسعادة من خلال تحقيق كل الحاجيات التي بإمكان الإنسان أن يصل إليها.[1]

في حديثه عن الحضور الخاص بالنزعة الإنسانية في عصر النهضة والتنوير يذكر راسل في كتابه حكمة الغرب الجزء الثاني أهم سمات هذا العصر وأهم أعلامه وهو ما سنعمل على ذكره قبل التوسع في شأن البيئة الإنجليزية وطبيعة القيم السائدة مع ذكر الانتقادات التي قدمها راسل لقيم المجتمع الإنجليزي.

بلغ الصراع الديني ذروته في أوروبا خاصة قبل نهاية القرن 16 رغم وجود مجموعة قيم ديمقراطية لذا جاءت حركات الإصلاح في عصر الأنوار محاولة جديدة للعودة إلى تقدير العقل وإعماله في تحقيق الأفكار والعواطف الصالحة، لأجل نشر النور وإخراج الفرد من الظلام الذي كان يسيطر عليه، فَقَدْ أمل الناس في أن يخلصهم هذا النور من انفعالات الحياة السالبة ويملئ قلوبهم بالحماس والحياة، كان الفكر الفلسفي سواءً في صورته العقلانية أو التجريبية محاولة لتزويد الحياة بنوع من الاستقرار الاجتماعي والسياسي، من أشد الحركات التي عرقلت مسار القيم وحركية العلم نجد الرومانتيكية* التي نظرت إلى العلم والثورة الصناعية كمحاولة تسعى لقطع الصلة بين الإنسان وطبيعة التي وجدت أسمى تعبيراتها في الزراعة، كان التصنيع بالنسبة لهؤلاء لعنة على الإنسانية لذا حاولوا تقليل قيمته واحتقاره في كل مستويات الحياة ،عملت الرومانتيكية في مرحلة التنوير الأولى على زرع فكرة القومية وعاطفة الوطنية ما جعل مفهوم الأمة يؤخذ بوجهة نظر سلبية وهو ما أشعل فتيل الكثير من

[1]– رالف بارتون: إنسانية الإنسان. ص 73 –75

* الرومانتيكية حركة أدبية فنية ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع، وكانت بداية نشأتها في فرنسا ثمَّ توسعت وانتشرت في أرجاء أوروبا، تحديدا في ألمانيا وإسبانيا وإنجلترا، وهي حركة فنية أدبية ظهرتْ ردا على الأفكار الأرستقراطية المنتشرة في عصر التنوير، بلغت المدرسة ذروتها في النصف الأول من القرن التاسع عشر،وجدير بالذكر أن المدرسة تؤكد على المشاعر والأحاسيس والعواطف كأساس للفنِ والأدب والجمال في الحياة.

الحروب كثورة 1789، أما في إنجلترا كانت النزعة القومية أقل حدتً وهمجية من تلك المنتشرة في باقي الأقطار الأوروبية " إسبانيا، إيطاليا وألمانيا".[1]

نشر الفكر الرومانتيكي الطابع الطوباوي في معظم مناطق أوروبا خاصة في المجال الثقافي والاجتماعي وبالتالي فَقَدَ العقل الكثير من أهميته، كما اجتهدت هذه الحركة من خلال برامجها التعليمية لتجعل من الإنسان يتشكل وفق بعد واحد وهذا تفكير ضال يغلق مجال المعرفة العقلية ويحددها وهو الأمر الذي ولد اللاعقلانية والهمجية في الإنسانية وأضعف المعرفة العلمية والأخلاقية.

كان لعصر التنوير الأثر البالغ والكبير في مطلع القرن 18 إذ يعد مرحلة أدارت فيها الإنسانية ظهرها للقيم والتعاليم الكلاسيكية ذات الطابع الخرافي ما سمح للعلم بأن يجد القوة الدافعة له، جمع علماء فلاسفة هذا العصر معارفاً لا تعد ولا تحصى بغية فهم العالم وطريقة التعامل معه راجين الوصول لنمط تعامل مع السلطة القائمة يمكنهم من الانفصال عن هيمنتها الظالمة، وقد أسهم في هذا كثير من الشخصيات الأدبية والعلمية نجد منهم دالمبير* الذي كتب أحد أشهر وأعرق مؤلفات عصره وهي الموسوعة التي حملت فكراً إنسانياً متميزاً خاصة في مجال الفنون والأدبيات، أما ديدرو فقد عرف عنه نقده المتواصل لكل أشكال العقائد التقليدية التي كانت في عصره.[2]

كانت موسوعة دالمبير رمزاً من رموز عصر التنوير ورغم أنها لم تكن عملاً معادياً للدين بل كان هدفها تحقيق السعادة الإنسانية في المستقبل، لكنها لقيت الكثير من الرفض خاصة طرف، التي وصفها راسل بأنها حركة معادية للعقل ولحرية التفكير وكان أكبر روادها جون جاك روسو 1712-1778، الذي لم يكن فيلسوفاً بالمعنى الحقيقي للكلمة فَقَدْ ظهرت قيمته في المجال السياسي والتربوي والأدبي وهذه الأعمال

---

[1]- راسل برتراند: حكمة الغرب الجزء الثاني " الفلسفة الحديثة والمعاصرة " ترجمة فؤاد زكريا سلسلة عالم المعرفة، د.ط، سنة 1983. ص 109-110

* دالمبير جان لورون Jean le Rond d'Alembert 1717-1783 عالم وكاتب فرنسي يعد واحد من أبرز ممثلي الفكر الفلسفي في "عصر الأنوار" كان صديقا لفولتير وديدرو وهو الأمر الذي دفعه إلى كتابة الموسوعة التي ضمت الكثير من قضايا العلم والأدب وحتى الرياضيات. (جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة. ص281-282)

[2]- راسل برتراند: حكمة الغرب الجزء الثاني. ص 111-112

هي التي دعمت هذه الحركة وزادت من إحكام قوتها ونفوذها في أوروبا، لأن حياة روسو حسب راسل كانت تعمد إلى بناء القيم انطلاقا من الأحاسيس والعواطف المتصارعة في داخله.[1]

أقر راسل أنه لم يعجب أبداً بشخصية روسو الرومانتيكية ليس لأسباب ذاتية بل لما عرف عن الفيلسوف الفرنسي المشهور من مواقف غريبة جداً فذات يوم كان روسو يعمل عند سيدة عجوز ولما ماتت عاد ليعيش حياة الحرمان في الشوارع لكن الغريب في القصة التي اعترف بها روسو نفسه أنه قد سرق وشاحاً من تلك السيدة وزعم أن الخادمة هي من أعطته إياه فدفعت الخادمة عقاب ذنب لم تقترفه أي أنه قدم شهادة كاذبة ولم يكن ينوي بفعلته السوء للفتات التي كان معجبا بها، ومن مواقفه كذلك أنه كان سكرتيراً للسفير الفرنسي في إيطاليا فقدم استقالته لا لشيء سوى لأن أجره تأخر في الوصول، في نفس السياق يظهر لنا راسل انعدام البعد الإنساني في شخصية روسو حينما عاش مع الخادمة تيريزا لوفاسير وأنجب منها 5 أطفال بصفتها زوجة له لكنه في الأخير وضعهم أمام دار اللقطاء. كانت أفكار روسو مؤذية ضارة بالعلم والحضارة الإنسانية لأنه اعتبر ظهور العلم نتيجة لعوامل هابطة وأن الإنسان المتحضر فاسد أما الشخص الهمجي الذي يمتاز بصفات النبل والأخلاق الرفيعة كل أراء روسو جاءت في كتابه بحثاً عن اللامساواة الذي نشره سنة 1754 وهو مؤلف انتقده فولتير بشدة لدرجة أصبح بينهما عداء وكره كبيرين، كان دفاع روسو متركزاً على المشاعر في مقابل العقل وهو أقوى عامل ساعد على نشر الرومانتيكية أين أصبحت المشاعر والعواطف الطبيعية التي لدينا سبيلاً صحيحاً للوصول إلى الأخلاق والقيم، وليس العقل حسبه سوى وسيلة تضليل. هذه النظرة حسب راسل شديدة الخطورة على الإنسانية لأنها تمجد الجانب اللاعقلاني في الإنسان، وتخضعه لسيطرة العاطفة التي سنرى مدى خطر نتائجها على الإنسانية فيما بعد.[2]

[1]– المصدر السابق. ص 114

[2]– المصدر نفسه. ص 115–116

أثناء حديثه عن الفلسفة الكانطية خاصة في مشكلة الأخلاق يرى راسل أنها مجرد تضييق على الذات الإنسانية، وكأن فلسفة كانط تُبنى على نوع من الاستقامة الكالفينية*، لأنها تركز على المبادئ وتهمل السلوك الإنساني وآثاره وبالتالي ستكون السعادة إلزامية بما يتماشى مع المبادئ العالمية لتصبح كل أفعالنا تحدث بشكل متثاقل غير صار، يصف راسل فلسفة كانط الأخلاقية أنها نوع من الحصار على الذات الإنسانية ومع ذلك فإنها ذات مكانة كبيرة خاصة نظرته العالمية للسلم ومشروعه الذي عمل من خلاله على نشر ثقافة السلام بين البشر وفق معايير وقيم أخلاقية تمتاز بطابعها الكوني الشمولي وهو ما عرضه في كتابه " السلام الدائم " 1795، من أهم الأفكار التي أعجبت راسل في فلسفة كانط هو قوله باتحاد الأنظمة الدولية العالمية تحت حكومة نيابية[1] تنظم العلاقات بين المجتمعات بنشرها للفضيلة الأخلاقية حتى يصير كل فرد مواطناً صالحاً في وطنه، وبالتالي سينعكس ذلك على عالميته لهذا لا يجب أن نحدد الخير والشر والفضيلة بغايات تحكمها السلطة الحاكمة بل يجب أن نترك الحرية للإنسانية في تحديد ذلك حتى لا نقع في النظرة الاستبدادية للنظام السياسي[2]، وهي الفكرة التي سنتحدث عنها فيما بعد بخصوص راسل تحت عنوان الحكومة العالمية ومستقبل الإنسانية.

يَعتبر راسل أن بلده إنجلترا كانت ذات أهمية لم تحظَ بها الكثير من الحكومات الأخرى خاصة مع نهاية القرن 18 وبداية 19، كان مصدر هذه الأهمية حسبه هو نمو التصنيع الذي لم يكن وقتئذ موجوداً في كل أقطار أوروبا كما هو حاصل اليوم فقد

---

* الكالفينية أو المعروفة أيضاً باللاهوت المصلح هي مذهب مسيحي بروتستانتي يعزى تأسيسه للمصلح الفرنسي جون كالفن، وكان هذا الأخير قد وضع بين عامي 1536م و1559م مؤلّفه مبادئ الإيمان المسيحي والذي يعتبره الكثيرون من أهم ما كتب في الحركة البروتستانتية، انفصل الكالفينيون عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في القرن 16يختلف الكالفينيون عن اللوثريين أنهم فيما يعتقدون بخصوص الوجود الحقيقي للمسيح في التناول المقدس، ونظريات العبادة، وقانون الله للمؤمنين، وأمور أخرى.

[1]– راسل برتراند: حكمة الغرب الجزء الثاني، مصدر سابق. ص 125–126

[2]– وليد يوسفي: المشروع السياسي الكانطي والمعقولية الكونية، مجلة التدوين، كلية العلوم الإجتماعية جامعة أحمد بن محمد وهران 2، المجلد 12 العدد 2. ص 327

نتج عن هذه الثورة التي عرفتها إنجلترا في مجال التّصنيع عادات فكرية مختلفة تفرد بها الإنجليز في المجال السياسي والاقتصادي. فظهرت وجهة نظر جديدة شقت طريقها بصعوبة أخذت بعين الاعتبار الوسط الاجتماعي لتلاؤمه مع العناصر الأساسية لوسائل الإنتاج الجديدة، الأمر الذي لم تهتم به الطبقات الحاكمة ولم تعرف طبيعة المشاكل التي يتركها من ناحية البنية الاجتماعية، وهذا نتيجة لأفكارها التقليدية وانشغالها بأمور السياسة بعيداً عن الوسط الاجتماعي والثقافي.

كانت انجلترا قبل ظهور التصنيع أي بعد نهاية حرب نابليون مقسمة إلى طبقات مختلفة متباينة بسبب المهن التي تمارسها، حيث وُجدت هناك على العموم ثلاث طبقات: أصحاب الأراضي والمزارعين والعمال اليدويين، وتكونت كذلك طبقة صغار الملاك وهم سادة الأرياف وكبارهم هم من الطبقة الأرستقراطية، التي أحكمت سيطرتها على القرارات ومجالس الحكم متحكمة في سلطة البرلمان لخدمة مصالحها الخاصة دون المبالاة بالطبقات الكادحة التي همشت بشكل كبير في تلك المرحلة.[1]

لم يدم الأمر طويلاً حتى انقسمت الطبقة الأرستقراطية لحزبين بينهم كثير من العداء والكره وهما الأحرار والمحافظون the whigs and tories، أحكم الأحرار القيد على السلطة بعد سقوط جيمس الثاني لمدة قرون من الزمن، لكن المحافظون عادوا من جديد في عهد جورج الثالث وبدئوا بمعارضة الثورة ضد فرنسا، وكان لهذا الانقسام بين الأرستقراطيين جانب اجتماعي وسياسي، حيث وجدت علاقات صداقة وتزاوج فالأحرار مع الأحرار والمحافظون كذلك مع بعضهم البعض، رأى المحافظون أن السبيل الوحيد لنزع سم العداوة من عقول الناس اتجاه الحرب خاصة بعد سجن نابليون في سان هيلانة هو القضاء على أي اتجاه ثوري يدعم الحرب في إنجلترا، كما أمنوا بأن الدرجات الاجتماعية ليست وليدة الأنظمة السياسية أو الاقتصادية بل هي من صنع الله كما هو الحال في أن يحترم الصغير الكبير فعلى طبقات

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم، ترجمة عبد الكريم أحمد مراجعة محمد بدران جامعة الدول العربية الإدارة الثقافية المكتبة الأنجلو مصرية، د.ط. ص 69–70 .

المجتمع أن تحترم هذا التدرج الإلهي، وهو من بين الأسباب التي أدت إلى غياب القيم الإنسانية في انجلترا.[1]

قيد حزب المحافظين الحرية بكل أشكالها فكانوا ضد حرية الصحافة والخطابة والتظاهر والتجمهر، كما أنهم رفضوا انتشار التعليم بين عامة الناس من الفقراء والطبقة المتوسطة الكادحة حتى يبقى الأرستقراطيين هم المسيطرين على الأوضاع السياسية والاقتصادية وحتى لا تثور ضدهم تلك الطبقات خاصة إذا ما تعلمت وتحررت، رغم ذلك وجد بينهم رجالاً رفضوا سياستهم وثقافتهم المستبدة من بينهم كانتج الذي كُرهَ بين المحافظين، فذات مرة عندما خرج كانتج من الوزارة سمع أحد السادة المحافظين يقول: "الشكر لله أنه لم يسمح لأن يكون بيننا صلة بهؤلاء الملعونين الذين يعطون الحق للعبيد"[2]، أما الأحرار فإنهم اختلفوا كثيراً عن المحافظين لأنهم لم يكنوا الولاء للأسرة الحاكمة مثلما فعل حزب المحافظين كان الأحرار أسياداً على أنفسهم وعرفوا بصراعهم المرير ضد العائلة الحاكمة لأنها ليست سوى ممثل لقرارات الشعب وحريته وإذا لم تقم بوظيفتها على أكمل وجه وبشكل عملي فإن واجب الرعية هو إنزالها من كرسي الحكم ومعاقبتها نتيجة إهمالها لمصلحة الرعية وخدمة مصالحها الخاصة.

كان اللورد جون راسل أحد الرجال الأحرار يروي راسل عن جده أنه في إحدى الأيام سألته الملكة فيكتوريا " جون راسل هل تعتقد حقيقة أن مقاومة الملوك لها ما يبررها فأجابها نعم "[3]، كان الأحرار يعبرون عن رغبتهم وأرائهم ولو تمت مصادرة حرياتهم وإدخالهم السجن، إيماناً منهم بالحرية والدعوة إلى الإصلاح هذه كانت الشرارة التي تميز بها برتراند راسل كونه من أسرة متحررة ثورية ومستقيمة.

أيَّد الأحرار الحرب ضد نابليون واعتبروها ضرورية للتخلص من طغيانه لكنهم أرادوا منحه فرصة أخرى، وتأسف راسل كثيراً لأنه لم يحصل على هذه الفرصة، عرف

---

[1]– المصدر السابق. ص 73

[2]– المصدر نفسه. ص 74

[3]– المصدر نفسه. ص 73–74

عن الأحرار إيمانهم الكبير بالحرية والقيم الإنسانية واعتبروا أن الملكية ليست أداة للتسلط بل هي خدمة الرعية فالملوك يجب أن يكونوا إنسانيين طيبين مع العامة الناس. يذكر لنا راسل أن ملوك تلك الفترة أسرفوا كثيراً لأنهم كانوا ضعفاء لا خبرة لهم بالشؤون السياسية والاقتصادية، ففي عهد وليام الرابع عندما تم بناء قصر بكنغهام كان هناك إسراف شديد مبتذل كلف مبالغ طائلة ومع ذلك ارتكبت الكثير من الأخطاء في نمط الألوان واتساقها الأمر الذي يبعث على الغثيان وليس على الراحة النفسية وجمالية الفن فحسب راسل كان الناس في تلك الفترة متطرفين نظراً لوجود مثل هؤلاء الملوك السفه المفسدين،[1] هذه الأحدث أخذها راسل من خلال قراءته لأوراق جريفيل* وهي في 4 مجلدات التي لم أستطع في بحثي أن أتحصل على نسخة منها، سواء باللغتين الفرنسية أو الإنجليزية.

لم يكن كل الأحرار رجالاً مثقفين يمتلكون الوعي والحنكة السياسية والذكاء في إدارة شؤون البلاد، لكن زعماء الحزب كانوا على قدر كبير من الثقافة التي يأخذونها بيسر مع إضفائهم عليها الطابع الخلقي الذي كان من سمات القرن الثامن عشرا،[2] كان مجتمع الأحرار متسامحاً مع كل أنواع الشذوذ الراديكالي ومصحوبا بحضور البديهة والعلم وعراقة الأصل، وكان الزعيم بيرون من الأحرار الذين حملوا في شخصيتهم هذه الخصال النبيلة دافع بيرون بشدة داخل مجلس البرلمان عن المتظاهرين بمنطقة لوديت * Luddites بسبب الممارسات الوحشية التي تعرضوا لها ، كان بيرون خطيباً إنسانياً نظراً لأخلاقه السامية التي تميز بها ومواقفه الشجاعة ضد أعضاء البرلمان الإنجليزي

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 75

* هنري وليام جريفيل 1801–1872 أرستقراطي إنجليزي وكاتب يوميات كان الإبن الأصغر لتشارلز جريفيل تلقى تعليمه في مدرسة وستمنستر، وكنيسة المسيح، وجامعة أكسفورد أين تخرج وهو يتقن اللغتين الفرنسية والإيطالية، شغل العديد من المناصب الراقية في البرلمان الإنجليزي ما بين سنة 1834–1844، احتفظ خلال حياته بمذكرات عن الأوضاع السياسية في إنجلترا كتبت تحت عنوان يوميات هنري جريفيل Diary of Henry Greville.

[2]– المصدر نفسه. ص 77

* لوديت Luddites هي منظمة سرية لعمال النسيج الإنجليز في القرن 19، وهي فصيل راديكالي دمر آلات النسيج كشكل من أشكال الاحتجاج. ويعتقد أن المجموعة أخذت اسمها من نيد لود ، وهو نساج من أنستي بالقرب من ليستر.

والأسرة الحاكمة،[1] بدأت حركة لوديت في أرنولد نوتنغهام في 11 مارس 1811 وانتشرت بسرعة في أنحاء إنجلترا خلال العامين التاليين، وهو ما سبب معاناة الاقتصاد البريطاني بشكل كبير من 1810 إلى 1812، خاصة ارتفاع معدلات البطالة والتضخم كما وجدت أسباب أخرى لهذا التراجع الاقتصادي وهي التكلفة العالية للحروب مع نابليون ونظام نابليون القاري للحرب الاقتصادية والصراع المتصاعد مع الولايات المتحدة الأمريكية، أدت الأزمة إلى احتجاجات وعنف واسع النطاق، لكن الطبقات الوسطى والعليا دعمت الحكومة البريطانية آنذاك في استخدم الجيش لقمع جميع اضطرابات الطبقة العاملة وخاصة حركه لوديت لعمال النسيج.[2]

كان الأحرار شديدي التشكيك في شؤون الدين مما دفعهم للانشقاق عن الكنيسة الإنجليزية دون الجهر بآرائهم وفي سرية تامة ضمن أحاديثهم واجتماعاتهم الخاصة عاشت إنجلترا فترات كان الدين يقلق بال الناس، وكانت حياة المزارعين في أوائل القرن التاسع عشرة في إنجلترا مليئة بالتعاسة باستثناء فرنسا وبعض أجزاء ألمانيا حيث عرفت حياتهم الاجتماعية تحسن بصفة عامة، وبالنسبة لإنجلترا كانت تعيش انحطاطاً وتراجعاً مستمراً يحدث في هدوء تام لا يكاد يلاحظه أحد.

استعملت إنجلترا وسائلاً تنهب بها الطبقات الثرية تلك الأسر الفقيرة والكادحة وهي وسائل متعددة ومختلفة أبرزها وسيلتين هما "التسوير وقانون الفقراء" كان التسوير يتم من خلال توزيع الأراضي استناداً على قوانين يصدرها البرلمان، وكانت البداية بالحقول ثم الأراضي البور ليمتلكها كبار ملاك الأراضي وهم عادة من الأعيان أو أعضاء في البرلمان أما المزارعين الصغار فلا يحصلون على شيء في العادة، وإذا منحوا نصيباً فهم لا يستطيعون العمل والإنتاج بسبب النفقات التي يتطلبها الزرع والحصاد لهذا يفر المزارع الصغير نحو أمريكا أو مدن صناعية كبرى ليصبح عاملاً يومياً في إحدى المصانع من أجل كسب قوة يومه بعدما كانت لهم أراضي تم استغلالها بفعل قانون

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 78

[2]– Britain Against Napoleon: The Organization of Victory,1793.1815,Hardcover.May21.2014.p 410-412.

التسوير، أما الذين لم يجدوا أماكن يعملون فيها فإنهم يموتون جوعاً وبرداً، هذا القانون حسب راسل لم يكن إنسانياً لأنه حرم الكثير من المزارعين حقوقهم المدنية والطبيعية مما انعكس سلباً على حياتهم وأدى بهم إلى الشعور بالضنك والألم والقسوة والإهانة.[1]

أما قانون الفقراء فإنه يعود لعهد الملكة إليزابيث ويقال إن دوافعه كانت إنسانية لكنها ليست كذلك حيث كان الفقراء يعيشون في أبرشية* ملزمة بهم توفر لهم ما يحتاجونه حتى لا يموتوا جوعاً، كما لم يسمح لهم بالخروج منها أو التحول للعيش في أبرشية أخرى بداعي أنها أنفقت أموالها الخاصة عليهم، في ظل هذا القانون منع الفقراء من مغادرة مملكاتهم للبحث عن مناصب للعمل وكأنهم عبيد أو أسرى حروب، هذه حالة المزرية التي عاشها الواقع الإنجليزي لم تعكسه كمجتمع علمي عرف أول ثورة صناعية ناجحة في العالم، وبعد تفاقم الحروب في إنجلترا تطور هذا القانون وأصبح يسمى بنظام " سبيني هاملاند" بسبب عجز المحصول في تلبية حاجات الناس، هذا النظام لقي رفضاً كبيراً إذ حدثت مظاهرات واسعة النطاق كانت النساء أكثر من شاركن فيها رأت السلطات أن أساليب القمع وحدها لا تكفي لإخماد هذه التظاهرات وطلبت الحكومة من الفقراء أن يكتفوا بالخبز الأسمر والبطاطا والحساء، لكنهم رفضوا هذا التعسف الحاصل وواصلوا التظاهر الذي فقدوا فيه الكثير من أفراد عائلاتهم.[2]

واصلت الحكومة الإنجليزية سياستها القمعية فوضعت إصلاحات مالية جديدة وهي تخفيض أجور العمال حتى تتحمل الخزينة ضريبة الفقراء ويتمكن كل فقير من حفظ حياته برغيف خبز حتى لا يموت جوعا، بالنسبة لبرتراند راسل فإن هذا النظام ورغم التجديدات التي أجريت عليه لم يكن إنسانياً ولا كريماً، لأن الناس حسبه كانوا قد خرجوا للتو من الحرب وكان هذا القانون يبدوا لهم في قمة الكمال والإنسانية لكنه ليس كذلك.

---

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 84–85

* الأبرشية نوع من التنظيم الكنسي تتمتع فيه كل أبرشية باستقلال ذاتي، وقد تبنى البروتستانت هذا الشكل الإداري للكنيسة ويطلق عليهم اسم "الطائفيون" حيث جعلوا كل جماعة مصلين يديرون شؤونهم بأنفسهم.و أول طائفة منهم بروانستس، نسبة إلي روبرت براون الذي عرَف مبدأ جماعة المصلين (الطائفة) عام 1580.

[2]– المصدر نفسه. ص 86–87

كان القائمون على هذا النظام الخاص بالفقراء يرونه إنسانياً بل ظنوا أن ما يدفع من الخزينة لسد جوع الطبقات الهشة والكادحة إحساناً منهم ودليلاً على حبهم للخير ضلت الأجور محددةً لا زيادة فيها وتحمل فقراء إنجلترا هذه الأوضاع المزرية والمهينة التي فرضها النظام عليهم، أما في فرنسا كانت الثورة سبباً في ارتفاع أجورهم ارتفاعاً كبيراً رغم من أن الحروب كانت طويلة وحملت معها الكثير من الهزائم والخسائر المادية والبشرية أما العلاقة بين المزارعين ورجال الأعمال الإنجليز في ميدان الاقتصاد والصناعة كانت في الغالب سياسية تغيب فيها المعاملات الاجتماعية والإنسانية تقوم على الربح وبهذا تبين أن للمعاملة حدوداً تقف عندها وليست الإنسانية قاعدة فيها فقد كانت الضرائب التي يفرضها المزارعون على القطن والحبوب ترفع ثمن الخبز ومن ثمة تزيد من النفقات التي يتطلبها العمال في المصانع إذ يضطر أصحاب المصانع لرفع أجور العمال لأنها تذهب إلى جيوب الفلاحين وبالتالي يصبح للعلاقة طابعاً اقتصادياً سياسياً تغيب فيه القيم الإنسانية.[1]

غابت عن الإنجليز القيم الإنسانية لوقت طويل ويضرب لنا راسل مثالاً على ذلك هو غياب القوانين التي تحمي الأطفال الذين كانوا يعملون ويبيتون في مصانع ويتعرضون للموت بالاختناق والبرد، مما دعا البعض من المصلحين الإنسانيين في تلك الفترة للمطالبة بمبيت الأطفال خارج المصانع بدلاً من الاحتفاظ بهم داخلها وكان بين هؤلاء شخصية تميزت بدفاعها المستمر عن حقوق الأطفال المسلوبة من طرف أصحاب المصانع وهو السير هانواي الذي فكر بحل جديد وهو جعل الأطفال يبيتون خارج المصانع حتى لا يموتوا من الاختناق لكن هذا الحل أفرز للسلطات مشكلة جديدة وهي كيفية التعامل مع الأطفال الذين يبيتون في الشوارع، هذا ما زاد نسبة طلب أصحاب المصانع للأطفال وأصبحوا بعد ذلك يعدون من أملاك صاحب المصنع حتى سن الواحد والعشرين. ربما قد كان يبدوا السير هانواي رجلاً له نية حسنة وطيبة لكن بخصوص الحل الذي قدمه لم يكن مفيداً للأطفال الفقراء لماذا لم يفكر هؤلاء في بناء

[1]– المصدر السابق. ص 88

مراكز تحمي الأطفال من البرد وتجعلهم يقضون فيها ساعات الليل الطويل بعد عملهم الشاق والمتعب.[1]

غابة القيم الإنسانية لدى المجتمع الإنجليزي في معاملة الأطفال اليتامى والفقراء حتى أصبح مالكي المصانع عندما يفلسون أو تتراجع نسبة بائعاتهم وأرباحهم يؤخذون الأطفال في عربة ليتم وضعهم في مناطق منعزلة يطلق سراحهم ويتصرفوا كيفما استطاعوا، من أجل تفادي هذه الوضعية المزرية التي عاشها الأطفال الأبرياء قام السير روبرت بيل بوضع قانون خاص يحافظ من خلاله على أخلاق الصبيان لكنه يخص الصبيان العاملين في صناعة القطن حيث يعملون ليلاً لمدة 12 ساعة يومياً وتخصص لهم غرف منفصلة للأولاد والبنات وسرير لكل فرد مع السماح لهم بتلقي دروس في الديانة المسيحية، لكن بعض رجال الأعمال رفضوا هذا القرار لأنه يخرج الكثير من الأموال التي كدسوها لسنوات طويلة من العمل.[2]

تلك الأوضاع التي تحدث عنها راسل بخصوص المجتمع الإنجليزي لم تمنع وجود مدافعين عن القيم الإنسانية وحقوق الأفراد والطبقات الفقيرة والكادحة لأن التفكير الأخلاقي الرفيع حسبه ليس نشاطاً إنسانياً متاحاً للجميع بقدر ما هو نتيجة للأحوال والأوضاع القاسية التي يعيشها الإنسان، وإثر هذا الفساد الأخلاقي والإنساني الذي أصاب إنجلترا في قطاعاتها الاقتصادية والسياسية، ظهر رجال أعملوا عقولهم في الوصول إلى حلول لتلك المشاكل التي كانت تعرض أمامهم، وهم من أبدعوا علم الاقتصاد السياسي والذي أنتج بالاشتراك مع فلسفة بنتام وعالم نفس جيمس ميل، هؤلاء هم طائفة من العباقرة لا يملكون أي تصور شخصي لهم رجاحة العقل والحرص والموضوعية في النقاش يهتمون بأمور العامة من الناس والطبقات المتوسطة والفقيرة ومصالح كل الطبقات المستضعفة.[3]

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 94

[2]– المصدر نفسه. ص 95

[3]– المصدر نفسه. ص 103

عن التجديدات التي عرفها الجانب الاقتصادي في إنجلترا تحدث راسل عن مكانة آدام سميث مؤسس علم الاقتصاد البريطاني الذي كان حضوره الإنساني ودفاعه عن الطبقات الكادحة في إنجلترا أقل من غيره، كان آدام سميث شخصاً معتدلاً مهذباً يتحلى بقيم وأخلاق الجنتلمان التي تميز بها أرستقراطيي القرن الثامن عشرا، لكنه أخطأ عندما أكد بأن مصالح الفرد والمجتمع واحدة وأن رؤية صاحب المصنع وأرباب العمل تتفق مع المصالح الحقيقية لأي مجتمع صناعي كما زعم بأن مصلحة المجتمع يجب أن تتطابق مع مصلحة أصحاب رؤوس المال وملاك المصانع، أقر آدم سميث أن كل ثورة أو وقوف في وجه صاحب المصنع هو نوع من الحماقة.[1]

لم يكن السيد سميث رجلاً متحرراً من ذهنية المجتمع الأرستقراطي المادي، ولم يكن إنسانياً مثلما كان المفكر الاقتصادي توماس مالتوس *1766 –1834 الذي يراه راسل أكثر أهمية من سميث و جون ستيوارت مل خاصة في مقاله " مبدأ السكان " 1797 الذي أعاد نشره بعد التعديل سنة 1803 بعنوان An Essay on The Principle of Population، بعد ذلك نشر مؤلفاً أخراً وهو " أصول الاقتصاد السياسي " سنة 1820 تبلورت أفكاره في نظرية السكان بسبب تلك المناقشات الحادة بينه وبين والده الذي كان مناصراً للموقف الذي يرى أن الطبيعة ليست سبباً وراء المعاناة والفقر، لأن كل ظلم أو تعسف في حق المجتمعات حصل بسبب فساد الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية، لكن الابن رفض وجهة نظر والده وأكد أن الطبيعة لها مسؤولية كبرى في الأوضاع التي يعيشها الإنسان لأن الاختلال في الموارد الطبيعية يُخَلفُ المظاهر الاجتماعية المختلفة كالفقر والتسول والأطفال اللقطاء، لهذا لم يُدين توماس الحروب بكل أشكالها ولم يظهر حزنه على تلك الأمراض والأوبئة التي أصابت المجتمعات لأنه من ضروريات إعادة التوازن بين السكان والموارد الطبيعية. لكن الخطأ الذي وقع فيه أنه لم يعرف حقيقة الحرب ونتائجها لهذا كانت ملاحظات

[1]– المصدر السابق. ص 104

* توماس روبرت مالتوس Thomas Malthus باحث سكاني واقتصادي سياسي إنجليزي، مشهور بنظرياته المؤثرة حول التكاثر السكاني في العصر الحديث يتم منادته توماس مالتوس رغم أنه في حياته استخدم اسمه الأوسط روبرت).

نتاج دراسات سطحية غير معمقة مما أضعف موقفه كثيراً وأبرز الكثير من تناقضاته في مسألة السكان والعامل الاقتصادي.[1]

رأى مالتوس أن التفاوت الطبقي ظاهرة إيجابية فلابد أن يكون المجتمع مقسماً لأناس فقراء وآخرين أكثر مالاً وغنى لهذا رفض خطط الإصلاح الاقتصادي في تقسيم الطبقات لأن القواعد الدينية والأخلاقية تقتضي أن يعطي الأغنياء من ثرواتهم للفقراء دون أن نجعل طبقات المجتمع تصل لحد البؤس، لكن يشترط مالتوس أن يراعي الفقراء الحكمة في زواجهم وأن يتعلموا كيفية الاقتصاد وعدم التبذير فاعتبر أن الحل الوحيد لمشاكل الاكتظاظ السكاني السكان والفقر هو الوازع الأخلاقي والتربوي الذي يجب أن تتعلمه الطبقات الفقيرة.[2]

اعترض مالتوس على قانون الفقراء ورأى أنه يستحيل القضاء على الفقر نهائياً وأنه ليس بالإمكان أن نجعل الفقراء أغنياء والأغنياء فقراء بل يجب أن يكون في المجتمع طبقات كادحة فقيرة مادامت هناك توازنات بين الطعام وعدد السكان، ولتحقيق هذا الهدف تدخل التربية باعتبارها سبيلاً يؤدي إلى غرس الوازع الأخلاقي في النفوس لأن التعليم يبعد الفقراء عن البؤس ويجعلهم يثقون في أنفسهم ويتعلمون القواعد الاقتصادية والأخلاقية، وعلى المجتمع مساعدة الفقراء وحثهم لتعلم القراءة والكتابة وعلم الاقتصاد وكيفية العيش بما توفره لهم الدولة من حاجيات فالاستغناء عن الفهم الحقيقي للحياة وواقعيتها يؤدي إلى زيادة نسبة الفقر ويخلق فوضى سياسية للبلاد ويهدد استقرارها.[3]

أصبح الفلاسفة البريطانيين بعد مالتوس أكثر حرصاً على حياة الفقراء والمستضعفين على نقيض ما كان خلال العصور الوسطى، رغم ذلك تعرض مالتوس

---

[1]– حازم الببلاوى : دليل الرجل العادي إلى تاريخ الفكر الاقتصادي، دار الشروق بيروت لبنان، ط1، سنة 1995. ص 74–76

[2]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 106

[3]– المصدر نفسه. ص 106.110

لتهجمات وانتقادات أكثرها من رجال الدين لكنه استطاع أن يدافع عن نفسه باعتباره رجلاً متديناً ذو مبادئ،[1] إن ما تعرضه له هذا المفكر الاقتصادي أو غيره في إنجلترا هو فترة منع فيها الفلاسفة والأدباء والمصلحين السياسيين من التعبير عن أرائهم وأفكارهم بحجة أنهم يخالفون قانون الدولة ويحرضون الأفراد على الثورة والفوضى، إنها مرحلة تاريخ مظلم غابت فيه القيم الإنسانية وحل القانون اللأخلاقي مَحَلَ الضمير الجمعي والفردي، لكن مجال الفلسفة والفكر الحر عمل كلاهما على غرس مبادئ إنسانية سامية كتلك التي وضعها مالوتس وما قدمه الفيلسوف جيرمي بنتام.

كان بنتام رجلاً قد بلغ من العمر ستين عاماً دون أن يؤمن بالمبادئ التي تحملها الديمقراطية فحياة هذا الرجل مرت بمرحلتين هما الشباب والكهولة والثانية كانت أكثرها عمقاً من الناحية الفلسفية، لم يؤمن بنتام خلال شبابه بفكرة الإصلاح ولم يتخيل إطلاقاً أنه سيكون يوماً ما مصلحاً أو مدافعاً عن حقوق الناس، وهذا يرجع لطبيعة البيئة الأسرية التي نشأ فيها فقد كان الده كان رجلاً محباً للتعاظم والتفاخر يسعى ليقرب ابنه من أشخاص ذوي نفوذ وسلطة خاصةً في الوسط الجامعي، يقول راسل " كان والد جيرمي على استعداد دائم لأن يمده بما يلزمه من المال حتى ينفقه في القمار عندما يكون بصحبة الأغنياء ورجال الأعمال"،[2] إن شخصية جيرمي لم تتماشى مع ذهنية والده الأرستقراطية لأنه كان شاباً حيوياً يحب القراءة والكتابة كارهاً لأشكال اللهو والسهر والقمار، فإنجازاته حسب راسل مشابهة لأعمال مالتوس لكنها تختلف من ناحية الأسلوب لأن بنتام مَثَلَ جدل الأب الأرستقراطي وابنه المتواضع، إرضاءً منه لرغبة والده أصبح جيرمي محامياً شهيراً في مجالس القضاء الإنجليزية واستغل مهنته ليدافع عن حقوق الناس ويخطو بذلك خطوة جريئة وهي محاولة إصلاح القانون بدلاً من ممارسته في شكله القائم، سعى بنتام لإصلاح الدستور وكذا القوانين والمواد القضائية المعمول بها في إنجلترا فكان يتمنى تعديلاً للقوانين الجنائية بكاملها رغم ذلك لم تحظى كتاباته بالاهتمام الذي يستحقه، لم تُعرَف مؤلفات بنتام إلى بعد قيام مجموعة من

[1]– المصدر السابق. ص 111

[2]– المصدر نفسه. ص 115

طلابته الفرنسيين بترجمة كتبه للغة الفرنسية ونشرها في القارة الأوروبية على نطاق واسع. أعجب الكثير من المثقفين بأسلوبه وشجاعته ومواقفه السياسية فأصبح في فترة وجيزة فيلسوفاً محترماً بشكل كبير في عديد من الدول مثل ألمانيا وإنجلترا وخاصة اسبانيا أين طَلَبَ المجلس النيابي هناك طباعة كل أعماله مجاناً، كما طلب منه أرون بير نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك أن يكون مشرعاً له في المكسيك. بلغت شهرته كل أوروبا وحتى أمريكا فإصلاحاته كانت قد مَنَحت العالم الجديد دساتيراً ذات أبعاد أخلاقية مستقبلية، كان بنتام صاحب علاقات قوية مع الكثير من الأباطرة والملوك لأن سجله لم يعرف أي انخراط له في المؤامرات السياسية أو الحزبية فقد كان تأمله للبشرية جمعاء ساعياً لأن يقدم إصلاحات في أي قانون بشري. إن فلسفة بنتام كانت تعبيراً عن الفردانية ولم تكن فلسفة قومية مرتكزة على جماعة معينة إنما هدفها الأول وضع القانون الأخلاقي والإنساني.[1]

رأى بنتام أن السعادة هي غاية الإنسان وليست الحرية فلم يقتنع يوماً بالقول المأثور " الحرية ضرورية للسعادة "، كان مبدأ السعادة الكبرى أهم أسس المدرسة البنتامية وأشهرها والذي يقول أن الأعمال تكون خيراً عندما تؤدي إلى أكبر قدر من السعادة لأكبر قدر من الناس وتكون شراً إذا لم تحقق ذلك،[2] إن شخصية بنتام الإصلاحية حسب راسل تبقى من أعظم ما أنجبت الفلسفة الناطقة باللغة الإنجليزي في مجال الأخلاق والقيم الإنسانية.

أما عن الديمقراطية فإن ظهورها في إنجلترا كان امتداداً للفكر الليبرالي الأمريكي لتحمل معها مبدأ حقوق الإنسان الطبيعية والمدنية الوضعية، وقد تبنتها في إنجلترا حركات مختلفة أولها حركة العرائضيين ولكنها لم تنجح لتَخْلُفَهَا بعد ذلك حركة

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 119–120

[2]– المصدر نفسه. ص 123

الراديكاليين الفلسفيين* وهم أكثر من ترك أثراً كبيراً في الديمقراطية الإنجليزية، لكن راسل يرى أن طابع الديمقراطية الذي كان موجوداً داخل بلاده مختلف عما وجده في أمريكا وفي ربوع القارة الأوروبية وهذا راجع إلى أن قادة الديمقراطية في إنجلترا صبغوها بعاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم كما أنها لم تمثل الشعب أبداً ولم تعبر عن آراءه بل كانت مجرد وسيلة أرستقراطية خالصة، فكان كل إصلاح قامت به الحركة الراديكالية إبان تبنيها للديمقراطية عبر الرجوع إلى عادة الأسلاف وتقاليدهم بعيداً عن جوهر الحرية وحقيقتها الجمالية كمبدأ من مبادئ الديمقراطية الصحيحة.[1]

كانت الطبقة الأرستقراطية في إنجلترا تُسَيرُ الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأسس الخاصة بالديمقراطية، رأى أشباه الديمقراطيين الإنجليز أن عدم فرض الضرائب على الناس والحفاظ على مكاسبهم وكافة حاجياتهم يُوَلدُ تكاسلهم مما يؤدي إلى ضعف النظام الاقتصادي للبلاد ويجعل من البرلمان الذي اختاره الشعب يضعف ويفقد سيطرته وهيبته، لهذا فإن الحل الوحيد لتفادي الوقوع في أزمة اقتصادية يكون بجعل الطبقة البسيطة والكادحة تفقد البعض من حقوقها وممتلكاتها. أضف إلى ذلك فإن الديمقراطية الإنجليزية آنذاك امتازت بطابع صناعي يركز على سكان المدن ويغفل المناطق الريفية الزراعية لدرجة أنه لم يتم النظر في قانون الفقراء الذي تحدثنا عنه سابقاً فبقية المناطق الزراعية الغير متمدنة على حالها دون أن يطرأ عليها أي تغيير في البنية العمرانية أو على مستوى قطاعي الصحة والتعليم الذي حرم منه سكان القرى بسبب القرارات البرلمانية الفاسدة.

فيما يخص الديمقراطية التي عرفتها أمريكا وبعض أقطار القارة الأوروبية كانت مرتبطة بشكل كبير بالقومية وروح الوطنية، أما في الطرف الآخر من إنجلترا ارتبطت بما يراه الدوق ومجلس البرلمان والطبقة الأرستقراطية، لتصبح وسيلة للاضطهاد

* الراديكالية ظهر مصطلح "راديكالي" خلال القرن التاسع عشر في المملكة المتحدة، وفي أوروبا القارية وأمريكا اللاتينية على الإيديولوجيا الليبرالية التقدمية المستوحاة من الثورة الفرنسية. ظهرت الراديكالية تاريخيًا بشكل مبكر مع بحثت الراديكالية عن الدعم السياسي لأجل "إصلاح جذري" للنظام الانتخابي لتوسيع نطاق حق التصويت.

[1]– المصدر السابق. ص 159

والتسلط فهي لم تمارس يوماً غايتها الحقيقية مثل الدفاع عن حقوق الإنسان وحفظ كرامته والمساواة والعدالة الاجتماعية.[1]

كانت الأحزاب السياسية في إنجلترا أقل تشبعًا بروح الديمقراطية الحقيقية بسبب حكم الأرستقراطيين، فكانت مجالسهم ظالمة غير عادلة، يقول راسل " كان مجلس اللوردات على العموم يسيطر عن طريق الدوائر الانتخابية العفنة وكانت الحكومة عاجزة وفاسدة إلى حد لا يتصوره العقل "[2]، لقد استغلت الطبقة الحاكمة كل سلطة تشريعية لتزيد من غناها وثرائها في حين أنها فرضت على الشعب حياة الفقر والحاجة والمعاناة، لهذا عانت المجالات الحياتية من الركود والفشل والتراجع ومن بينها التعليم والعدالة والصحة وقانون العمل والضرائب، حدث هذا في وقت قضاه الحكام لهواً وسهراً وتبذيراً لاعقلاني مما ولد لدى الشعب الكره والضغينة للنظام بسبب تغييبه لكل القيم الإنسانية آنذاك، لكن ذلك لم يدم هذا طويلاً ليظهر رجالاً عظماء دافعوا عن العدالة وغيروا مسار القيم في إنجلترا أمثال مالتوس بنتام ريكاردو وجميس مل وغيرهم.

قامت أول معركة معادية للديمقراطية الفاسدة في إنجلترا عام 1832 وهي معركة قانون الإصلاح بعد أن كانت هناك معارضة كبيرة لمجلس الدوائر الانتخابية كان المطلب الأول للشعب هو حق الانتخاب كمبدأ ديمقراطي يعبر عن حرية الرأي، من الشخصيات التي حملت هذا الشعار ودافعت عنه نجد اللورد جون راسل الذي دعا لحل الأحزاب التي لم تعبر عن رأي الشعب بل كرست سلطتها لخدمة الأغنياء الأرستقراطيين ولم تعبر أبداً عن المصلحة العامة للشعب وميزت بين طبقاته المختلفة لكن هذه المطالب الإصلاحية لقيت رفضاً ومقاومة من الطبقة الأرستقراطية لذا كان على هؤلاء المصلحين الاستعانة بالطبقة الكادحة والمزارعة لتقاوم هذا التهديد، ففي كثير من المناطق والمدن الإنجليزية كانت هذه الطبقات المتوسطة والفقيرة مناهضةً للأوضاع تطالب بحقها في الانتخاب مثل مقاطعة وستمنستر الشهيرة، وكان الدعم

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 160

[2]– المصدر نفسه. ص 161

موجوداً لأن هذا الإصلاح الذي جاء يتفق مع إرادة الطبقة الوسطى ويعبر عن رغباتها، نتيجة للمقاومة المستمرة تغير الوضع السياسي البريطاني وانتقلت السلطة إلى الطبقة الوسطى عندما لم يجد الأرستقراطيين من يدعمهم في مجالسهم الفاسدة.[1]

أكثر لحظات النجاح التي عرفها المجتمع الوسطي أو الطبقة الكادحة في بريطانيا هي تلك التي أعيد فيها النظر في قانون الفقراء بوضع قانون جديد وهي اللحظة التي تحدثت عنها رواية " أوليفر تويست*[2] " للأديب والروائي تشارلز ديكنز* التي بدأ بنشرها سنة 1837-1839 تعبر الرواية عن حالة الظلم والحرمان التي عانت منها الطبقات الفقيرة في إنجلترا وعن المصائب والنكبات التي تحل بالأطفال اليتامى والفقراء، إن هذا القانون الذي صورته هذه الرواية بشكلها الأدبي والفني كان حسب راسل ظالماً ومستبداً وهو ما جعل القيم الإنسانية منعدمة، وعليه وجب تعديله ليصبح قانوناً جديداً إنها لحظة ميلاد الوعي السياسي لدى الشعب الإنجليزي، كان الشعار الجديد هو الانتخاب للجميع فأسقطت هذه الإصلاحات القانون الذي يشترط الملكية والانتماء الطبقي الأرستقراطي في الناخب، ليصبح كل مواطن يمتلك الحق في الانتخاب مهما كان وضعه المادي وتغيرت الدوائر الانتخابية لتصبح دوائر متساوية وعادلة، كل هذا ساهمت فيه كذلك الحركات النقابية التي كان من بين أبرز زعماءها روبرت أوين مؤسس الاشتراكية في إنجلترا أو ما يسمى بالاشتراكية المثالية أو الحركة النقابية التعاونية.[3]

---

[1]- راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 162-162

* أوليفر تويست أو "رحلة فتى الأبرشية" Oliver Twist هي الرواية الثانية "* **لتشارلز ديكنز**"وهو روائي وناقد اجتماعي، وكاتب إنجليزي .يعد بإجماع النقاد أعظم الروائيين الإنجليز في العصر الفيكتوري، ولا يزال كثير من أعماله تحتفظ بشعبيّته حتي اليوم. تميز أسلوبه بالدعابة البارعة، والسخرية اللاذعة. صور جانبا من حياة الفقراء، وحمل على المسؤولين عن المياتم، والمدارس، والسجون حملة شعواء ، ونشرت رواية أوليفر تويست للمرة الأولى على شكل متسلسل لمدة عامين في هذا النموذج المبكر للرواية الاجتماعية، يهجو ديكنز آثام زمنه، ومن بينها عمالة الأطفال واستغلالهم في مجال الإجرام، وظاهرة أطفال الشوارع.

[3]- المصدر نفسه. ص 163

عندما استولت الطبقة الوسطى على زمام السياسة الانجليزية عملت على مضاعفة جهودها لتعديل القوانين التي أخرت الإنتاج الاقتصادي والتجاري هذا من خلال تشريعات جديدة تقرها المجالس الانتخابية المتساوية، ومن أكثر التشريعات التي نجحت آنذاك هو القانون الخاص بالمصانع والمناجم الذي ألغى كل ما يعيق الإنتاج الصناعي، وكذلك قانون إلغاء الضرائب على أصحاب المزارع وتنظيمها فيما يخص أصحاب المصانع المصغرة من الطبقة الأرستقراطية، كما تم توقيف استغلال الأطفال في المصانع وأعيد النظر في ساعات العمل الخاصة بهم حتى لا يتم استغلالهم من طرف أصحاب المصانع وهو الأمر الذي دام سنوات طويلة، كل هذه التغيرات الجذرية في رحم المجتمع الإنجليزي جاءت من خلال جهود الإصلاحيين الذين لم تكن لهم أي غايات أو مصالح فردية خاصة، بل كان هدفهم هو إعطاء الحق لكل من حرم منه كانت مبادئهم ذات أبعاد إنسانية تعمل على تقدم البلاد ويعود لهم الفضل في فتح مجال المبادلات التجارية الخارجية مع دول أخرى دون ضغينة أو كره مدعمين بذلك الخير والسعادة للجميع. وهي اللحظة التي لا طالما حلم بها بنتام، يقول راسل تمجيداً لأعمال هذه العقول الفلسفية المتحررة " إن مثل هذه المواقف عمل على ظهور زعماء من الرجال ذوي الأفق الإنساني الواسع يختفي فيهم عنصر المصلحة الشخصية خلف المصلحة العامة"[1]، فالأهداف الشخصية ليست الدافع الحقيقي للكتابة الفلسفية الإصلاحية ذات الطابع الاجتماعي والإنساني.

إن ثقافة هؤلاء الرجال نشرت الإدراك السليم لمعنى الأمم المتسامحة، فأصبحت المصلحة القومية تطلب دون أن تعير أي اهتمام لمبدأ الكبرياء والتعالي أو المجد فكانت الدعوة إلى السلام واستبعاد الحرب لأنها لن تكون باباً للربح أو التقدم وأصبح السبب الرئيس الذي يحقق هذه المطالب الإنسانية هو الرحمة في المعاملات الاقتصادية وفق قيم إنسانية تبتعد بهم عن المصلحة المادية التي كانت من قبل تسبق كل شيء في العلاقات بين الأمم[2]،لأن الحرب ولدت الفقر وتعطيل العمل وارتفاع سعر

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 168/167

[2]– المصدر نفسه. ص 169–171

الغذاء في وسط الطبقة العاملة والبسيطة التي تتقاضى أجوراً زهيدة وهم في أكثرهم من الطبقة المزارعة، لهذا رفض راسل أن تكون الحرب سبيلاً للإعلاء من كرامة الأمة وكبرياء الإنسانية لأنها تنشر الحقد والكره واشمئزاز النفوس، إن منطق الحرب حسبه دعم فكرة الاستعلاء والإقصاء خاصة الحروب الأوروبية مثل حرب القرم وحروب نابليون، التي جعلت المبشرين بالإنجيل ينصحون كل فقير بالتركيز في العالم الأخر والحياة الأخرى وأن يترك الحياة السعيدة والهنيئة لمن يملكون المال.

المبحث الثاني: مفهوم الإنسان عند راسل

أكثر ما جعل فلسفة راسل ذات طابع إنساني تعمقه في تاريخ البشرية ودراسته النقدية البناءة لهذا كان رجلاً جامعاً لكل ما يخص نشأة المجتمع الإنساني وتطوره حتى يضع المفهوم الحقيقي للإنسان ويبين طبيعته التي تتضارب بين عاطفتي الخير والشر، وكان من بين أكثر المظاهر التي صاحبة الإنسانية عبر مسارها التاريخي منذ القديم إلى يومنا هذا هو الصراع الذي ما يزال موجوداً بأشكال وألوان مختلفة عما عرفته الحضارات القديمة مثل اليونان أو الرومان.

أصبح العنف والنزاع جزءاً من حياة الإنسان العاقل؟ أين تكون النهاية الحتمية لكل صراع إنساني واحدة فيها المنتصر والمنهزم وأشدهم ضرراً أولئك الذين يهزمون في صراعهم مع الطبيعة أو مع الآخرين، اكتسب الصراع الإنساني بفعل الزمن ثلاثة وجوه: أولها ذلك الذي حاولت من خلاله البشرية أن تخضع الطبيعة لسيطرتها حيث استعمل الإنسان كل قدراته العقلية والبدنية ليحكم نفوذه عليها، كان صراعاً لغاية واحدة هي حفظ البقاء فكل الذين يحققون ذلك تصبح لهم فرص أكثر للحياة لقد أصبح في إحكام قوة الإنسان على الطبيعة تحقيق لعلاقته مع غيره بشكل متماسك، ولكن وسط كل تجمع بشري تتطور الأساليب والوسائل ويظهر بفعلها صراع جديد وهو بين الإنسان والإنسان. أما عن أكثر أنواع الصراع التي يجب على الإنسانية الحذر منها هو الوجه الثالث الذي يكون بين الإنسان ونفسه، هذا الاشتباك داخل النفس هو الذي يتطور بفعل الزمن ويتفاقم ليصبح المولد الحقيقي لكل الحروب الخارجية، التي لم تجعل الإنسان ينعم بالسلام لذلك فإن الروح التي لم تعرف الهدوء في داخلها لن تعيش الأمان والسلم في هذا العالم.[1]

الإنسان هو أكثر الكائنات بحثاً عن الهدوء داخل حياته تلك السكينة التي لن تحصل إلا بعد وضع وئام بينه وبين الأطراف التي يتصارع معها، فكلما تمكنت الإنسانية من فهم العالم والطبيعة تصبح هناك إمكانية للتعايش المشترك مع الغير، لأن

[1]– راسل برتراند: أمال جديدة في عالم متغير، ترجمة عبد الكريم أحمد مراجعة علي أدهم، مكتبة الفكر الجديد، د.ط،سنة 2018. ص19–20

صراع الإنسان مع الإنسان كان في صورته القديمة حول وسائل حفظ البقاء مثل الأكل والشرب وكلما وفرت الطبيعة القدر الكافي من مستلزمات الحياة اليومية للإنسان قلت بفعل ذلك دائرة الصراع ليصبح صراعه مع نظيره في الطبيعة أمراً ممتنع الحدوث. ولكن رغم ذلك تبقى الطبيعة البشرية حسب راسل بعيدةً عن تحقيق الاستقرار التام خاصة ما لم يتحقق الوئام الداخلي للنفس.[1]

ساد في المجتمع الإنساني التقليدي أو القبلي نوعين من العواطف: أولها التنافس أما الآخر فهو التعاون يظهر السلوك الأول عند الحاجة لتحقيق الغايات البيولوجية ويعتبر هذا السلوك أشد الأفكار إثارة للحروب عبر تاريخ البشرية خاصة بعد اتساع مفهوم الدولة الحديثة، أين أصبح التنافس في المجال الاقتصادي كاقتحام الأسواق العالمية وفرض السيطرة في مجال الصناعات الثقيلة هدفاً لكل أمة صناعية، كما صاحب هذه الرغبة تزايد في الفوارق الاجتماعية بين طبقات المجتمع مما جعل معاملاتنا ومؤسساتنا تبنى على الأنانية وحب الذات، كما تمتاز المنافسة بكونها شعوراً شديد السوء والبشاعة خاصة إذا تم اعتمادها في جميع مجالات الحياة، يصف راسل هذه العاطفة أنها فلسفة عنيفة تمثل أحد أنواع الصراع من أجل البقاء لدى الإنسان ولكن ليس بصورة صراع الحياة عند الحيوانات، بل هو شعور متولد من رغبة النجاح المفرطة خاصة عند رجال الأعمال والدول المتقدمة أين يصبح فشل أحد أطراف التنافس تقليصاً لدائرة النجاح حتى تصبح بين طرفين متكافئين في القوة وهذا ما حدث بين روسيا الاشتراكية وأمريكا الليبرالية أثناء الحرب الباردة، حيث استعملت كل الوسائل المتاحة للفصل في النزاع القائم بينهما على مستويات التنافس الاقتصادي والعسكري آنذاك.[2]

أكثر شيء لم يدركه الإنسان في مسيرته التاريخية ومنذ أول استقرار له أن الصراع من أجل الحياة هو صراع من أجل النجاح في منافسة ما، حتى أن أفعالنا الإيجابية

[1]- المصدر السابق. ص 20-21

[2]- راسل برتراند: انتصار السعادة، ترجمة محمد قدري عمارة، مراجعة إلهامى جلال عمارة، المشروع القومي للترجمة، ط 2. ص 45

مثل القراءة تخضع لهذه الغاية فقد نجد أنفسنا نطالع لنشبع رغبتنا في التعلم والاكتساب أو نفعل ذلك من أجل أن نظهر ضعف غيرنا أثناء مناقشتنا، أصبح للتنافس في صورته الحديثة ميزة أخرى هي ارتباطه بعامل التمدن فقد زادت حدّت التنافس بين المثقفين في الصالونات الفاخرة إبرازاً للمكانة وللطابع الأرستقراطي وهذا هو التنافس العقلي الذي جعل القيمة في الحياة حكراً على المنتصر في الحوار الأدبي أو الفلسفي والعلمي.[1]

أما التعاون فهو ذلك الشعور الطيب الذي تبلغه البشرية بعدما تضع القوانين والضوابط الأخلاقية داخل الوحدات الاجتماعية التي تمتاز هي الأخرى بصراعها مع أطراف مختلفة من أجل فرض الهيمنة والنفوذ وتوسيع أراضيها، أضف إلى ذلك فإن الضرورة البيولوجية تعد أحد أكثر الجوانب التي تحكمت في حياة الإنسان ودفعته إلى إنشاء أولى مؤسساته الاجتماعية وهي الأسرة التي لم تنشئ سوى لغاية واحدة هي تحقيق التكاثر وحماية النفس وهكذا الحال لكل تجمع بشري إنساني.[2]

نشأت معظم الحضارات القديمة على ضفاف الأنهر والبحار وسقط معظمها على يد القراصنة ويعتبر صراع الشعوب على الأراضي والسواحل البحرية أقدم أنواع الصراع الإنساني، كما صادفت البشرية الكثير من المشاكل التي جعلت من القيم الإنسانية تتراجع أو تنعدم لفترة زمنية طويلة ومنها العداء الذي يرتبط بمسألة زيادة السكان وتعدد السلالات البيولوجية، فقد مارس الإنجليز في حق الهنود عنصرية انتقدها راسل بشدة حيث حرمت على الهنود النوادي والجامعات والمدارس التي يذهب إليها الإنجليز، ولقد سيطر العداء كشعور إنساني فاسد على الكثير من الثقافات والمجتمعات، ولكنه أقل إذا ما تمت مقارنته بذلك الذي سببته الانتماءات العقائدية والمصالح الاقتصادية.[3]

[1]– المصدر السابق. ص 56–58

[2]– المصدر نفسه. ص 60–61

[3]– المصدر نفسه. ص 110

مارس الألمان والروس في حق اليهود أبشع المجازر لا لشيء سوى لانتماءاتهم الدينية فقتل منهم حوالي 5 ملايين ما بين 1917-1918 وهذا بدافع العنصرية العقائدية الخالصة، لهذا فإن مفهوم الإنسان يختلف بشكل واضح عن مفهوم الحيوان لأن انتماء الإنسان لمحيطه الاجتماعي يتخلله دائماً صراع طويل تنطلق أسبابه من ذوات الأفراد، ثم ينشأ عنها صراع علني أو الذي يصفه راسل بالخارجي وهو بين الإنسان والإنسان.[1]

ولعلّ أكثر طابع لازم البشرية منذ عصورها الأولى هو الأنانية، فكلما تم ترجيح هذه العاطفة على كفة الانتماء الاجتماعي يظهر صراع الفرد مع قطيعه، ويظهر تنافسه مع بقية الأفراد ليصبح الانتصار لمن هو أقوى وأحياناً ينعم أولئك الذين ينتصرون في صراعهم الفردي اتجاه الآخرين بمشاعر الفرح والسعادة، لقد أصبح العنف والصراع جزءاً من طبيعة الإنسان العاقل بل هو مثل الهواية لدى البعض من المجتمعات والثقافات خاصة عندما يحدث لأسباب تافهة وغير مبررة، لهذا لم يصبح الصراع في حياة الإنسان الحديث بدافع البقاء بل أصبح مجرد غاية يشبع بها البعض تلك الغرائز المؤذية داخلهم، وبالتالي يتحول النزاع من كونه وسيلة لحفظ الحياة ليصبح أداة لقمع الغير، إن هذه الصفة من الجنون أصبحت من بين مميزات الإنسان التي تدفعه للقسوة والعنف اتجاه قيمه الإنسانية فتصبح هذه الأفعال المؤذية أمراً ضروريا وحتمياً لهذا وجب تغليب كفة العقل على العاطفة فدور العقل ليس البحث عن المشاعر تشكل خطراً كبيراً أمام رفاهية الإنسان لأن الوظيفة الأساسية للعقل هي إيجاد السبل التي تمنحنا السعادة وتقليل الحسد في داخلنا ;هي الوظيفة السيكولوجية للوعي الإنساني.[2]

يفرق راسل بين نمط الصراع التقليدي والحديث من خلال المثال الذي يقدمه عن الصيد الذي كان فيما سبق وسيلة لتوفير الغذاء، لكن بمرور الزمن أصبح يمارس كهواية من طرف الأغبياء والكسالى من الأغنياء، و بالتالي فقد الصيد غايته البيولوجية هكذا هو حال الصراع الإنساني الذي بدأ لأسباب وغايات بيولوجية مثل

[1]- راسل برتراند: انتصار السعادة. ص 110-112

[2]- المصدر نفسه. ص 118

حفظ البقاء والدفاع عن النفس ليصبح وسيلة تلبي رغبة القتل والدمار ولذة أذية الآخرين.[1]

يعتبر العداء الذي كان بين العلم والدين من أشد أنواع الصراع خطورةً وحدتً حيث أن له تاريخاً قديماً مرتبطاً بنشوء الحياة الاجتماعية فالدين والعلم من أهم الأبعاد التي كونت مفهوم الإنسان عبر التاريخ بوجهات نظر مختلفة، ويعد الدين أقدم من العلم في حياة الإنسانية لأنه ظهر مع أولى لحظات الفكر البشري، أما العلم فَيُعْرَفُ أنه عاش فترات متقطعة كانت السبب في تأخر ظهوره الكلي حتى غاية القرن 16، وقد أظهر التاريخ الإنساني صعوبة الصراع الذي كان بينهما فمنذ القرن 16 أصبح العلم هو المنتصر بصورة قوية ولكن ذلك لم يدم طويلاً حتى عرف العلم ما بين القرنين 17 – 18 الكثير من العوائق والأزمات التي ارتبط معظمها بإيديولوجيات وعواطف، فاستخدام العلم في هذه المرحلة كوسيلة لنشر العقائد والمثل السياسية الفاسدة وهو الذي حصل في روسيا الشيوعية وألمانيا النازية، مما جعل التفكير العلمي يخرج عن نطاق الطريق الذي رسم له خلال القرن 16 في إنجلترا.[2]

إن مفهوم العلم حسب راسل هو عملية اكتشاف وفهم الكون وفك الالتباس والغموض عن أسراره بهدف وضع القوانين التي تسمح بدراسته موضوعياً وإبعاده عن كل التفسيرات اللاعقلانية لتصل الإنسانية في الأخير إلى التنبؤ بالمستقبل وأحداثه، أما عن الدين فهو ظاهرة اجتماعية شديدة التعقيد وله ثلاثة وجوه يختلف كل واحد منها عن الأخر حسب الزمان والمكان الذي ينتمي إليه وهذه الوجوه " الكنيسة، العقيدة، نظام الأخلاق الشخصية " وكلها اعتبرت ضرورة اجتماعية قصوى ومن خلال هذه الوجوه تتم صياغة مفهوم الإنسان المتدين الذي ينتمي إلى عقيدة أو نظام أخلاقي ما. أصبح الاشتباك الذي عاشه كل من العلم والدين أكثر شدةً وفتكاً في اللحظة التي عمل فيها العلم على تحرير الإنسان من تلك المسلمات والعقائد المقدسة التي اعتبرت في وقت مضى أحكام وتشريعات إلزامية، أين رُفض كل انتقاد أو تشكيك في حق هذه المقدسات

[1]– راسل برتراند: السلطة والفرد، تعريب شاهد الحمود، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ط1، 1961سنة. ص 81

[2]– راسل برتراند: الدين والعلم، ترجمة رمسيس عوض، دار الهلال، ط1. ص4

كما حرم على العلم محاولته لفهم الدين أو تصحيحه، وبلغت الدرجة بهذه الفئة المتعصبة للدين أنهم قدسوا أنماط أخرى للتفكير غير الدين كبعض الفلسفات والتيارات الفكرية والأدبية مثل ما ساد فترة القرون الوسطى في تقديسها لما سمي آنذاك المسيحية الأرسطية والأفلاطونية.[1]

يربط راسل خطأ الإنسان في فهم الدين بالشكل الصحيح له أسباب مختلفة منها تأخر ظهور العلم وفهمه للعالم ما ساعد في انتشار الجريمة والصراع داخل المجتمع الإنساني، فقبل نشوء العلم لم تكن أفعال الإنسان وسلوكياته تفسر بمنطق الأخلاق ونتائج الفعل على الإنسانية بل كان مرتبطاً بفكر الوحي والعدالة الإلهية فإن هرب الإنسان من عقوبة الأرض لن يفعل ذلك أمام الله في السماء، لكن لو أننا ننظر لهذا التفكير من الناحية الإنسانية فسنرى أفعالنا مرتبطة بقوانين الوحي لهذا لا داعي للبشرية أن تجتهد في وضع القوانين والضوابط الأخلاقية لذا يحق للإنسانية أن ترفض أكثرية التعاليم الوردة في الكتب والنصوص الدينية أو إعادة النظر فيها لأنها أدت إلى تراجع القيم الإنسانية والأخلاقية وجعلت من الصعب وضع مفهوم صحيح للإنسان والعالم.[2]

في نقده لتعاليم ونصوص الكتاب المقدس أظهر راسل أكبر التجاوزات الغير إنسانية لهذا النص الذي يعتبره الكثير أساساً صالحاً للإنسانية الكل حسب بيئته وظروفه التي تحيط به كان نقده للمسيحية في أكثر كتبه جدلاً حول إمكانية إلحاد برتراند راسل أو لا أدريته كتاب لماذا لست مسيحيا why i am not a Christian الذي كتبه سنة 1927 مقدماً أهم آراءه ومواقفه من المسيحية التي جعلتنا نتساءل كيف نظر راسل للدين المسيحي وهل كانت عقيدته ضرورية لأن يفهم البعد الحقيقي للإنسانية ؟

أول تساؤل طرحه راسل حول المسيحية من هو الشخص المسيحي؟ هل الجميع في إنجلترا وألمانيا مسيحيين؟ هل يمكن للمسلمين والبوذيين أن يدعوا أنفسهم مسيحيين؟

---

[1]– المصدر السابق. ص 5–7

[2]– المصدر نفسه. ص 7

هل لهذا الاسم شروطاً يجب أن تتوفر في صاحبه وعقائد إيمانية قطعية يجب أن يصدق بها؟

لا يكون المرء مسيحياً إذا لم يلتزم بقاعدتين هما: أولاً الإيمان بالرب وبالخلود ثانياً الإيمان بالمسيح وقدرته وكل شخص لا تتوفر فيه هذه النظرة الإيمانية لا يسمى مسيحياً حقيقياً، هذا ما لم يقبله راسل وأصر أنه لا يؤمن بالخلود و لا أن المسيح كان رجلاً بتلك النظرة المقدسة بل يراه رجل أخلاق ومصلحاً اجتماعياً لبيئته، يقول راسل " عندما أقول عبارة لستُ مسيحياً فهذا يعني أمرين أنني لا أؤمن بالخلود ولا أعتقد أن المسيح كان أكثر الرجال حكمةً"[1]، هذا لأن الإيمان بالمسيحية اليوم أي في زمن راسل لم يشبه ذلك الذي تحدث عنه أوغسطين أو توما الإكويني أين كان يمتاز بالنقاء والصفاء، أما المسيحية في عهده فَقَدَت صفتها الجوهرية عندما أصبح الدين متعلقاً بالمراسيم التي تفرضها الحكومة على الأفراد، وبالتالي فإن الدين المسيحي حسب راسل كان قد ضيق على الإنسان الحرية ودفعه للاعتقاد الإلزامي القهري وهذا احتكار وتعطيل للحريات، لذا فإن كل ما قدمته المسيحية في تصورها للإنسان لا يتماشى مع القيم الفردانية وروح الإنسانية الحقيقية، لأن مسألة الإيمان التي لا تعترف بمركزية الإنسان* وبحريته وقدرته لن يسعها أن تسمي نفسها عقيدة صحيحة، وهذا ما فعلته العقيدة الكاثوليكية عندما جعلت البرهان العقلي الوسيلة الوحيد لتثبيت المعتقد الديني والإيمان.[2]

دَرَسَ راسل أدلة تثبيت العقيدة وأحقية الإيمان بالله وبالغاية الأساسية للخلق وهي إحدى الحجج التي تصمم العالم كأنه آلة ثابتة وجدت بنظام ثابت لا علاقة له بقدرتنا على الإبداع لأننا لسنا من نحركه أو نغيره نحو الأفضل، كل ما في الأمر أن هناك

---

[1] – Russell bertrand : Why I Am Not A Christian.1927.by.Simon & Schuster (30 octobre 1967).p3

* مركزية الإنسان: بالفرنسية Anthropocentrisme بالإنجليزية Anthropocentrism ،وهي المذهب الذي يجعل الإنسان مركز العالم، ويعد خير الإنسانية علة غائية لكل شيء، والإنسان المركزي Antropocentrique هو الذي يميل إلى هذا المذهب.(جميل صليبا: المعجم الفلسفي ج2.ص 365)

[2] – Ipid.p1-2

تنظيماً محكماً قدر له أن يكون منذ الأزمنة البعيدة ومنذ لحظة الخلق الأولى يظن هؤلاء أن العالم في صورته الحالية هو أفضل ما أمكن للآلهة أن تحققه للإنسان، لأن لكل شيء معادلة معينة يعمل وفقها خذ على ذلك مثالاً: يقال في تعاليم الكنيسة الخاصة بحجة التنظيم والتصميم إن الأرانب خلقت بذيل أبيض حتى يتسنى للإنسان تمييزها وبروزها لتصبح سهلة للصيد ؟ فهل هذا معقول " أليس هناك فعل التطور الذي جعل الكائنات ترتقي مثلما ارتقى الإنسان من الحتمية البيولوجية إلى الإنسانية ؟" هذه الحجة ساذجة لا علاقة لها بالعقل والتفكير المنطقي ولا تستدل إلى أي دليل علمي يثبت صحتها، وبالتالي ستكون هذه الأدلة مخادعة ومضللة للإنسان حتى تبعده عن الفهم الحقيقي للعالم وتبقيه تحت سيطرة تعاليم فاسدة وباطلة.[1]

من أجل إبطال حجج الكنيسة يتساءل راسل هل كان المسيح موجوداً؟ هل يمكننا أن نثبت وجوده بطريقة علمية صحيحة؟ هل هو مسيحي؟ هل كان على هذه الأرض؟ كل هذه الأسئلة لا تجد الإجابة من طرف رجل الدين الذي يقدمها كمعطيات جاهزة يجب الإيمان بها دفاعاً عن العقيدة من المتطرفين والكفرة، إضافة لهذا رأى راسل في شخصية المسيح شيئاً غير إنسانياً بالشكل الذي تصورته الكنيسة والمعتقد المسيحي لأنه يَدعوا الناس بأسلوب الخوف والوعيد وقمع وتجريد من الحرية فكيف له ذلك؟ لهذا قارنه بسقراط الحكيم اليوناني الذي كان أكثر إنسانية يطالب الإنسان بالحق ويترك له الحرية فكان أسلوبه في الحوار لطيفاً مشوقاً ومقنعاً بصفته إنسانياً بعيداً عن لغة العنف والقوة الذي عُرفَ به شخص المسيح، ويستشهد راسل ببعض ما ورد في الكتاب المقدس، قال المسيح: " وأما من أتاه الموت وعلى لسانه كلام في حق روح القدس لن يقبل منه التضرع والغفران لا في الدنيا ولا في العالم الأخروي"[2]، بهذه العبارة أو غيرها شعر الكثير من الناس بالأسى كل منهم يرى نفسه قد ارتكب إثم في حق الروح القدس فتجده معتكفاً على نفسه يفكر في مصيره أو يسابق الناس للحصول على صك يغفر له أفعاله.

---

[1] – Russell bertrand : Why I Am Not A Christian.p 3

[2] – Ibid.p 7-8

يُفَعَلْ الدين في أي مجتمع إنساني كعامل للخوف من القدر والمجهول ذلك الرُهَابْ النفسي الذي يصيب الإنسان ويجعله يتمنى أنه لم يوجد في هذا العالم، فالدين والقسوة يمشيان مع بعضهما البعض لأن لهما نفس الغاية وهي إخضاع الإنسان للمفهوم العقائدي الذي فرض عليه حتى يصبح مجرد جثت تحركها خيوط مبهمة وقوى غيبية لا يدرك طبيعتها، فالدين ينبع من تلك الرغبة في وجود قوة تحمينا نعود لها عند الشعور بالخوف والضعف إنه مثل الأخ الكبير الذي يحمينا من المشاغبين والمتنمرين علينا لهذا فإنا الإنسانية الحقيقية تلك التي ترى العالم بقدراتها وملكاتها الإبداعية، نحن بحاجة إلى الشعور بأننا نملك الأدوات اللازمة لنحقق قيمة وجودنا وأن نرى العالم كما هو فنتغلب عليه بفكرنا وطبيعتنا العاقلة.[1]

استعمل الدين في بداية عصر العلم كل الطرق والوسائل لإبعاد الناس عن المعرفة الصحيحة للطبيعة محاولاً بذلك أن يبعده عن الفهم الصحيح للعالم، ولكن في النهاية كانت هذه المعركة خاسرة فكل ما خاضته الكنيسة ضد العلم سواءً الفلك أوالجيولوجيا وعلم التشريح وحتى العلوم الإنسانية بهدف خداع الجماهير بأن أباء الكنيسة هم الطبقة العارفة والأكبر عقلانية، كل هذا لم ينجح لأنهم دائماً ما كانوا يفشلون ليغيروا مواضعهم حتى لا تظهر مغالطاتهم وأفكارهم الكاذبة والملفقة.[2]

يروي راسل أن المخترع بنجامين فرانكلين عندما اخترع عمود الصاعقة تعرض للتهديد من الكنيسة في انجلترا وحتى في روما وأمريكا، اعتبر فعله هذا محاولة غير لائقة لأنها إحباط للإرادة الإلهية فالصاعقة من صنع الله أوجدها ليعاقب الطالحين والذين ارتكبوا جرائماً وأفعالاً لا أخلاقية، هذه الصاعقة لا تمس أبداً أولئك الذين يمتازون بأنهم أناس أفاضل وإذا أراد الله أن يضرب أحداً ما فلا يجب منعه عن القيام بذلك على فرانكلين أن لا يحبط إرادة الله في الأرض، إن هذا التفكير الغير العلمي سيطر لمدة طويلة جداً وهو من بين أسباب التخلف وانعدام الإنسانية اللتان عايشتهما

[1]– Russell bertrand : Why I Am Not A Christian.p 10-11

[2]– راسل برتراند: الدين والعلم، مصدر سابق. ص 8

البشرية لقرون، فكان وراء فشل المجتمعات في خلق أنظمة إنسانية بالمعنى الحقيقي للكلمة فتعطيل مسار العلم هو تعطيل لمسار القيم الإنسانية.[1]

من المتفق أن هناك مفاهيم أنشأها الجانب الديني وتعتبر أكثر الأفكار السلبية على سيكولوجية الإنسان عبر التاريخ، ودائماً ما نجد هذه المفاهيم تلعب دوراً ليس بالهين في الحياة التي نعيشها وفي التحكم بذهنيتنا، ومن أكثرها صعوبة وخطراً يذكر لنا راسل الخطيئة * sin التي تعتبر مفهوماً غامضاً إذا ما أردنا أن نضبط لها تعريفاً واحداً ومحدداً، لأنها تأخذ معاني مختلفة بحسب موضعها الديني أو الاجتماعي ولكن الذي نريد أن نبينه هو مدى خطورة هذه الفكرة وفساد الاعتقاد بها.

يرفض راسل أن تكون الخطيئة جزءاً من الطبيعة البشرية فصحيح أن الشعور بالذنب وتأنيب الضمير لدى الفرد يعد غاية أخلاقية تحد من السلوكيات السلبية التي يفعلها، وهذا الإحساس متولد من وجود سلطة يمتثل لها الفرد باعتبارها موضع احترام كسلطة الأبوين أو القانون، وهو يختلف عن معنى الخطيئة لأنها شعور مبني على الخوف من أمر يتجاوز الطبيعة البشرية، فكل إيمان للإنسان بهذه الفكرة يتولد من منظومته التربوية والأسرية التي نشأ فيها، إذ تجده متشبعاً منذ صغره بتلك الوصايا التي يتعذر عليه تجاوزها أو التمرد عليها وأن قيامه بتصرفات مخالفة لها هو نوع من الخطايا، كأولئك الذين يعتقدون بأن الخطيئة هي عدم طاعة تلك القوة المطلقة التي تعود لها البشرية كلما وجدت نفسها بحاجة لمن يفهم آلمها ويقبل دعائها.[2]

---

[1]– راسل برتراند: بحوث غير مألوفة، ترجمة سمير عبده، دار التكوين للتأليف والطباعة والنشر، بيروت، د.ط، سنة 2009. ص83

* الخطيئة بالفرنسية péché بالإنجليزية sin باللاتينية peccotum ,culpa والتي تعني ارتكاب الذنب المتعمد وفي هي التهاون بشرائع الله أي ارتكاب ما نهي عنه وهناك أنواع من الخطيئة (خطيئة الموت وخطيئة ليست للموت خطيئة تغفر وأخرى لا تغفر وهناك فرق أخر بين الخطيئة اللاهوتية والفلسفية الأولى تعني مخالفة الأوامر المنزلة الموحى بها والثانية تعني مخالفة العقل.(جميل صليبا: المعجم الفلسفي الجزء الأول. ص 535)

[2]– راسل برتراند: المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة، ترجمة عبد الكريم أحمد مراجعة حسن محمود، مكتبة الأنجلو مصرية القاهرة . ص80

إن لهذا المفهوم حضوراً قوياً في الجانب الديني، أما تفعيل الإيمان به لدى الأفراد كان غاية سلطوية يسعى لها رجال الدين ليتمكنوا من فرض هيمنتهم ونفوذهم، وهو ما حصل في مرحلة القرون الوسطى عندما أحكمت الكنيسة سيطرتها على العالم المسيحي فاعتبرت الخطيئة مصدر قوة لها فلعبت بذلك دوراً أساسياً وفعالاً في جعل الخضوع لسلطة وإرادة أباء الكنيسة مطلقاً وبدون أن يكون هناك أي اعتراض أومخالفة لها، وتظهر لنا الدراسة التاريخية التي قام بها راسل أن الفكر المدرسي اعتمد هذا المفهوم كوسيلة لفرض الهيمنة أكثر من استعمالهم للقوة لأن إخضاع النفوس لسيطرة العقيدة يكون أقوى بكثير من سجنهم أو قتلهم، يرتبط مفهوم الخطيئة بشكله الديني دائما بمعنى تجاوز حدود العقيدة التي يؤمن بها الفرد وبنصوصها المقدسة أو تدنيس المقدسات والطقوس الدينية سواءً كان ذلك من ناحية القول أو الفعل، وهذا ما يطلق عليه المحرم أو المحظور ويوجد في كل حقبة تاريخية من يعمل على تثبيت الإيمان بالخطيئة وترسيخها في اللاوعي الجمعي لدى البشرية.[1]

إن الاعتماد على الخطيئة زود البشرية بفكرة الأنانية وحب الأذية للآخرين، والذي يشعرنا بالسعادة وبعمق الفضيلة في أنفسنا، فنرى عقاب غيرنا متعة تدل على أننا في طريق الحق ما دمنا لم نتعرض للعقوبة مثلهم، فنعتبر أننا بعيدين عن ارتكاب الخطايا التي من شأنها إثارة السخط والغضب الإلهي هذا ما كرست له الكنيسة في وقت مضى أن تجعل من الخطيئة مدعاة للكبرياء حينما نراها مرتبطة بغيرنا تولد فيهم شعور الإحساس بالذلة وفي داخلنا شعور الفخر والعظمة، جعل هذا المفهوم الإنسانية تتكبد الكثير من العناء والعبودية الطويلة إذ لم تكن غايته ضبط القيم الأخلاقية في حياة الإنسان بل جعله خاضعاً بصورة مطلقة لتصورات العقائد التي تحكمه، وبفعل هذا المفهوم أصبح ينظر لكل ألم تعانيه أمة أو جماعة ما أنه عقاب من جنس العمل دون أن نشعر اتجاههم بأي نوع من الرحمة والشفقة. لم تبقى الخطيئة رهينة البعد الديني بل امتد سخطها في مذاهب سياسية وأيديولوجيات مثلما كان النازيين المتطرفين في ألمانيا يؤمنون أن الأطفال المولودين من أبوين لم يتبنوا النازية ولم يعتنقوا أفكارها يجب أن

[1]– المصدر نفسه. ص 81–82

يموتوا جوعاً عقاباً على خطيئة آبائهم، لذا حق معاقبتهم دون أن ننظر لهم كأطفال أبرياء وهذا مخالف تماماً للعدالة الإنسانية الصحيحة التي نسعى لتأسيسها.[1]

كانت الخطيئة من التصرفات التي ارتكبت من خلالها أبشع الجرائم في حق الإنسان دون أي أسباب تبرر ذلك سوى أنه ارتكب أفعال خاطئة يجب أن يعاقب عليها بالشكل الذي يجعله أنموذجاً يحفظ المجتمع من الفوضى والانحلال، فإن الصواب هو أن تكون عقوبة الخطأ بيد القانون وليس العاطفة المبنية على المعتقد الديني المتشدد.

إن القسوة التي يرتكبها الإنسان بحق غيره إيماناً بالخطيئة كانت فظيعة جداً فإذا كانت الغاية من وراء العقاب هي الإصلاح فإن هذا لن يمكن الإنسانية من الابتعاد عن ارتكاب الخطايا بالشكل المطلق، لأن الطبيعة البشرية نسبية في كل أفعالها وهذا ما لم يدركه الكثير من الناس في زمن مضى وحتى في وقتنا الحالي، لأن إقامة العدالة السليمة تكون بالحث على السلوك الصحيح باستعمال طرق تجعل من الإنسان محباً لفعل الخير والصواب، فإقامة المجتمع الإنساني يكون بوضع القانون الذي يطبق العقوبات على من يرتكب الجرائم ويجازي أو يكافئ من يقوم بالأفعال الحسنة وهذا يتطلب الإيمان بحرية الإنسان وبقدرته على أن يقرر مصيره، فمفهوم الخطيئة يؤسس حرية الإرادة الفردية وفق النظرية الجبرية حيث يجبر الإنسان على أن يعمل بما يملى عليه وهنا يصبح العقاب على الجرائم مثل القتل ناتجاً بفعل أن من يرتكبه قد تجاوز حدود المطلوب أو المرغوب منه وليس لأنه ارتكب سلوكاً منافياً للخير أو للقيم الإنسانية وكأن الخوف من العقاب سيجعل من الناس تمتنع عن ارتكاب الجريمة في الوسط الإنساني، لكن شيوع الجريمة في مجتمعاتنا دليل على أننا لم نعلم الأجيال حقيقة هذا الفعل من الناحية الأخلاقية والإنسانية وإنما قمنا بضبطه من خلال كونه فعلاً منافياً لإرادة الله والمجتمع .[2]

[1]– راسل برتراند : المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة. ص 83

[2]– المصدر السابق. ص 86-87

إن وجود مثل هذه القاعدة في حياتنا يقف حاجزاً أمام السعادة التي نريدها لذا علينا أن نعوض هذه الفكرة التي نحملها عن الخطيئة بفكرة الثواب والجزاء، فلا نفرض منطق العقوبة على كل الأفعال الخاطئة التي يرتكبها الإنسان، لأن البعض قد لا يستحق ذلك فالخطيئة فكر متعصب يحمل الكثير من الأذية النفسية والجسدية. لذا يجب علينا نبذها من حياتنا وتعويضها بمفاهيم تحفيزية تلبيها إراداتنا وحريتنا ونطمح لتجسديها فمثلاً عقاب السارق بإرساله ليقضي سنوات في السجن لن يغير أفعاله السلبية ولن يضبطها بالشكل الكامل فماذا لو أننا نقنع الأفراد بأن عقاب السارق هو السجن دائماً ثم نحولهم بعد إصدار الحكم عليهم إلى جزيرة يعيشون فيها سعداء فهل سيندفعون إلى السرقة من جديد؟ إن هذا أفضل من العقاب الذي أصبح لا يشكل أي تغيير في ضبط طبيعتنا وأهوائنا السلبية، وفي الأخير فإن الخطيئة بكل أشكالها الاجتماعية أو الدينية لن تغير من الواقع الذي نعيشه ولن تصلح طرق تفكيرنا لأن هذا المفهوم نوع من الاستهجان الأخلاقي الذي لم يكن وسيلة ناجعة لتحقيق الغاية الإنسانية من وضع القيم الأخلاقية.[1]

اشتغل راسل كثيراً على النصوص والديانات المقدسة وحلل كل التشريعات التي تنظم مجمل العلاقات الإنسانية وترسم السلوك الإنساني أو تسعى لتنظيم شؤون الأسرة والعلاقة الزوجية، الكثير منها حسبه ما تزال فعالةً يعمل بها سواءً تعلق الأمر بالمسيحية أو اليهودية أو الإسلام، فبعض هذه النصوص تحرم بعض الأشياء وتسمح بغيرها بالرغم من أنها لا تتماشى مع منطق العقل السليم مثل تلك التي تحرم لحم الخنزير وتبيح القتل في حالات مختلفة، كانت الثقة في هذه التعاليم الدينية عمياء ومفرطة فأخذ بها رغماً عن خطأها وتناقضها وأكثر ما ينتقده راسل بشأن هذه المقدسات أنها جعلت بعض الناس لا يدركون قيمة العلم وضرورته لتغيير المحيط الاجتماعي الذي يعيشون فيه، وما يزال بعضهم يقبل تلك النصوص الدينية الغارقة في

[1]– المصدر نفسه. ص 87–88

القبلية والجهل والتخلف نصوصاً تميزت بأسلوبها الباعث على الشقاء والألم خاصة عندما تأخذ بغير نقد ودراسة.[1]

انتقد راسل النصوص الدينية التي أسست لفكرة الخطيئة والعصيان يجب أن نذكر رجال الدين بحجتهم أن كل شيء في الحياة قد سطر من قبل وما يحدث هو بإرادة الآلهة ومعيتها لهذا فإن العصيان بإرادتها والعقاب بإرادتها ومن واجب الإنسان أن يترك العقوبة بيد الله وأن لا يكلف نفسه عناء ذلك لأنه سيكون تدخلاً في إرادة الله أم أن إرادته تتوقف عندما تصبح العقوبة بأيدي أباء الكنيسة ورجال الدين، إن كل إيمان لا متناهي بهذه العقائد هو ابتعاد عن العقلانية فكثيراً من الأمم والحضارات أصبحت تختار من نصوصها ما يروق لها وتتجاهل غيرها من الأجزاء تماشياً مع الحقبة الزمنية ومع طبيعة البيئة الاجتماعية لتدل بأنه لا مكان لتأسيس القيم بشكل موضوعي بل كل شيء يستند لما تبتغيه أهواء الإنسان وعواطفه.[2]

نحن نعيش في عالم نختار فيه قيماً تناسب عقليتنا وأهدافنا مثلاً في حياتنا العادية نهتم بأمور بسيطة ونسلط اهتمامنا على غايات بسيطة لا غير، ولكن عندما يتعلق الأمر بالشؤون العامة تجدنا نعبر عن أفكارنا وأهواءنا فنغير من طريقة تفكيرنا، فنرى مديتنا أفضل من المدينة التي تجاورنا، أو أننا الوحيدون الذين نملك حضارة وأن بقية الأمم متخلفة، فالإنجليز يرون شكسبير أو ميلتون ونيلسون الأفضل، أو الفرنسيين الذي يعتبرون فرنسا دولة في رائدة الثقافة والحضارة أو الروس الذي مجدوا روسيا كأمة وحيدة تعبر عن المفهوم الحقيقي للدولة إنّها العصبية التي تحكمنا وتحركنا. فنحن حسب راسل لا نختلف في ما هو إنساني وإن كان هناك اختلاف فهو لا يولد الضغينة بل يجب أن يكون اختلافاً إيجابياً من أجل الغاية الأساسية وهي الاحتكاك بين الشعوب والحضارات.[3]

[1]– راسل برتراند : بحوث غير مألوفة، مصدر سابق. ص 89

[2]– المصدر نفسه. ص 90

[3]– المصدر نفسه. ص 91

وثق راسل في العلم واعتبره الأسلوب الوحيد القادر على بلوغ الحقيقة لأن سيطرة اللاهوت في فترة القرون الوسطى كان سبباً للمغالطات التي وقعت فيها الإنسانية فالعقيدة الدينية حسبه تدعي امتلاكها للحقيقة المطلقة أو اللانهائية، فَقَد أخضع الدين الفكر الإنساني للتصورات الساذجة خاصة في المرحلة التي كانت قبل القرن 16 ولكن مجيء العلم عجل التخلي عن هذه الأفكار وأصبحت المعرفة أداةً تستعمل لفهم العالم وحقائقه، في حين أن الفكر الديني أو اللاهوتي هو الذي رسم للعقل الإنساني الحدود والعوائق التي أخرت حريته وفهمه لطبيعته وللكون.[1]

التصور الراسلي للدين كان فردياً خالصاً، فهو لم يربط هذا المفهوم – الدين – بأيّ نمط عقائدي أو شخصي ولم ينظر للقديسين أو المتصوفين على أنهم يمثلون الدين بأي من الأشكال، بل هو جانب عميق يمتزج مع رغبات الإنسان المختلفة فكلما وجدت الإنسانية نفسها على المحك أو في الطريق إلى مصير مجهول تعود إلى الجانب الديني الذي في داخلها لتشعر بنوع من التحسن، لهذا وصف راسل الإنسان المتدين بأنه الشخص الذي يشعر بمشكلات الإنسانية المختلفة ويحلم بمستقبل سعيد للجميع ومن يملك هذا الشعور هو صاحب نظرة دينية صالحة، وهذا الحكم الذي قدمه راسل يختلف عن مفهومه التقليدي بل إنه تصور إنساني خالص، فكلما أصبح الدين بعيد عن كونه عقائداً ونصوصاً جافة أي عندما يكون شعوراً وإيماناً بمبادئ إنسانية في هذه اللحظة لن يعترض العلم طريقه لأنه قد ابتعد عن تلك التصورات المطلقة. ومع ذلك فإن وصول الإنسانية إلى تصور الدين بهذا الشكل مستبعد في الوقت الحالي حسب راسل، لذلك يجب أن نعمل على تحقيقه مستقلاً حتى نصل إلى الحكمة الصحيحة وننشر الآمن و السلام في عالمنا.[2]

عواطف الإنسان المؤذية مختلفة ومتنوعة لها أثر بالغ الخطورة في حياتنا، ويرى راسل بأن الحسد من أقوى المشاعر التي تجعلنا نعيش حياة تملئها التعاسة والكره اللذان يظهران في مراحل مبكرة تستدعي العمل على ضبطها وعلاجها قبل أن يشتد عمقها

[1]– راسل برتراند: الدين والعلم، مصدر سابق. ص 10–12

[2]– المصدر نفسه. ص 14

في الذوات، فعلاج هذه العاطفة السيئة هو أول أنواع تأسيس العدالة الإنسانية فيما بيننا، إن للحسد امتداداً عند جميع الناس على اختلاف أعمارهم لكنه أكثر خطورة لدى البالغين رغم وجوده عند الأطفال الصغار، يذكر لنا راسل مثالاً عن إحدى خادماتهم في المنزل سيدة حامل طلبة منها العائلة عدم القيام بالأعمال الشاقة لكي لا تؤذي نفسها وجنينها، لكن بقية الخدم خاصة النساء أصبحن لا يقمن برفع الأثقال أوالأعمال المتعبة، فأصبحت العائلة أحياناً تقوم بأعمالهم المختلفة إن هذا المثال على بساطته يعبر عن عمق طبيعتنا، فماذا لو أن هذا الشعور يسود جميع معاملاتنا ما النتائج التي قد تنجم عن بناء أمم تكن لغيرها الحسد وسوء النية؟.[1]

يبقى الحسد كعاطفة من بين أسس الديمقراطية منذ العهد اليوناني، وحتى في شكلها الحديث حيث أن جميع التغيرات الجذرية التي تحدث في أي بنية اجتماعية تسند إلى نظريات تبرر حدوثها، وبذلك تصبح هذه النظريات عند الأغلبية الساحقة من الناس مطلقة وضرورية لإحداث أي تغيير نسعى إليه وخلف كل نظرية نجد عاطفة تحركها وتعطي لها القوة اللازمة لتفرض نفسها، وكان الحسد هو الشعور الذي حرك الديمقراطية كنظرية سياسية فَقَدْ حصل أن هيراقليطس الفيلسوف اليوناني اقترح أن يتم إعدام مواطني مدينة أيفسيس لأنهم امتثلوا لرغبة الحسد داخلهم عندما كان لابد من أن تعطى أولوية شؤون الولاية لأحدهم وهذا شكل لديهم الشعور بالنقص وبعدها اجتاحت هذه العاطفة كل المدن اليونانية آنذاك، أما اليوم فإن الحسد أصبح يعم كل الأمم وشعوبها دافعاً إياهم لمحاولة القضاء على بعضهم البعض حتى لا يبقى بينهم من يشعرهم بأنهم أقل شأناً وقوتاً.[2]

عرفت عاطفة الحسد طريقها حتى للعقول المتميزة والراقية فهي ليس عاطفة وليدة الجهل بل هي شعور قد يملكه حتى كبار العلماء والفلاسفة والأدباء عندما تصبح لأحدهم تلك المكانة التي لم يحفلوا بها، فتراهم يكنون له في داخلهم رغبة الفشل والانهيار حتى تكون لهم فرصة الريادة يوما ما، وتعتبر الرسائل التي كتبها العالم ليبنتز

[1]– راسل برتراند: انتصار السعادة، مصدر سابق. ص 89–91

[2]– المصدر نفسه. ص 91–92

لأحد أصدقائه دليلاً على ذلك كان محتوى الرسائل مجموع من الخطابات تحمل الكثير من الألم لحال العالم نيوتن كونه أصيب بالجنون، ورغم كذب تلك شائعة قال لبعضهما" أليس محزناً أن تصبح عبقرية السيد نيوتن التي لا مثيل لها مشوشة بفقدان العقل"[1]، كانت خطاباتهم تحمل الكثير من النفاق تذرف دموع التماسيح الواضحة في كل رسالة بينهما، وهذا يدل على وجود سلوك شاذ يحرك دوافعهما نحو الإيمان بهذه الشائعة، تشبه هذه اللحظة تلك التي نراها عند عامة الناس سواءً رجالاً كانوا أو نساءً أين ترى الجميع ينتظر الفضيحة من غيره ليجد السبيل إلى السخرية منه وليعبر بذلك عن حقيقته اتجاه الآخرين.

الحسد هو شعور مرضي يؤدي بصاحبه للتفكير في إيذاء غيره فيسبب لهم الألم المادي والمعنوي، خاصة إذا كان فعله محكماً بخطة تجعله بريء مفلتاً من العقاب يصاحب هذا الشعور الكثير من التعاسة وعدم الرضا عند الأفراد أو الجماعات التي لم تقتنع بما لديه بل يؤلمها ما لدى الآخرين ولو استطاعت أن تحرم غيرها من لذة ذلك لكان هذا أكثر راحة من أن ترى نفسها أقل من غيرها ولو في أبسط الأشياء، لكن عبقرية راسل الفذة دائماً ما تعوضنا عن مثل هذه العواطف بأخرى أكثر ليونة وإنسانية لذا فإن الإعجاب كشعور إنساني هو الأصح في مثل هذه اللحظات، يقول راسل " من يرغب في زيادة السعادة الإنسانية لابد وأن يرغب في زيادة الإعجاب وتقليص الحسد"[2]،لأن تشكل هذه العاطفة في حياة الإنسان هو عقبة تقف أمام سعادته التي ينشدها في هذه الحياة أو ربما في حياة أخرى فحتى رجال الدين والقديسين يعانون من هذه العاطفة المظلمة فكلما زاد عمق هذه الحالة النفسية اعتقادنا بأن هناك الكثير ممن يريدون تعاستنا أو القضاء علينا فنسعى إلى حماية أنفسنا أو للمبادرة في القضاء عليهم. بفعل أن الحسد أصبح ثقافة تسيطر على العلاقات الدولية الراهنة فالكل يرى من نفسه متميزاً كشعب أو كقوة مما يدفعه إلى الإيمان بأنه مستهدف من غيره هكذا تتصاعد وتيرة السباق نحو التسلح واصطناع الجيوش والآلات والأسلحة أكثر من

[1]– المصدر السابق. ص 93

[2]– المصدر نفسه. ص 94

البحث عما يسعد الإنسانية فيصبح العالم يسير بمنظور توماس هوبز القائل "إن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان" و تبدأ بذلك حرب الكل ضد الكل.

رغم أن أكثرية الأمم تعيش حالة سلم وهدوء تبقى الحرب إحدى المؤسسات المستديمة الوجود في كل المجتمعات الحرة، يُعرفُ راسل في كتابه أسس لإعادة البناء الاجتماعي الحرب أنها اشتباك بين مجموعتين من الناس تحاول كل جبهة أن تقضي على غيرها بمختلف الطرق والوسائل بغية تحقيق رغبتها المدفوعة من أجل الوصول إلى السلطة أو الثروة، ولكن مع ذلك فإنها ليست تصرفاً أخراً مختلفاً عن أنواع الصراع الأخرى فهي مثل تصرفات الإنسان الغريزية لا تحدث بفعل الغاية التي تنشدها أكثر مما تحدث بسبب الميل نحو التصرف ذاته، فغالباً ما يطمح الناس في غاية ما ليس من أجل الغاية ذاتها بل لأن طبيعتهم تتطلب أفعالاً تقودهم إلى تحقيق ميولاتهم والأمر نفسه في الحرب، التي تشبع ناحية من طبيعتنا فلو أن أعمال الناس تتبعث عن رغباتهم فيما يجلب لهم السعادة لكانت الحجج العقلية ضد الحرب كفيلة لوضع حد لها. لكن الأمر الذي يجعل هذا الحصر غير ممكناً على الإطلاق هو أن الحرب سلوك ينبع من الميل وليس من جراء حسبان الأرباح التي تنجم عنها.[1]

يوجد في الأحوال العادية عدد ضئيل من الناس إذا ما قيس بمجموع عدد السكان من يترقب نشوء الحرب ولا يتوانى في التنبؤ بوقوعها دون إبداء أي أسف على نتائجها المرعبة، فعندما لا تكون الحرب حسب راسل خطراً مداهماً فالقسم الأكبر من السكان لا يولي اهتماماً إلى هؤلاء الذي يحملون شعارها، ولكن عندما تدق الحرب وتنتشر حماها في كل أجزاء الشعب يجد الأشخاص الذين كانوا يترقبون الحرب قبلاً أنفسهم مدفوعين بحماسة من طرف الجميع إلا من نفر صغير لا يؤبه له، إذ لا يطلب الحرب في الظروف العادية حسبه سوى رجالاً مثقفون يعرفون الدول الأخرى حق المعرفة، وما

[1]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي، ترجمة إبراهيم يوسف النجار، ط1، سنة 1987. ص 65-66

يميز هؤلاء عن البقية أو العامة من الناس الغارقة في الجهل هي معرفتهم وليست طبائعهم.[1]

ضرب راسل مثالاً عن السياسة الألمانية خاصة في السنوات المباشرة لاندلاع الحرب كانت غير ميالة للحرب ولم تكن على علاقة ودية مع انجلترا، أما الرجال الذين يرسمون السياسة فيها كانوا على قدر كبير من الوطنية الغير المعروفة لدى غيرهم في إنجلترا أو فرنسا كانت تبدوا لهم مصالح ألمانيا بلا شك هي المصالح الوحيدة الواجب مراعاتها، أما ما يصيب الأمم الأخرى من جراء هذه المصالح مثل الأضرار والنكبات كتحطم المدن والتشرد والمجاعة وكل ما ينزل بالبشرية من خسائر هي أشياء لا تهمهم. كان يبدوا لهم أن تدمير الأشياء الحسنة خارج بلادهم يساوي تقريبا من حيث أهميته بناء أشياء جديدة جيدة في داخلها[2] .

تفكير الألمان بهذا الشكل سببه هو الحسد الذي يتكبدهم اتجاه البعد الثقافي الفرنسي والواقع السياسي الإنجليزي، وكذا الثروة هو الذي دفعها للتفكير في دخول حرب ضدهم محاولةً بذلك كسر كل ما تم بناءه من أجل أن تظهر هي كقوة كاملة دون منازع على جميع الأصعدة، لهذا يجب أن يتفادى العالم مستقبلاً تلك الحالة النفسية التي تدهورت إليها كل من بريطانيا وألمانيا قبل اندلاع الحرب إذ يمكن اعتبار هاتين الأمتين بمثابة ممثلين أسطوريين للتكبر والحسد، عبر راسل عن هذا الموقف بين الدولتين بالعبارة التالية التي قالتها ألمانيا بحمية " أنت يا إنجلترا المنتفخة والهرمة تعطلين نموي بأكمله وأغصانك الملوثة تمنع الشمس من تدفئتي والمطر من إنعاشي لذا يجب أن تقلم أغصانك المتطاولة حتى أستطيع النمو بحرية وتنبت حيويتي دون أن تعيقها كتلتك الهشة"،[3]لهذا فإن الأمم المتصارعة إن نظرت إلى الأشياء من وجهة نظر صالح الإنسان الحي، وليس من وجهة نظر الفخر القومي لأدركوا أن أصوب شيء هو عقد صلح على أفضل وجه ممكن، لهذا اقتنع راسل بأن الحل الأفضل لكل أمة

[1]– المصدر السابق. ص 67

[2]– المصدر نفسه. ص 67-68

[3]– المصدر نفسه. ص 70

وللحضارة الإنسانية هو بناء العلاقات على التسامح فالتكبر يعمينا عن رؤية الحقيقة الظاهرة التكبر الذي يجعل الاعتراف بالهزيمة عاراً وما العار سوى شيء شعوري فلا نشعر بالعار إذ اقتنعنا أننا أخطأنا في ذهابنا للحرب، فلو قبلت الدول المتصارعة الاعتراف بهذه الحقيقة لقبل كل سلام دون الشعور بأي نقصان أو مذلة للنفس وقد يكون من الضروري أن نعرف حروباً أكثر وحشيةً ودماراً قبلما تثور ثائرة أكثر الناس المتحضرين على وحشية الحرب العصرية وتدميرها غير المجدي، ولكن إن لم تصب أسسنا الحضارية وقوانا على التفكير البناء بعجز دائم، فهذا لا يدعوا للشك في انتصار العقل فينا عاجلاً أم أجلاً على الميول والرغبات العمياء التي تقود الإنسانية للحرب والدموية، فإذا صممت أكثرية الدول الكبرى تصميماً أكيداً على حفظ السلام لا تبقى هناك أي صعوبة في اختراع الآلة السياسية التي تجد حلاً للمنازعات أو في إنشاء بنية تربوية تغرس مقت الحرب والقتل.[1]

للحرب أسباباً ودوافعاً مختلفة هناك منها ما ينهم عن الأهواء مثل هجوم فريديريك الأكبر على ماريا تيريزا كان سبباً خاضعاً لهواه ومشيئته دون أي مبرر أخر وهي عادة الملوك في القرن 18 أين كانوا يدخلون غمار الحروب لا شيء سوى لتأكيد هيبتهم وشرهم وفرض شوكتهم وهي ظاهرة لم تتكرر كثيراً في الفترة الحديثة والمعاصرة.[2]وللحرب أسباب اقتصادية مثل صراع الانجليز مع الاسبان أما عن الإسبانيين فقد كانت حروبهم وصراعاتهم عقائدية دينية، وفي نفس الوقت هناك هيستيريا الجماهير أين تندفع الشعوب نحو هوس الحروب تعبيراً عن رغبتها في التعالي والشعور بالعظمة وأحياناً تكون الجمهرة من أقوى دوافع الحرب مثل وولبول الذي كان رئيساً للوزراء في إنجلترا لفترة طويلة جداً حتى أسقطته رغبة الجماهير

[1]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي، مصدر سابق. ص 73

[2]– راسل برتراند: كتاب المحاورات،ترجمة محمد عبد الله الشفقي، سلسلة كتب ثقافية الجمهورية العربية المتحدة، د.ط. ص 19

وتصميمها على دخول الحرب مع الإسبانيين رغم عزوفه عن ذلك هذا لأنهم أحبوا الأمر واعتادوا عليه.[1]

أكثر ما صدم راسل خلال السنوات التي عانت فيها البشرية من جراء الحروب هو ظاهرة وجد أنها غريبة جداً وهي أن بعض الناس يجدون متعة في الحروب، يقول راسل " حين تجولت في شوارع لندن وأخذت أتطلع إلى وجوه الناس وجدت أنهم أسعد بكثير مما كانوا عليه من قبل نشوب الحرب "،[2] كانت الكثرة الغالبة من الناس تستمتع بالحرب طالما أنها لا تنشب في أرضهم أو في مكان مجاور لها أو طالما أنها ليست مؤذية جداً.

أكد راسل أن هناك حروباً مبررةً وعادلة لها ما يعطيها الشرعية كحروب مقاومة العدوان فالانجليز كانوا عادلين عندما قاوموا الأرمادا الاسبانية والمجريين كذلك عندما حاولوا الحصول على حريتهم، وهناك أمثلة من التاريخ القديم مثل إسكندر وقيصر وهما من كبار الفاتحين وقد خاضا حروباً تفتقر إلى التبرير الشرعي، لكنها أسفرت عن نتائج حميدة فلولا فتوحات إسكندر لما انتشرت دعائم الهيلينية في أنحاء الشرق، ولما انتشرت كذلك اللغة اليونانية وتم حفظ التراث اليوناني أما عن قيصر فإن حربه على بلاد الغال كانت السبب الرئيس في جعل جزءاً كبيراً من مدنها متحضرة وكانت حروبه هذه وراء نشر اللغة الفرنسية،[3] لكن ليست كل الحروب عادلة أو غير عادلة فبعض الحروب لها ما يبررها بينما البعض الأخر يفتقر لذلك مثل الحرب العالمية الأولى التي يراها راسل حرب غير شرعية أو مبررة، أما الثانية فكانت مبررة بسبب طغيان الفكر النازي المتطرف وظهور شخصية هتلر الهمجية.[4]

[1]– المصدر السابق. ص 19–20

[2]– المصدر نفسه. ص 23

[3]– المصدر نفسه. ص 17–18

[4]– المصدر نفسه. ص 20

حركت الحرب كل مجتمع أراد تحقيق انطباعات جديدة تقدر على التفكير في منطلق إلى إجراء بعض التعديل في معتقداته السابقة وفي أماله ويتوقف ذلك التغيير على الفرد والظروف التي تحيط به، أما التغيير بحد ذاته فكان شاملاً لكل مؤسسات المجتمع المدني، وبالتالي استنتج راسل أن الحرب نظرة خاصة من منابع العمل لدى الإنسان فهي وسيلة تغيير في بعض لحظات التاريخ الإنساني لكنها أكثر أذية في معظم لحظاتها الأخرى.

في الفصل الثالث عشرة من كتابه "أمال جديدة في عالم متغير" بين راسل مرارة الصراع بين الجماعات البشرية حول المصالح الاقتصادية والذي ما يزال موجوداً حتى يومنا هذا، فالكثير من الحروب الإنسانية نجمت بسبب البحث عن الأغراض الاقتصادية ومحاولة تحقيقها مثل الحربين العالميتين الأولى والثانية ولكن تتميز حرب 1939 –1945 بطابعها العقائدي الإيديولوجي المتمثل في" النازية، الشيوعية واللبيرالية " وتعتبر الإيديولوجيات حسبه إحدى أقوى الدوافع التي دعمت ثقافة الحروب لدى الحكومات وشعوبها، لذلك اعتبرها أشد خطورة مثل العقيدة أو الدين، وفي حديثه عن الإيديولوجية يعتبر نابليون بونابرت أكثر شخصية ساعدت على نشر مفهوم الإيديولوجيين وهم أولئك الذين عارضوه ووقفوا ضده وكان معظمهم من الجمهوريين آنذاك، أما عن استعمال راسل لهذا المصطلح فهو مرادف بشكل تقريبي لكلمة عقيدة أومذهب.[1]

أكثر التعريفات التي ارتبطت بالإنسان عبر تاريخ الفكر الفلسفي هو القائل" الإنسان أكثر المخلوقات إجلال وعظمة" والأكثر تميزاً نظراً لما له من قدرات مختلفة سواءً عقلية أو نفسية أو لما قد حققه من انجازات مختلفة فكرية واقتصادية وحتى تلك السياسية والدينية، لكن راسل يجد أن هذه النظرة بعيدة عن واقعنا وعن ما تعبر عنه سلوكيات الإنسان لأن وصف الإنسان بالحيوان العاقل هو تعريف لا يتفق مع إنجازاته وطريقة تفكيره المؤذية والتي نراها حاضرة في كل الأزمنة والعصور، رغم بحث راسل

[1] راسل برتراند : أمال جديدة في عالم متغير، مصدر سابق. ص 121

المستمر في الطبيعة البشرية لكنه لم يجد حضوراً فعلياً لما يدل على صحة هذا الحكم على الإنسان سوى في تعبيرات الفلاسفة القدماء، يقول راسل " مع أنني فتشت عنه في كل مكان من الأقطار المنتشرة في ثلاث من القارات رأيت العالم يغرق باستمرار إنه بحر من الجنون لا يعبر عن تلك الطبيعة العاقلة"،[1] أكثر ما صادفه راسل أثناء بحثه عن مفهوم الإنسان والقيم الإنسانية ومفاهيمها لدى الأمم والشعوب الماضية والحاضرة هو غياب تلك الطبيعة العاقلة وانتشار القسوة والكره والبغض والخرافة والتعذيب والتقتيل الجماعي من الإنسان للإنسان.

ظلت البشرية طريقها وغرقت في شعارات الدموية والدمار فالحديث عن العقل بالنسبة لراسل أصبح مقترن في زمننا هذا بتعبير الإنسان القديم وأكثر ما يثير الفضول أن الإنسانية ما تزال قائمة رغم الجنون الذي عاشته وحدت الصراعات التي حصلت بين شعوب العالم وثقافاته المختلفة.[2]

في دراسته لمفهوم الإنسان العاقل أو الناطق تساءل راسل كيف لأرسطو أن يقدم هذا التعريف ؟ إن ما دفعه لوضع هذا المفهوم " الإنسان حيوان ناطق " هو إيمانه بحقيقة لو أمعنا النظر فيها من خلال معطياتنا الحاضرة لوجدناها تتنافى مع هذا التعريف وسيبدو للوهلة الأولى أنه تعريف مغالط غير جدير للأخذ والعمل به، نقد راسل أرسطو في تقسيمه للنفس البشرية النباتية والحيوانية والعاقلة وهذه الأخيرة هي ميزة الله وفيها يشترك جميع البشر وحسبه فإن اليونان سبقوا ديكارت في التأكيد على أن العقل أعدل الأشياء توزعاً بين الناس فأرسطو هو الأخر رأى اختلافاً في نسبة العقل فلكل فرد حكمته وقدراته ويبقى الإنسان كائناً عاقلاً له ملكة تميزه عن غيره من الموجودات الأخرى، وهذا منطق غير صحيح على الإطلاق إن نحن نظرنا لما ارتكبه الإنسان من أفعال دنيئة وخاطئة منذ أول تجمع له لأن القتل والتضحيات التي فعلها

[1]– راسل برتراند: بحوث غير مألوفة، مصدر سابق. ص 80

[2]– المصدر نفسه. ص 79–80

اليونان في حق بعض أفرادهم كانت تستدعي من أرسطو إعادة النظر والتدقيق في مفهوم الإنسان.[1]

هذا المفهوم الأرسطي هو نتاج مهارات يملكها البعض في المجالات الرياضية مثل الحساب وبالتالي استنتج راسل أن تعريف أرسطو لم يعني الإنسان العاقل من الناحية الاجتماعية أو الأخلاقية والسياسية، إنه تعريف مغالط إذ ما أخذنا صورة الإنسان المعاصر بما ينتجه من أفكار وسلوكيات وعواطف غير مستقرة أو ثابتة فليس كل من يملك قدرة الحساب أو الإحصاء إنساناً عاقلاً فالآلات المتطورة لها هذه القدرة بل قد تفوقت على الإنسان في ذلك فهل هي عاقلة كذلك؟.[2]

أصبح صعباً علينا أن نضع مفهوماً صحيحاً للإنسان بعدما خاضت البشرية نزاعاتها المختلفة أكبرهما الحربين العالميتين الأولى والثانية مما آثار الشك في أن تكون للإنسانية طبيعة عاقلة مثلما كانت تقول عنها الفلسفات القديمة وحتى الحديثة يقول راسل" من هو الإنسان هل يتمثل في رجال السياسة البارزين؟ أم رجل الأدب والفلسفة؟ أم رجل الدين الذي هو أعقل الناس وأفضلهم في زمن عصور الإيمان الأولى؟"[3]، قام الإنسان منذ القديم بجرائم وحشية في حق غيره تحت شعارات مختلفة أكثرها تتبنى الطابع الديني حيث تم حرق النساء في الساحات العامة بحجة أنهن ساحرات أو شياطين، كما طبقت أشد العقوبات على مرتكب الخطيئة مهما كان نوعها. لكن عندما يقارن راسل ما ارتكبه هؤلاء مع ما قام به الإنسان المعاصر فسيبدو أقل عدوانيةً وظلماً نظراً لأن الإنسان في تلك المرحلة لم يفهم العالم من الناحية العلمية بالشكل الصحيح، وهذا ما حال بينه وبين وضع قيم إنسانية صحيحة وصالحة فزمن الإيمان بأن الأرض ليست كروية الشكل جعل كل من يقول بهذه النظرية مختلاً وخارجاً عن العقيدة الصحيحة مخالفاً لتعاليم الكنسية ونصوصها، لذلك اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية أن أكثرية البشرية مدانة بالذنوب تجب معاقبتها بالأمراض والأوبئة والجوع

[1]– المصدر السابق. ص 80

[2]– المصدر نفسه. ص 81

[3]– المصدر نفسه. ص81

والزلازل والكوارث الطبيعية الكبرى[1]، كانت تلك عقائداً منعت القيم الإنسانية من أن تكون صحيحة وصالحة للإنسان.

إيمان الإنسانية بقدراتها وامتلاكها لقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح وتأكيد قدرتها على وضع العلوم ومعرفة الحساب وجدول الضرب كل هذا يجعلها ترى نفسها أفضل، لهذا فإن الكون قد وجد لخدمتها من شمس تنير وقمر يضيء وكذلك من فواكه حتى الحيوانات خَادمةُ الإنسانية تلبي رغباتها في الأكل وفي حمل أثقالها وليس عليها سوى أن تطيعه هذه الغاية، فقد اعتبر البعض من اللاهوتيين كما أشرنا سابق أن الله قد خلق بعض الحيوانات بأشكال وألوان بارزة ليسهل على الإنسان صيدها واقتناصها والاستفادة منها هل حقاً هذه هي الحقيقة التي يجب أن تتعلمها الإنسانية أليس من حق الفرد أن يتعلم بينة الكون ومركبات الكائنات حتى ينسجم في التعايش والتأقلم معها.[2]

أغلب هذه العقائد أو كلها تبني إيمانها ونصوصها من اعتبارات ذاتية وهنا يروي راسل قصة بورو وهو رجل كان قد تعرف على قسيس واعظ اسمه ولشمي الذي كان حسب القصة شخصاً كئيباً حزيناً وكان وراء ذلك أنه يشعر بالأسى لارتكابه خطيئةً عندما كان يبلغ من العمر عشر سنوات وخطيئته كانت ضد روح القدس فأجابه بورو لا يجب عليك أن تقنط أو تتزعج فأنا أعرف أناساً ارتكبوا مثلك الكثير من الخطايا فلا تحاسب نفسك وكأنك الوحيد في هذا العالم الذي يعاني هذه الآلام "[3]، جعلت تلك العقائد كل فرد يرى نفس الوحيد الذي تعثر في الحياة وارتكب نوعاً من الشرور والخطايا تجعله يشعر بالانفصال عن قطيعه، وطريقة التفكير هذه كانت تولد في نفوسهم المريضة اللذة في أن يرو رعاياهم يشعرون بالاستهداف الذاتي من طرف سلطة وعقيدة ظالمة للإنسان وفردانيته.

[1]– راسل برتراند: بحوث غير مألوفة. ص 82

[2]– المصدر نفسه. ص 82

[3]– المصدر نفسه. ص 92

سببت هذه العقائد تعطيلاً للبحث العلمي وحركته فقد آمن اللاهوتيين بأفكار زوال الأرض بالتدرج يتوقف كل شيء الهواء والماء وكل الكواكب ستنتهي وفي ظل كل هذه الأحداث تختفي البشرية من العالم ليستقر البشر بين الجنة والنار، لهذا يحسب رجل اللاهوت أنه لا داعي للبحث عن العلوم الطبيعية البعيدة عن علوم الدين مادام العالم سينتهي في ماذا سيفيد علمنا مع عالم زائل ومنتهي، هذه الأفكار أرادة توقيف مسار العلم لاعتبار الإنسانية منتهية ويبقى أجمل شيء للإنسانية هو تكريس نفسها وحياتها لخدمة العقيدة وتطبيق طقوسها ومراسيمها حتى ينال الجميع مرضاة الله في عالم ما بعد الموت، هذا هو مفهوم الأخلاق والقيم السامية إنه في تطبيق نصوص الدين وعبادة الله وعدم الاهتمام بالحياة الدنيوية، بل إن الحقيقة القصوى هي إقصاء حياة الإنسان وواقعه من مشاريع القيم الأخلاقية والإنسانية.[1]

أكثر العقائد الزائفة التي دفعت راسل للشكك في منطق الفلاسفة القدماء الإنسانية والقائل بأن الإنسان أعقل المخلوقات وأعظمها العقيدة التي يكون أساسها ومصدرها حب الشيء العجيب، فالناس حسبه يسجلون الحقيقة انطلاقاً من العجب ويصل بهم الأمر حتى الهذيان أين يبدوا لهم هذا الشعور حقيقة ويصبح ما يثير نفوسهم وأسرتهم هو اليقين المطلق، فمثلاً لو نسأل بعضهم عما يقوله به أحد السياسيين أو المتنبئين ونطلب منهم تسجيل ما سمعوا من خطابه أو من تنبؤاته فسيذكرون أشياءً لم تكن موجودة أصلاً، ويرون تصوراتهم حقيقة ويقين وهو حالنا اليوم نثق بخطابات الكثير ممن يعتلون المنابر حتى أننا نظنهم منزهين من الخطأ فيدفعنا شغفنا وجمهرتنا للقول أنهم الأشخاص المناسبين وبذلك سنصنع منهم شخصيات صالحة برغم من أنهم ليسوا كذلك على الإطلاق.[2]

تبنت الكثير من الشعوب منطقاً سلبياً جداً وهمجياً وهو منطق العرق والدم، وأكثرها حدتً في زمن راسل النازية التي أشبعت أفرادها بالعرقية وجعلتها مبررة ورسمية دون أي موضوعية، لأن ما يهم النازية الاعتبار الذاتي لكون الألمان سلالة نقية غير

[1]– المصدر السابق. ص 93

[2]– المصدر نفسه. ص 94

مختلطة تمتاز بإمكانية بشرية مثل قوة العقل والجسد، الأمر الذي جعلهم مندفعين بغير عقلانية نحو القسوة والتسلط والعنف ضد غيرهم، هذه العقيدة وجدت منذ القديم ودائماً ما تجد لنفسها أشكالاً جديدةً بأثواب مختلفة كما فعل الألمان في النازية تحت شعار الجنس الآري هو أنقى الأجناس البشرية، يقول راسل عن هذه العقيدة " إنها قديمة قدم الحضارة تتغير أشكالها لكن في جوهرها تبقى راسخة"،[1] إضافة لهذا توجد دائماً عقائد مختلفة في المجتمعات والشعوب والحضارات وهي أنماط تفكير مقدسة مثل التي ترى الملوك والحكام ورجال الدولة أشخاصاً أكثر ذكاءً وأسمى من غيرهم حتى في إنسانيتهم هم أكثر قيمة من الجميع، أو التي ترفع من شأن الإنسان من خلال لون بشرته فتجعله متميزاً ومتفوقاً على غيره هكذا رأى الرجل الأبيض عندما قارن نفسه مع الرجال بالألوان الأخرى خاصة سود البشرة، وهناك من صنفوا أنفسهم كأفضل أجناس البشرية لا لشيء سوى لأن الله قد اختارهم من بين الجميع وفضلهم بأحقية الحكم في الأرض ويعتبر اليهود طائفة دينية مثلت هذه العقيدة المتطرفة التي جعلتهم يبررون أفعالهم ويمارسون كل أنواع التعذيب على غيرهم[2].

تفاقم الوضع وغابت الإنسانية حتى ظنت بعض المعتقدات أن المرضى والمجانين هم أشخاص تسكنهم أرواح الشياطين وتركهم في المعاناة والألم هو السبيل الوحيد لعلاجهم، كما أنهم اقتنعوا بأن تعذيبهم جسدياً يطرد الأرواح التي داخلهم ويحررهم من الجحيم هذا الاعتقاد جعل رجال الدين والمختصين في طرد الأرواح يمارسون كل أنواع التعذيب وحشية واعتقد البعض أن ممارسة التخدير على الكائن الحي محرم ومخالف للإرادة الإلهية وما يزيد الغرابة أنهم اعتبروا التخدير خاص بالرجال لأن الله عندما استخرج ضلع آدم أدخله في سبات عميق لا يشعر فيه بالألم، وبالتالي هذه الوسيلة حسنة للرجال أما النساء فهن مخلوقات وجدت لتذوق الألم والعذاب لأنها لعنة حواء التي تلاحق المرأة، وهي ثقافة عرفتها بعض المجتمعات الحديثة مثل اليابان كان

[1]– راسل برتراند: بحوث غير مألوفة. ص 96

[2]– المصدر نفسه. ص 95

تخذير النساء أثناء الولادة أمراً ممنوعاً ومحرماً من الناحية الأخلاقية والاجتماعية والدينية.[1]

شكلت فكرة العرق خطراً داهم الإنسانية منذ الأزمنة العابرة ولا تزال ذات أثر بليغ حتى يومنا هذا وهو ما يسمى التمييز العنصري بين الشعوب من الناحية اللغوية والهوياتية، وقد يكون أحياناً لأسباب تافهة كلون البشرة وهو ما انتشر في أمريكا أين كان السود يعانون من ظاهرة العبودية والقسوة من طرف البشرة البيضاء، ففي الصليب الأمريكي كان الأطباء والممرضين لا ينقلون دم زنجي إلى جندي أمريكي أبيض بل فقط من زنجي لزنجي آخر، وحتى في ألمانيا اعتبر نقل دم اليهود للألمان محرماً وهذا كي لا تنتقل العدوى للألمان، كما ظن الأمريكيين أن شعوب المناطق النوردية الشمالية متفوقة على السلفيين أو اللاتينيين أو حتى كل البيض الآخرين، وهنا لم يرتبط الأمر بالبشرة فقط بل بالجانب الجغرافي والعرقي ففي ألمانيا كان هتلر يدعوا للحفاظ على صفاء دم الجنس الآري وأقرت النازية أن كل المؤيدين لهتلر هم سلالة أصيلة وكل يعارضه طائفة ضالة يجب معاقبتها، لذلك كان يقال " إذا لم تحب هتلر فهذا دليل على تلوث الدم"، لكن بحسب البحوث التي أجراها راسل حول شعوب هذه المناطق فإن الألمان لم يكونوا سلالة نقية لأنهم مزيج تناسلي فنلندي ولاتيني، لهذا فإن فكرة الجنس النقي التي آمن بها الألمان أو غيرهم ليست مؤكدة إطلاقاً إن نحن قمنا بدراسة أنثروبولوجية للمجتمعات القديمة وامتدادها التاريخي وكذا التطور الذي وقع على الإنسان.[2]

كان المجتمع الأمريكي هو الوحيد الذي استحسنه راسل كثيراً لأن الفروق والتمايزات العرقية بين الناس تكاد تكون منعدمة ففيما يخص مدارسهم كان الأطفال كانوا يخضعون لنفس النظام التربوي سواءً تعلق الأمر بالأمريكيين أو غيرهم من الأطفال الأجانب، حيث كانت تستعمل وسائل لقياس قدرات الذكاء، وهو ما بين بأن نسب الذكاء لا علاقة لها بالعرق أو الانتماء والسلالة فليس هناك أي اختلاف في

[1]– راسل برتراند: بحوث غير مألوفة. ص 95

[2]– المصدر نفسه. ص 97

القدرة على التعلم والاكتساب لهذا يعتبر راسل أن هذا التصور الطبقي الذي يصنف بفعله الأطفال هو نفسه التصور الذي وضعه أفلاطون وأرسطو في تقسيمهما للنفس والمجتمع، والذي كان تقسيماً غير عادل، أو مثل اليهود الذين اعتبروا أنفسهم أكثر الشعوب تفوق وذكاء مقارنة بغيرهم من الشعوب والأمم الأخرى وما زاد ثقتهم في تفكيرهم هذا هو تناقل هذه المعلومة بين بعض الشعوب وإيمانهم بها وهذا ما أسماه راسل العجب أو حب التضخيم والزيادة فيما نسمع أو نقرأه بدافع غير مبرر، من هذا المنطلق اعتبر راسل أن القول بعقيدة العرق مجرد سخافة خاصة في أوروبا التي ليس فيها عرق صافي، ليس في أوروبا فقط بل في كل شعوب العالم القديم والحديث فاليونان قديماً كان سكانها مزيج مختلطاً من البرابرة والأيونيين.[1]

سنة 1903 كتب برتراند راسل مقالاً بعنوان عبادة الإنسان الحر، كان المقال نتيجة تجربة عاشها وعرف من خلالها حقيقة الطبيعة البشرية، فاعتبر أن الوجود الإنساني دائماً ما يكون خاضعاً لنفس القوانين الفيزيائية التي تحكم العالم وتحدث في حياتنا بعيداً عن حريتنا وإرادتنا نخضع لها بأسباب مختلفة وبالتالي فإن الفناء سيكون مصيراً حتمياً للبشرية في أي زمان ومكان وحول ماهية الإنسان طرح راسل سؤلاً أساسياً ما الذي يجعل الإنسانية تحتفظ بآمالها ورغباتها وطموحاتها وسط عالم مملوء بعواطف سيئة وغير إنسانية.[2]

الإنسان في هذا العالم مثل الطفل الذي يهوى الاندفاع نحو رغباته ويميل بشكل غير مبرر إلى القوة التي تسيطر عليه، وكأنها أم له يحترمها ويقدسها فينجذب لأي عقيدة أو أيديولوجية حتى ولو كانت متوحشة، وهذه هي المذلة التي عاشت في ظلها البشرية لسنوات عديدة خاصة في تلك المرحلة التي لم يفهم فيها الإنسان أسرار الكون والغاية من وجوده.[3]

---

[1]– المصدر السابق. ص 98

[2]– راسل برتراند: ما الذي أؤمن به مقالات في الحرية والدين والعقلانية، ترجمة الدكتور عدي الزعبي، ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، د.ط، سنة 2016. ص 140

[3]– المصدر نفسه. ص 143

يرتبط مفهوم الإنسان اليوم بقاعدة الصراع من أجل حفظ البقاء، وكلما تحقق ذلك يشعر هذا الكائن العاقل أنه الأفضل من غيره، فكرامة الإنسان حسب راسل تكون بقدر تحرره من تلك القوى الاستبدادية والغير الإنسانية، ولكن كيف السبيل لذلك إن لم نتحرر فمعرفة الخير والشر في ظل العبودية والاستغلال لن يغير من العالم الذي نعيشه فيه، فالبحث عن المفهوم الحقيقي للإنسان يكون من خلال رفضنا للقوة وليس بالبحث عن الخير بمفهومه الأفلاطوني المجرد؛ إن مفهوم الإنسان الذي شكلته بعض الفلسفات المبنية على القوة مثل فلسفة نيتشه وكارليل كان بسبب فشل مجتمعاتهم في وضع قيم ومثل عليا والحفاظ عليها، فإذا أردنا أن نشكل مفهوماً صحيحاً عن الإنسان علينا البحث عن التحرر ثم أن نؤسس المثل والقيم التي تسمح لنا بحياة كريمة خالية من الصراع لأن القوة هي تفكير سيء علينا رفضه في صميم أعماقنا.[1]

بخصوص حديثه عن نيتشه 1844-1900 يراه راسل فيلسوفاً ضعيفاً غير جدير بالمكانة التي حضي بها إذ نحن نظرنا للمعتقدات التي كان يؤمن بها، كان نيتشه صاحب نزعة إنسانية غير مكتملة أو موحدة إنها نزعة أرستقراطية خالصة رسمت الحدود على الأفراد وميزتهم عن بعضهم البعض بتركيزها على ما يسمى الإنسان الأعلى أو الأعظم مما أدى به إلى مواجهة كل مصاعب الحياة والبؤس التي يعيشها الفرد باستعمال القسوة والقوة وهذا ليس من بين أخلاق المجتمع الإنساني، إن شخصية نيتشه بشرة بالأنظمة المستبدة الحالية وربما قد فهم نيتشه بشكل غير صحيح لأن فلسفته كانت انعكاساً لواقع تربى فيه ونهل منه أولى أفكاره وأحكامه لذا قد لا يقع اللوم على نيتشه وحده لأن منطق القوة هو جزء من مجتمعه الذي أفرز الإيديولوجية النازية وجنون هتلر خلال الحرب العالمية الثانية .[2]

ميز نيتشه بين نوعين من الناس هما العبيد والسادة وقد عرض خصائصهما وميزاتهما في كتابه الشهير" ما وراء الخير والشر" سنة 1886، فوصف فضيلة السادة

[1]- المصدر السابق. ص 145

[2]- راسل برتراند: حكمة الغرب ج2 الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، د.ط ، سنة 1983. ص 148

بالعاقلة التي يمكنها الاعتماد على نفسها بما تملك من كرم واستقلالية بالنفس، ويسميه نيتشه "الإنسان ذو النفس الكبيرة" كما لهم طبيعة أخرى وهي القوة والهيمنة والنفوذ التي تشكل جانب الشر فيهم، أما عن العبيد فإنهم مجرد أشخاص ضعفاء يرون الاستسلام سلوكاً خيراً يذر عليهم السعادة والخير لكن الخطأ الذي ارتكبه نيتشه أنه لم يردك بأن طبيعة الإنسان واحدة ولا يملك أحد ذوات الغير أو حياتهم وحرياتهم، فالمجتمع حسبه مجرد مجال يفتح للعظماء التعبير عن إبداعاتهم وسلطتهم دون أن يراعي الطبقة البسيطة من الناس وألمهم أو أن يعمل على خلق عدالة إنسانية وأخلاق متينة لأن الأخلاق والفضيلة حجة الضعيف الذي لا يستطيع أن يحمي نفسه في هذا العالم إن هذا حسب راسل عاطفة المرضى النفسانيين المهووسين بحب السلطة والسيطرة وفرض نفوذهم على الضعفاء دون أي مبررات منطقية عقلية لذلك، وهو الأمر الذي جعله يرى في الحرب العالمية الثانية حرباً ضرورية للقضاء على النازية الألمانية قبل أن تجتاح مبادئها الشعوب وتصبح القومية والعرقية مبدأً يحركنا.[1]

اختلف راسل عن نيتشه كثيراً خاصة حول فكرة الإنسان الأعلى وتقسيم المجتمع إلى طبقتي العبيد والسادة، ولكنه يوفقه الرأي في المسألة التي تخص الدين أين اعتبر نيتشه المسيحية نموذجاً لأخلاق العبيد لأنها تشعرهم بفكرة العذاب والتشاؤم وتبدي تقديراً كبيراً لفكرة التصاغر والشفقة وفي أواخر حديثه عن نيتشه، يقول عنه راسل "هناك جوانب إيجابية في فكر نيتشه ولكننا لا نستطيع أن نقتنع بنفس السهولة بفكرة عدم الاكتراث التام إزاء المعاناة التي تتحملها الكثرة لصالح القلة".[2]

إن حياة الإنسان عندما ننظر إليها من الخارج أي من ناحية كونه من الموجودات في هذا العالم، يظهر أنه لا يشكل سوى ذرة متناهية الصغر مقارنة مع الطبيعة وظواهرها لكن مع ذلك نحاول فهمها وتفسيرها من أجل تحقيق نوع من السعادة النفسية التي لا تكون دون الانعتاق من تلك القوى المختلفة سواءً طبيعية أيديولوجية أو عقائدية هي ميزة الإنسان الحر فهو لا يعبد القوة مهما بلغت عظمتها وسيطرتها فالإنسان

[1]– المصدر السابق. ص 150

[2]– المصدر نفسه. ص 151

الحقيقي هو المتحرر من سلطة الأنظمة السياسية والعقائدية المفضية إلى صراعه مع غيره أو صراعه ضد ذاته تقديس القوة هو سلوك الحيونات التي لا تملك وعياً أوضميراً أخلاقياً أما الإنسانية فهي تعبير عن قدرة التغيير والتدبير والأفضلية .[1]

يمتلك الإنسان مكانة أساسية كونه الوحيد القادر على فهم تطور الكون وتغيراته بفعل العلم الذي سمح له بالتحرر من مختلف القوى التي سيطرة عليه منذ العصور القديمة، فالإنسان من الناحية البيولوجية هو أحدث الكائنات مقارنة بالأنواع الأخرى التي سبقته منذ ملايين السنين لكن رغم ذلك فإنه الوحيد الذي شهد ولا يزال يشهد تطوراً متواصلاً في شتى ميادين الحياة، إن البحث عن حياة الإنسان لا يرتكز على الفلسفة وعلوم الأخلاق والتربية بل هو موضوع لعلوم أخرى مثل البيولوجية وعلوم الطبيعة والحياة كما تتناوله بالدراسة العلوم الإنسانية من الناحية الفردية والجماعية ونعني بها علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع وهذه الدراسة تركز بالجانب الداخلي أوالباطني للإنسان وهي محاولته في معرفة وإدراك نفسه، إن للإنسان حسب راسل أبعاداً مختلفة منها الجانب العضوي البيولوجي والجانبين العقلي والنفسي وأحسن نظرة للإنسان تلك التي تهتم بجانبه الداخلي وهي عملية نكمل بها فهمنا الخارجي له.[2]

يختلف المفهوم الذي صاغه راسل للإنسان بشكل كلي عن نظرة الفلاسفة والعلماء الذين ركزوا فهمهم للذات الإنسانية على إحدى جوانبه الداخلية أو الخارجية لأن الصواب أن ننظر إليه بطريقة ثنائية من الناحيتين الظاهرية والباطنية ومن بين هؤلاء نجد الفلاسفة أصحاب النظرة المثالية الذين قدسوا العقل وعملياته ورفضوا المادة بكل أنواعها ومن بينهم ديكارت أما فيما يخص أصحاب التفسير المادي فهم من اعتبروا العقل مجرد خاصية عضوية مادية، إن مسألة فهم الإنسان حسب راسل ترتكز على مدى تحليل كل أبعاده والبحث عن حقيقتها فليس من المنطق أن نقبل أو نجعل جانباً

[1]– راسل برتراند: ما الذي أؤمن به. ص 150

[2]– المصدر نفسه. ص 124–125

واحداً الميزة الوحيدة للإنسان كمثل ما فعلته الفلسفات التقليدية والحديثة وحتى المعاصرة.[1]

يصل راسل في تعريفه للإنسان أنه محصلة لمجموعة من العناصر المركبة والمترابطة، وهي الجانب النفسي والعقلي والسلوكي لهذا يرفض راسل كل مطابقة بين تلك الدراسات التي تعمل على فهم الإنسان بنفس الطريقة التي تتناول بها الموجودات الأخرى ،لأن ما ينتج عن الإنسان عبارة عن ظواهر أكثر تعقيداً من ظواهر الكون الأخرى وهذا التعقيد سببه تلك العواطف والأهواء المتنازعة في داخله.[2]

يتشكل مفهوم الإنسان من أبعاد وخصائص مختلفة قام ذكر راسل أهمها في كتابة تحليل العقل، وهو مجموعة محاضرات مختلفة تتناول مواضيع ذات صلة بالبعد النفسي والعقلي والاجتماعي للإنسان، إذ يرى أن فهم الظواهر الإنسانية يحتاج لمعرفة تركيبته وتطوره من مرحلة لأخرى بحيث لمس هذا التطور جوانبه المختلفة[3]، وبالتالي فإن تحديد تعريف صحيح للإنسان حسبه يكون من خلال دراسة ما يصدر عنه من حركات أو أفعال وهي ثلاثة أنواع : إرادية، انعكاسية آلية وتحرك الإنسان غريزة من نوع ما قد تكون أقوى من تلك التي لدى الحيوان، فكل شيء يحدث في حياته هو وليد توفر عامل الغريزة حتى التعلم يكون بفعل توفرها فهي التي تعطي الاندفاع نحو اكتساب المعرفة، كمثل الحيوانات التي تكون داخل القفص تتعلم تدريجياً طريقة الخروج من خلال القيام بحركات غريزية تستطيع بفعلها أن تحرر نفسها، وهكذا الحال مع الإنسان قد يصدر في البداية أصوات تصل به إلى تعلم النطق والكلام لذلك فإن الغريزة بالنسبة لراسل قاعدة خام جاهزة في حياة الإنسان لا يمكن أن نصفها بكونها خاطئة أو صحيحة بالشكل المطلق ولكن يمكن لنا ضبطها باستعمال برنامج تربوي يحترم طبيعتنا البشرية.[4]

---

[1]– المصدر السابق. ص 9–10

[2]– برتراند راسل: تحليل العقل، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دار التكوين للترجمة والتأليف والنشر، ط 1، 2016 سنة.ص 38– 39

[3]– المصدر نفسه. ص 38

[4]– المصدر نفسه. ص 52–53

إذا كان الوعي أحد أهم الميزات لدى الإنسان فإنه مجرد متفرج أو مراقب لتلك العمليات التي نقوم بها عندما تدفعنا غرائزنا المختلفة، فمثلاً لما نشعر بالجوع نتصرف في تلك اللحظة بشكل غريزي فنميل اتجاه الروائح والطعام وهذا السلوك يسبق وعينا بأننا جائعون، فالرغبة البدائية للإنسان وجدت ولا تزال موجودة حتى يومنا هذا وبهذا الشكل لن نقول عن أي إنسان في هذا العالم عاقلاً أو حيواناً ناطقاً كما وصفه أرسطو من قبل.[1]

في قراءته الفلسفية لماركس ومفهومه للإنسان يمكن القول أنها كانت دراسة نقدية لم يقبل منها راسل سوى العامل الاقتصادي كأحد أشكال التطور الذي يعيشه المجتمع ولكنه ينتقد المادية الماركسية وأبعادها المختلفة، أولها أن ماركس يرى الأفكار الإنسانية ومسألة الوعي شيئاً متولداً من خلال ترسبات مادية خالصة حتى العلاقات الاجتماعية والإنسانية نفسها تبنى على هذه الغاية المادية لأنها لغة الحياة الواقعية وتنعكس هذه المادية على كل سلوكيات الإنسان وتحركاته وعواطفه المتضاربة، وهكذا تتأسس القيم الأخلاقية والسياسية وحتى نظريات التربية المختلفة.[2]

يعتقد راسل أن الإنسان بوصفه إنساناً هو كينونة قابلة للإدراك والمعرفة أي أنه يمكن تحديده بيولوجياً سوسيولوجياً وسيكولوجياً، لكن مع ذلك هو لا يقبل أن نؤمن بذلك التطابق الكلي بين لفظ الطبيعة البشرية والطبيعة الحقيقية للإنسان، ففي محاجاته على جيرمي بنتام يقول ماركس" من أجل معرفة ما هو مفيد للكلب يجب علينا دراسة طبيعة الكلب، إن هذه الطبيعة ذاتها لا يمكن استنتاجها من خلال مبدأ المنفعة"[3] وسبب هذا التصور أن ماركس نظر للإنسان بشكل مادة خام لا يمكن تغييرها سوى بالتاريخ ومجراه المستمر لأنه يطور نفسه ويتحول كلما تحولت طرق الإنتاج ووسائله[4] فهل هذا ممكن حسب راسل ؟

---

[1]– المصدر السابق. ص 65

[2]- إريك فروم : مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق،ط1،سنة 1998. ص 38–39

[3]– كارل ماركس: رأس المال " الكتاب الأول"، ترجمة فهم كمنقش، دار التقدم، د.ط، سنة 1985. ص 668

[4]– إريك فروم: مفهوم الإنسان عند ماركس. ص 46

الإنسان لا تخلقه ظروف العمل بل هناك ميزات أخرى لهذا الكائن المتميز بقدراته العقلية والنفسية فالفرد لا تحركه المادة وليس مجرد انعكاس لأشكال إنتاجه المختلفة. لقد استغل ماركس الطبيعة البشرية بشكل غير إنساني فقتل بذلك روح الإبداع الفني والأدبي وحتى الديني والفلسفي لأنه اعتبرها نتاج تحول المادة عبر التاريخ[1]، يقول راسل" إن الملابسات التي يعيشها الإنسان سياسية وثقافية بقدر ما هي ملابسات اقتصادية"[2] وبهذا يتبنى راسل نظرته الشاملة للإنسان ورفض تضيق مفهومه في الحاجة الاقتصادية أو غيرها.

مما هو معروف عن راسل نزعته العلمية وثقته بأثر العلم على المجتمع الإنساني وفي تكوين مفهوم الإنسان فهل كانت ثقته هذه نابعة من دراسة واقعية لأبعاد هذا الإنجاز الإنساني أم أنها تولدت بفعل أنه عالم رياضي ومنطقي؟

إن موقف راسل من مكانة العلم والثقة التي وضعها في أساليب البحث العلمي وأبعاده، يطرح تساءلا جديداً هل كان راسل محقاً عندما أعطى للتطور العلمي كل تلك الأهمية في بناء المجتمع الإنساني؟ وهل النجاح الذي حققه العلم في صراعه مع الدين والطبيعة كما تحدثنا سابقا يجعله بهذا القدر من الاحترام والمكانة ؟

"ربما كان مفهوم العقلي التقني ذاته إيديولوجية وليس استخدام التقنية بدئاً إن العلم والتقنية هو سيطرة على الطبيعة والإنسان سيطرة منهجية علمية محسوبة وحاسبة"[3] في هذه العبارة التي كتبها يورغن هابرماس في كتابه العلم والتقنية كايدلوجية وفي حديثه عن موقف هاربرت ماركوزه من التطور الذي شهده العلم بعد القرن 19، يظهر

[1]– راسل برتراند: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة محمد فتحي الشنطى، المصرية العامة للكتاب، د.ط ، سنة 1988، ص 431

[2]– المصدر نفسه. ص 432

[3]– يورغن هابرماس: العلم والتقنية كأيديولوجية ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، د.ط سنة 2003. ص 48

أن كلاهما قد أدرك الحقيقة التي يختفي وراءها العلم والآثار التي قد تنجم عنه إذا ما أحكم سيطرته على الذات الإنسانية وعلى الطبيعة، إنه إحدى الوسائل التي تحكم بها الرأسمالية هيمنتها على الأنظمة العالمية في المجال الاقتصادي، وهنا تظهر حسب ماركوزه شرعية السيطرة كشكل قانوني من أشكال الاستعباد والخضوع حيث يشعر الفرد براحة كبيرة نتيجة هذا التطور الهائل الذي وصل إليه، إنها عملية انصهار الفرد داخل الإنتاج الهائل للعمل الجماعي البناء أو الذي يصفه ماركوزه بالمدمر.[1]

مخالفة لأراء راسل أكد هابرماس أن الثقة في التقدم التقني يجب أن يبقى محل تشكيك، فالنمو الذي أسسه التقدم العلمي نسف الكثير من التناسبات الاجتماعية فأصبح الإنتاج مشرعاً سياسياً بصفة شرعية، يقول ماركوزه " اليوم تتأبد السيطرة ويتسع مداها ليس بواسطة التقنية، وإنما كتقنية وهذا يجعل العلم سياسة متنامية في ذاتها تتحكم في كل المجالات الثقافية والفكرية بصفة شرعية وهذا برهان على استحالة الحرية الإنسانية مستقبلاً".[2] فالصراع الإنساني لا يزال مستمراً لكنه تغير في شكله وسرعته لأنه استمرار تاريخي فتبعية العبد للسيد والقن لصاحب القصر والوالي للملك كلها حلت محلها تبعية جديدة إما لنظام الأشياء أو للقوانين الاقتصادية، إنها عملية العقلانية العلمية التقنية للمجتمع الإنساني أين يصبح الفرد مستغلاً في يد الإنتاج إنها قوة العلم المشئومة التي لم يدركها راسل ولم ينتبه لخطورتها على الروح الإنسانية.[3]

مجاهدة الإنسان ضد الطبيعة وصراعه المرير معها جعله يفتك بها ويخضعها لإرادته ورغباته وبالتالي تأكد الطابع العلمي لها، وكان نتيجة هذه السيطرة زيادة الإنتاج

---

[1]– المرجع السابق. ص 49

[2]– هاربرت ماركوزه: الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرتبيشي، منشورات دار الأدب بيروت، ط2، سنة 1988. ص 182

[3]– المرجع نفسه. ص 183

الاقتصادي والسياسي والثقافي مما أدى إلى ارتفاع المستوى المعيشي للفرد، ولكن الذي حصل في الأخير أنه قد أنتجت هذه الحكمة العلمية والتقنية إلى ظهور مشروع اضطهادي تدميري، أعرب عن تكامل بين العقلانية التقنية والعلمية في محاولة لاستغلال الإنسان داخل نسيجه الاجتماعي متخفّياً بحجة الطابع العلمي للمجتمع الإنساني الذي دفع راسل لكتابة مؤلفه أثر العلم في المجتمع أين لم يبين بوضوح الإيديولوجية الحقيقية للعلم ونتائجه السلبية.[1]

[1]– هاربرت ماركوزه: الإنسان ذو البعد الواحد. ص 185

الفصل الثاني: راسل والكوسموبوليتية

المبحث الأول: نقد راسل للفلسفة الماركسية والبرغماتية

المبحث الثاني: الغاية الإنسانية من الحكومة العالمية

المبحث الأول: نقد راسل للفلسفة الماركسية والبرغماتية

أولى راسل جانباً كبيراً من تفكيره لتلك القضايا المتعلقة بالنظم السياسية والاقتصادية، فقدم مستويات من النقاش الفلسفي حاول من خلالها عرض أهم آرائه حول المذاهب والمدارس المختلفة، كما ركز انتقاده على ملامح النظامين اللذين عاصرهما وهما اللبيرالية البرغماتية والاشتراكية الماركسية، ليطرح بذلك المساوئ والمحاسن الخاصة بكل واحد منهما مع تقديم البديل الأمثل، فالتغير الذي عرفه العالم خلال الفترة الحديثة كشف عن حيثيات مستقبل إنساني مجهول بعيد عن الحريات الفردية والقيم الإنسانية، إنه عالم ملئ بالحزن والأسى.

عاش راسل حمى الحربين العالميتين الأولى والثانية، ورأى اندفاع الشعوب نحو جنون الصراع واقتلاع الحرية وتهاوي القيم وتلويث العقل بالمفاهيم الفاسدة على جميع مستويات الحياة الإنسانية، فحاول جاهدا أن يعيد النظر في تلك الفلسفات التي سادت العالم ما بين القرنين 18 – 19 من أجل كشف أهم نظرياتها ومبادئها ومعرفة مدى نجاحها وقيمتها الأخلاقية والإنسانية، لذا ستكون بدايتنا بقراءة راسل لفلسفة كارل ماركس1813–1883 والتي لها جذور قبله تعود في نشأتها الأولى إلى روبرت أوين وسان سيمون*.

عانت الاشتراكية في بدايتها الكثير من المشاكل والنقائص خاصة تلك المتعلقة بالمبادئ التي يجب أن تقوم عليها، لهذا لم تصبح حزباً سياسياً ناضجاً إلا بعد مجيء إنجلز 1820–1895 وماركس الذي يعتبر من أكبر الفلاسفة الذين تأثروا وتشبعوا

*روبرت أوينRobert Owen ماي 1771 –نوفمبر 1858 مصلح اجتماعي ويلزي وأحد واضعي أسس الاشتراكية المثالية والحركة التعاونية سان سيمون Saint–simon17 اكتوبر1760 ماي 1825 فيلسوف ومفكر اشتراكي فرنسي كبير من الذين مهدو بأفكارهم للثورة الفرنسيه ومن ألمع اصحاب الفكرى الثورى فى تاريخ اوروبا.

بفلسفة هيجل التي بقيت تأثيراتها حسب راسل راسخة في الفكر الاشتراكي والشيوعي إلى غاية الفترة التي عاشها، أصبحت الماركسية الاشتراكية بمثابة النموذج الفكري الجديد أو موضة العصر الحديث.

كان ماركس رجلاً يؤمن بأن التاريخ يسري وفق خطة عقلية محكمة وواحدة، وقد زادت رغبته في التشبع بالفكر الاشتراكي بعد أن ذهب إلى فرنسا حيث تعرف على كبار أعلامها آنذاك وهو سان سيمون، ورغم القيمة التي حضي بها ماركس لكن راسل يعتبر أن إنجلز هو أول من وجه الاهتمام للطبقة الكادحة في إنجلترا، والتي أصبحت جوهر الفلسفة الماركسية فيما بعد كتب إنجلز سنة 1845 كتاباً بعنوان " حالة الطبقة العاملة الإنجليزية في سنة 1844" في حين أن فلسفة ماركس حسب وصف راسل كانت آنذاك في أول بدايتها أين ظهرت أنها انعكاس للميتافيزيقا الهيجيلية، ولولا آثار إنجلز على فكره لبقي ماركس هيجيلياً طوال حياته.[1]

كان راسل من طبقة الشباب الذين أصبحت لهم رغبة في الاهتمام بمعالجة القضايا السياسية والاقتصادية وأكبر انعكاساتها على المجتمع الإنساني فبدأ انشغاله بالمشاكل التي تفرزها هذه الغايات الكبرى للدولة الحديثة وكانت أولى انطلاقاته البحث في المشاكل ذات الطابع الاقتصادي والسياسي، كانت الاشتراكية الإنجليزية التي سبقت ماركس معادية ومناهضة للمسيحية ولكل وسائل السياسة وهو ما وَجَدَ أقوى إنتاجاته في فكر روبرت أوين الاشتراكي، وصف راسل هذه الاشتراكية أنها لم تكن فلسفة جديرة بالاهتمام ولم تقدم ما يثير الاهتمام أو الدهشة لهذا قال عنها " الاشتراكية قبل ماركس لم تكن فلسفة جديرة بقدر كبير من الاحترام العقلي"[2]، أما الشيء الوحيد الذي تعلمه

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم، مصدر سابق. ص 222–223

[2]– المصدر نفسه. ص 224

ماركس منها هو أن السياسة والمسائل الاقتصادية بينهما علاقة يجب أن يهتم بها الفكر الإنساني وهذه هي فلسفته التي صاحبته طوال فترة حياته، واشتد إيمانه بتلك العلاقة بين الفلسفة والمسائل السياسية لدرجة أنه ربط نهوض الفلسفة بنهوض الطبقة الكادحة أو البروليتاريا* لأن الغاية من الفلسفة هي تغيير الأوضاع السائدة خاصة من الناحية الاقتصادية و إلا فلن تكون فلسفة حقيقية.[1]

ينقسم المجتمع حسب ماركس إلى طبقتين بينهما الكثير من الصراع والعداء ذو الطبيعة الاقتصادية وهما البورجوازية والبروليتاريا، نشأ هذا النزاع في ظل وجود النظام الرأسمالي الذي يستغل العمال وأجورهم الزهيدة التي لا تساوي ما يقدمونه من مجهود عضلي، وبالتالي فإن هناك تعارضاً كبيراً في المصالح بين هاتين الطبقتين أما الطبقات الأخرى من المجتمع فإنها مجرد بدائل محصورة بينهما فإما أن تختار الانضمام إلى الطبقة الكادحة وتواجه تصاعد الظلم الرأسمالي أو أن تقف في صف البورجوازية لتشارك في قمع الطبقات المستضعفة، ولهذا يحبذ ماركس وجود حزب واحد يراعي المصلحة العامة وله مهمة أساسية هي الإطاحة بالرأسمالية باعتباره حزباً ثورياً بالدرجة الأولى وتكون البروليتاريا الطبقة المحفزة والداعمة لهذا الحزب ومبادئه.[2]

يعتبر ماركس أن نجاح الثورة التي تقوم بها البروليتاريا لا يعني أن يحصل تغير أو تجديد للطبقات الاجتماعية بل يتم إلغاؤها تماما أي لا وجود لأي طبقات واختلافات بينها وهذه هي الضرورة التي يخلقها النضال العمالي بعدما يتم ذلك الاتحاد بين

* البروليتاريا: prolitaria هي مصطلح سياسي إقتصادي يطلق على طبقة العمال الأجراء الذين يشتغلون في الإنتاج الصناعي يعد ماركس وإنجلز أول من استعمل هذا اللفظ، تعد البروليتاريا الطبقة الكادحة والهشة من المجتمع وبواسطتها تحدث الثورة التي ستغير المجتمع وتقضي على ظلم الرأسمالية بإحلال مجتمع بدون ديكتاتورية أو طبقية.(مراد وهبة : المعجم الفلسفي،درا قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2004. ص 141-142)

[1]- راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 225

[2]- جون ميلنو: الماركسية والحزب، مركز الدراسات الاشتراكية ،2007. ص 10

الجميع من أجل تحقيق أهداف واحدة وهي خدمة الدولة والجماعة، وحتى تستولي البروليتاريا على زمام الأمور في المجتمع الصناعي عليها أن تمنع أي ملكية فردية لوسائل العمل والإنتاج وتكرس مبدأ الملكية الجماعية فهل بإمكانها ذالك ؟

طبعاً تستطيع البروليتاريا أن تحقق هذا العمل التحرري لأنها طبقة ثورية ولكن مع ذلك هناك شوط طويل ليس بالسهل يجب أن تقطعه حتى تحقق هذا الحلم لأن هناك فجوة كبيرة بين البروليتاريا كطبقة في ذاتها وبين كونها طبقة لذاتها، وحتى يتسنى لها إيجاد مخرج لنفسها يجب أن تعمل وتكافح النظام الرأسمالي من الناحية الاقتصادية والذهنية وتكون العملية الأولى من خلال طبقة العمال البروليتاريين، أما الثانية فهي تأسيس حزب يوحد الجميع وهو الحزب الشيوعي.[1]

لكن من خلال القراءة التي قدمها راسل لماركس فإنه لم يملك مفهوم محدد عن الحزب فأحياناً يعتبره مصلحة بروليتاريا وأحياناً أخرى يعتبره حزباً سياسياً أو عقيدة ما هذا التناقض يظهر كثيراً في كتاباته فأحياناً يشير إليه بلفظ حركة الشارتيين* أو الفضافضة وباسم القضية الثورية فقد كتب لجريدت فريلجراث شارحاً الشيوعية " إنها مثل جمعية المواسم في باريس، ومثل مئات الجمعيات الأخرى، كانت فقط حلقة في تاريخ الحزب الذي ينمو تلقائيا في كل مكان من تربة المجتمع الحديث" فهل سيكون

[1]– المرجع السابق. ص 11–12

* الشارتية أو الميثاقية Chartism حركة حدثت في الطبقة العاملة من أجل الإصلاح السياسي في بريطانيا بين 1838 و 1848. وأخذت اسمها من ميثاق الشعب، سنة 1838 .وكانت الميثاقية أول حركة عمالية حاشدة في الطبقة العاملة في العالم. و"الميثاقية" هي الاسم الجامع للعديد من الجماعات المحلية التي يكاد لا يوجد بينها تنسيق، وكثيراً ما تُسمى "جمعية عمال"Working Men's Association ، للتعبير عن مظالمهم في العديد من المدن منذ سنة 1837.(منير البعلبكي: قاموس المورد إنجليزي – عربي، 2018.ص 169)

هذا الحزب قوة سياسية تحمل مبادئ مشتركة مثلما كان يدعي ماركس أم أنه مجرد محاولة لا فائدة منها.[1]

عن جوانبه الشخصية كان ماركس فيلسوفاً يدخل في علاقات وصداقات كثيرة وكانت أقوى صداقة له مع معاصره الفيلسوف إنجلز الذي دعمه كثيراً خاصة أثناء إقامته في بروكسل، تلك الفترة التي تأسست فيها العصبة الشيوعية الهادفة إلى إنهاء حكم الطبقة البورجوازية وجعل السلطة بيد الطبقة الكادحة البروليتاريا راجية بذلك إبعاد كل أنواع الطبقية من المجتمع بإنشاء نظام اقتصادي جديد مناهض للرأسمالية، وفي البيان الذي أصدرته الشيوعية* عام 1848[2] ذكر ماركس أن تاريخ المجتمعات التي قامت إلى حد الأن هو تاريخ صراع بين الطبقات، وفي هذا البيان أعرج على ذكر نتائج الرأسمالية التي وصفها بأنها وحشية لا إنسانية وأن العالم سيشهد تغيراً تحدثه طبقة العمال الكادحة. أكسب هذا الخطاب كارل ماركس مكانة في الفكر الاشتراكي لم يصلها أحد قبله[3]، ومع ذلك اعتبر راسل أن ماركس الاشتراكي هو رجل قد فشل في حياته خاصة في الفترة الأخيرة منها لأنه لم يقدم ما يثير العجب أو يستحق التقدير لدرجة أن فشله هذا لم يمس جوانبه الفكرية فقط بل تبعه حتى لحياته الأسرية وهو فشل

[1]– راسل برتراند: مثل سياسية عليا، ترجمة فؤاد كامل عبد العزيز، د.ط. ص 34

* الشيوعية: communism هي عقيدة سياسية اقتصادية، ترى بضرورة مركزية الدولة وتسييرها لكل النشاطات الاجتماعية سواء في المجال السياسي أو التربوي أو الصحي وخاصة الاقتصادي، وهي حسب ماركس وضع الإدارة وتسييرها في يد المجتمع حتى يتلاشى في ظلها كل تمييز بين الطبقات المختلفة وبين القرية والمدينة وبين الفلاح والرأسمالي.(مراد وهبة : المعجم الفلسفي. ص371)

[2]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 226–227

إنساني واضح، لهذا شَبَهَ راسل حياة ماركس بحياة " مستر مكوبر* " حياة مليئة بالديون والمشقة والعناء[1].

من التناقضات الواضحة في شخصية كارل ماركس هو ميله ودفاعه عن الطبقة الكادحة البروليتاريا رغم أنه كان ينتمي لأسرة مالكة بورجوازية، كل هذا جعل في داخله تضارباً عاطفياً وشعوراً بالكراهية والنقص الذي يظهر في موقفه اتجاه طبقات المجتمع الراقية والأكثر منه رفاهية ومكانة وسبب هذا النقص متولد عن انتماء ماركس لعقيدتين مختلفتين فقد كان يهودي الأصل مسيحي التربية.[2]

وبخصوص حضوره الفلسفي وهو أكثر اهتماماتنا فإن أكثر ما يعرف عن فلسفة ماركس هو نظريته فائض القيمة surplus value. وكذلك نظرية التطور التاريخي historicaldevlopment أو المادية الجدلية وهي عمل مشترك بينه وبين إنجلز، إذ تعتبر النظرية الأولى" فائض القيمة" ماركسية أصيلة فيها ما يقبل إذ ما تمت مقارنتها بالثانية التي اعتبرها راسل مزيج من عناصر مختلفة فهي من الناحية الميتافيزيقية تبدو لنا مادية، أما عن طريقة سيرها فهي تعتمد على جدلية هيجل كما تتميز بطابعها الاطرادي غير الأخلاقي، يقول راسل " وهذه التغيرات في المراحل هي نوع من الاطراد لا بالمعنى الأخلاقي"[3]، وفي حديثه عن سير التاريخ الإنساني تصوره ماركس تاريخاً يملئه صراع مستمر بين الطبقات والمجتمعات البشرية حول طرق الإنتاج والمصالح الاقتصادية وهو المتحكم في كل جوانب الحياة الإنسانية ولكن هذا التصور يتنافى مع الطبيعة الأخلاقية للإنسان لأن الاشتراكية لم تكن فلسفة ناتجة عن إعمال العقل بل

* مستر مكوبر: شخصية خيالية أبدعها الروائي والكاتب الانجليزي الكبير تشارلز ديكنز ليعبر عن صورة أبيه الذي فشل في حياته الاجتماعية.

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 228

[2]– المصدر نفسه. ص 233

[3]– المصدر نفسه. ص 236

هي نتيجة صراع طبقي خالص، وباعتبار أن راسل يحبذ الأفكار ذات الطابع الأخلاقي والإنساني، فإنه يراها غير صالحة كفلسفة بإمكانها أن تبني مستقبلاً صالحاً للإنسانية.

لم يكن الهدف من فكر ماركس وتنظيره الفلسفي هو وضع نظام اجتماعي جديد مكتمل من النواحي الأخلاقية والسياسية والإنسانية على العموم، بل كان مجرداً من ذلك تماما إنه يبحث عن البعد الاقتصادي في حياة الإنسان ليفسر به كل ما هو حاصل وحتى ما سيحصل في المستقبل القريب أو البعيد دون أن يعير قيمة للأسباب الأخرى التي تؤثر في المنظومة الاجتماعية للإنسان.[1]

المادية الجدلية كانت فكراً يؤمن بأن الإنتاج هو أساس كل بناء اجتماعي وأن طبقات المجتمع تنقسم وتترتب حسب طبيعته مع اعتبار أن التغيرات الاجتماعية التي شهدتها البشرية وحتى الثورات السياسية لم تكن خلفها عقول الفلاسفة بل هي وليدة العقول الاقتصادية، إن فهم تطور الإنسانية حسب هذه النظرية مرهون بالبحث في اقتصاديات الشعوب لا في فلسفاتها حتى أن الحكم على ما هو معقول أو غير معقول أصبح مرتبطاً بالإنتاج والمبادلات التجارية، لكن هذا النوع من التفكير[2] يدفعنا للتساؤل هل هو تفكير صالح من الناحية الفلسفية التي أغفلها ماركس وإنجلز؟

إن هذه النظريات الماركسية يجب أن تبقى موضع شك لأن الإيمان بصحتها وسلامتها غير ممكن إطلاقا كونها جعلت ماركس ينظر إلى التاريخ نظرة مثالية مجردة من الواقع، إنها نظرة فلسفية ميتافيزيقية لا يمكن تطبيقها بشكل عملي لذا كان من الأفضل على ماركس وأتباعه أن يتناولها بعيداً عن الميتافيزيقا الهيجيلية التي أبعدته عن الموضوعية والواقع.

---

[1]– المصدر السابق. ص 237

[2]– المصدر نفسه. ص 237–238

ينفي راسل كل اعتبار أو رأي يدعم تلك النظريات أو يراها مهمة وضرورية في العلوم الإنسانية خاصة أثناء الحديث عن علم الاجتماع حيث كشف في كتابه الحرية والتنظيم موقفه الناقد لها فقال " إلا أنني مع ذلك لا أستطيع أن أعتبر التنظير الماركسي صحيحاً كل الصحة أو أشعر بأية ثقة اتجاهه"[1] لأن المادية الماركسية لم تكن متماشية مع روح العصر ومع المفهوم الحقيقي للعالم وما فعلته كان مجرد الحديث عن مفهوم التاريخ وفق نظرة مادية لا غير دون أن تعير أي اهتمام لما يسميه راسل بالمادية الفلسفية التي اختفت في الفكر الاشتراكي بسبب تفسير الظواهر الاجتماعية بشكل اقتصادي خالص، وبهذا كان موقف ماركس اتجاه الفلسفة معادياً لأنها لم تهتم بالبعد الاقتصادي والإنتاجي كما فعلت الاشتراكية أو المادية الجدلية بالأخص إذ كان ماركس يردد قائلا " لم يفعل الفلاسفة سوى أن فسروا العالم بعدة طرق، ولكن المهمة الحقيقية للفلسفة هي تغير العالم "[2] بمعنى أن ماركس قد جعل من كل فكر تأملي فلسفي عقلي في قضايا تخص الحرية والحقيقة والأخلاق فكراً سلبياً معتقداً بأن التأمل الوحيد الذي يكون صحيحاً هو ذلك الذي من شأنه أن يغير الواقع ويجعل فهمنا للعالم صحيحا، لذلك فالمعرفة البعيدة عن روح الإنتاج لا قيمة لها. وهذا انطباع سلبي اتجاه المعرفة الإنسانية في فلسفة ماركس الاشتراكية.[3]

قد يقال عن الماركسية أنها نجحت كنظرية، ولكنها فشلت في الواقع لتصبح تطبيقاً فعلياً حتى أنها خلقت استبداداً وإبادة جماعية لا يمكن أن نتخيلها إطلاقا لأنها عطلت الحريات الفردية في ظل الدولة القامعة المتوحشة، كما أن معظم الذين أسسوا لها ودافعوا عنها كانوا غليظي الذهن أو أغرار وفاسدين أخلاقيا فالاشتراكية هي انعدام

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 238–239

[2]– المصدر نفسه. ص 239

[3]– المصدر نفسه. ص 240

للخيارات الفردية للإنسان إضافة إلى كونها مجرد اقتراح لا يمكن تحقيقه، لأنه مهما فعل ماركس أو إنجلز لن تختفي طبقات المجتمع ولن تظهر طبقة واحدة تتحكم في زمام الأمور الاقتصادية والسياسية.[1]

افترض ماركس بأن الصراع بين الاشتراكية الشيوعية والرأسمالية الليبيرالية ستكون له نتيجة واحدة وهي نهاية الرأسمالية فمن غير الممكن تصور نهاية أخرى وأن انتشار الفكر الاشتراكي حتى بعد دخول العالم في الحروب سيؤدي بعد أن تصل في نهايتها إلى دخول كل سكان الأرض في حياة عقلية فهل ستحقق الإنسانية هذه الغاية من خلال العمل بهذا الفكر الماركسي؟ هنا يستغرب راسل من هذا التفكير ليتساءل بطريقة أخرى " أليس من المؤكد تقريباً أن الباقين على قيد الحياة سيكونون في حالة من التذمر والوحشية التي لا يتصورها العقل يتقاتلون جميعاً من أجل أخر لقمة من الخبز؟"[2] بقوله هذا لا يرى راسل أي اختلاف بين جدلية ماركس وهيجل سوى أن ماركس كانت آراؤه أكثر ثورية خاصة من الناحية السياسية، أضف إلى هذا فإنه كان يسعى لقيام صراع طبقي ينتهي بطبقة واحدة ولكن هل سيكون هناك أي نمو للبشرية بعد هذا الصراع وكيف سيكون؟

حسب تحليل راسل فإن فكر ماركس سيجعل من البشرية تعيش في جدل بيزنطي وفي حالة واحدة ما أن تصل إلى تحقيق حلم هيجل حول الدولة البروسية حتى دون أن يعي ماركس ذلك لأنه ابتعد عن الفهم الصحيح للإنسانية عندما ربط كل نمو في الحضارة الإنسانية بصراع الطبقات ومصالحها الاقتصادية.[3]

---

[1]– تيري إيغلتون: لماذا كان ماركس على حق؟ ترجمة غانم هنا، دار الكتاب العربي بيروت،د.ط ،سنة 2013.ص 20-21

[2]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 242-243

[3]– المصدر نفسه. ص 243

كان لفلسفة ماركس الخاصة بالبلوريتاريا وجهة نظر ميتافيزيقية خالصة حيث أنها تجعل من الأشياء أو الموجودات التي حولنا جافة بدون معنى أو قيمة في ذاتها كما تضع رؤية مستقبلية قطعية ومطلقة، وهذا هو التنبؤ الخاطئ الذي لطالما انتقده راسل واعتبره من الأفكار والتصورات الخاطئة والمؤذية والتي سينتج عنها مستقبل غير إنساني، إن أفكار ماركس هذه لن تجعل من الاشتراكية فلسفة المستقبل البشري، يقول راسل " لا شأن للميتافيزيقا مطلقاً في مستقبل الاشتراكية والشيوعية وهل ستعم العالم يوما ما أو لن تعمه "[1] لأن تصور ماركس للصراع الاقتصادي لم يكن صحيحا وسبب ذلك أنه انحصر بين طبقات معينة في حين أن الحقيقة أكبر من ذلك إنه بين الأجناس والثقافات والأمم والشعوب وفي نفس الوقت لا يعترف راسل بنظرة ماركس لطرق الإنتاج التي تلغي العنصر الإنساني الحقيقي وهي الأفكار التي يعتبرها السبب الرئيس وراء كل تغير في أشكال العمل، ومنه فمن المستحب على أن تكون قيمة الإنسان أفضل من قيمة الإنتاج ويعني راسل الإنسان كفرد لأن الأفكار حسبه لا تولد نتيجة الظروف الاقتصادية فقط بل لها الحرية في أن تولد في أي لحظة شاءت فيها ذلك لأن جوهرها هو الحرية التي يبحث عنها الإنسان. وبالتالي فإن فكر ماركس قيد التفكير والإبداع بالحاجة الاقتصادية وفقط وهذا تفكير مُعَطل لحركية العلم لم يُعْط للجانب الذهني أهميته التي يستحقها.[2]

أما فيما يخص نظريته في فائض فإنها تعني أن كل عامل ينتج من السلع ما يتساوى مع قيمة أجره في جزء من ساعات العمل التي يقوم بها وهي نصف المدة بينما الساعات المتبقية فهو يعمل لينتج سلعاً يراها ماركس ملكاً لصاحب رأس المال رغم أنه لم يشارك فيها بشيء إذ يرى ماركس أن العامل ينتج أكثر مما يؤجر عليه وهذا الإنتاج

[1]– المصدر السابق. ص 244

[2]– المصدر نفسه. ص 246

الإضافي هو ما يسميه فائض القيمة ومنه تأتي الأرباح والإيجار والضرائب أما الأجور فتدفع من ساعات العمل الأخرى.

يصف راسل هذا المبدأ الماركسي بالتقليدي فقد سبقه في الإشارة إليه ريكاردو[1] وهو غير صحيح، لأن فيه الكثير من التناقضات أولها أنه غير أخلاقي لأنه عندما تحدث عن مفهوم القيمة ربطها بتعريفين يفهمان من سياق تحليله لهذه النظرية وربما ماركس نفسه لم ينتبه لهذا، فهي تعني في المقام الأول أن مقدار قيمة أي سلعة مساوية للمجهود المبذول الذي يتطلبه إنتاجها وهذا الافتراض غير صحيح ويجعل نظريته هذه تافهة، أما المعنى الثاني فقد يكون أخلاقياً ويعني أن أي سلعة ينبغي أن تتبادل بنسبة العمل الذي يستلزم إنتاجها وهذا يجعل منها نظرية اقتصادية مثالية ليست بالإمكان أن تتحقق، ومثل هذه الأفكار حسب راسل لا يمكن أن تفيد الإنسانية لبعدها عن الواقع والتطبيق .[2]

خلق ماركس بتعاليمه هذه حرب الطبقات التي تنبأ بها وأحدث تفكيره عدوانية بين طبقات المجتمع الاقتصادي الحديث، كانت دعوته للاشتراكية ونظرياته التي سبق ذكرها هو الذي أقام العداء الاقتصادي، لهذا يُرْفَضُ بشكل قطعي أن نعتبر ماركس كما يراه البعض نبياً من أنبياء العصر الحاضر فقد كان رجلاً مملوءاً بالحقد والكره وهذا يجعل كل ما قدمه لنا من أسس غير صالح للدراسة، لأن الماركسية لم تكن تسعى لنشر روح التسامح بين فئات المجتمع بل هي التي بثت في روحها فكرة العداء، يقول راسل عنها " إن الماركسية عملت على بث روح الكراهية في نفوس البروليتاريا " وهذا بسبب أنها وسعت فكرة الثورة وصدقت بأن الإنسانية على المحك إذا لم تتحصل الطبقة

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم. ص 250

[2]– المصدر نفسه. ص 253

الكادحة على الحكم من الأغنياء الذي يسيطرون على مجريات الحياة الاقتصادية.[1] ولكن مع ذلك فإن راسل قد كان حادا في نقده للماركسية ربما قد يعود هذا إلى دفاعه عن الليبرالية و كأنه صراع بين شخصين ينتميان لأيديولوجيتين مختلفتين الليبرالية التي يمثلها راسل و الاشتراكية الشيوعية التي مثلها ماركس، فلولا تعاليم الماركسية وموقفها الحاد من الليبرالية لما أعادة الرأسمالية النظر في أكبر مبادئها ولما خلصت العمال من السيطرة التي كانت قد فرضتها عليهم في مطلع القرن 19.

عمد راسل على رفض الفلسفة الماركسية بشكل كبير وكان سبب هذا تلك الخطابات اللاإنسانية التي رددها ماركس ففي إحدى خطاباته سنة 1846 قال ماركس " الحب لم ينجح في تحسين الأوضاع الاجتماعية مدى 1800 عام وأنه لا يولد القوة الفعالة اللازمة للعمل " وهذه إحدى الأفكار غير الإنسانية التي أنشأتها نظرته للحياة الاجتماعية، وكأن الكراهية حسبه هي أكثر الانفعالات الإنسانية الدافعة للعمل وهو أمر مرفوض يتنافى بشكل كلي مع القيم الأخلاقية للعمل ومع المبدأ الصحيح للعدالة الاجتماعية.

إذا كانت الكراهية ضرورية للحرب فإنها لن تكون المبدأ السليم لبناء المجتمعات من أي ناحية كانت، يقول راسل " لم يكن ماركس بالشخص الذي يغمر قلبه الحب بل الحقد والضغينة تشبعانه "[2] أثرت الفلسفة الاقتصادية والاجتماعية التي جاء بها ماركس في الذين اتبعوا الماركسية بعده وهم مجموعة طبقات نزعت دائماً نحو روح الحرب والكراهية ، لأن أراء ماركس عندما انتشرت في أوروبا خلال القرن 18 كانت من الأسباب التي جعلت النزعة الفردية التحررية تنتهي ليحل مكانها الخوف والتضرع

[1]– المصدر السابق. ص 268–269

[2]– المصدر نفسه. ص 270

فَسَرَعَةْ من وتيرة التصادم الطبقي ما أدى لانعدام الأمان والسلم في الروح الإنسانية فالنفس التي لا تعرف السكينة الداخلية ستكون سبباً في جر المجتمع نحو اللامبالاة بما ينتج عن الحرب أو الصراع وهكذا كانت روح ماركس مملوءة بالظلام والسواد.

في الجزء الثالث من كتابه تاريخ الفلسفة الغربية تطرق راسل للحديث عن فلسفة ماركس ليس كرجل اقتصاد بل كفيلسوف بالمعنى الحقيقي للكلمة إذ وجد في فلسفته أفكاراً خطيرة جداً لأن ماركس عندما تعمق في قضايا عصره جعل من نفسه إنساناً ذا أهمية كبيرة في هذا العالم، فآمن بأنه يجب على الطبيعة البشرية أن لا ترى نفسها سيدة الكون لوحدها بل يجب دائماً أن تتخذ من العمل أداة تحقق بها سيطرتها الطبيعية والاجتماعية لأن الفشل الذي يصيب المجتمع من ناحية الإنتاج سيعود عليه بالآثار السلبية، وهذا التصور سيطر عليه تارك الأثر الكبير الذي يظهر في آرائه المفعمة بالمادية.

ويعتبر راسل أن كل فيلسوف لا يتخلص من هذه النظرة لا يمكن أن يؤسس فلسفة صحيحة أو جديرة بالثقة، يقول راسل " إن كل إنسان يفشل في استيعاب هذه الحقيقة لا حق له في أن يدعو فلسفته علمية إنسانية"[1] لأن تقدير الذات بشكل مفرط والإيمان بأن الموقف الذي نتبناه هو الأصح من غيره سيجعلنا في الأخير أيديولوجيين متعصبين لنمطيتنا الفكرية ولعصبية الجماعة وتطرف العرق وعنصرية اللون والدم.

ركزت الماركسية على الجوانب الاقتصادية في كل مجريات الحياة الاجتماعية والسياسية دون مراعاة للقيم الأخلاقية والتربوية ألم يكن بإمكان ماركس أن يقدم نظرية في التربية الاقتصادية والعمل ربما لم يعتقد ماركس بفائدة العلوم الأخرى في تصويب

[1]– راسل برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية الجزء 3، الفلسفة الحديثة، ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطى، الدار المصرية العامة للكتاب،د.ط، سنة 1988. ص 435

ذواتنا، وهذا ما دفعه لتقديم تصوره الخاطئ لمساءل الحياة الذي جاء نتيجة ايمانه بأن المستقبل الاشتراكي للعالم هو الذي سيخلق الاعتبارات الأخلاقية، وأن العمل على تأسيس أي نوع من القيم الإنسانية والأخلاقية والتربوية قبل حصول ذلك لن يكون ممكناً،[1] ومع ذلك فإنه لا يجب أن نوافق موقف راسل هذا لأن ماركس كان أشد المدافعين عن حق التعلم حتى يستطيع هؤلاء التحرر ومعرفة حقيقة الأنظمة التي تسيير مجريات الحياة في دولهم وهذه ضرورة التعليم حسبه.

واصل راسل نقده الشديد لكل المذاهب الاشتراكية وليس الماركسية فقط أو اشتراكية الدولة عند ماركس مثل نقده للفوضوية التي أسسها باكونين في روسيا والتي يصفها بأنها اشتراكية الفشل والخمول واللامسوؤلية التي لا يمكنها أن تحقق أغراض المجتمع الحديث، فرغم أن الفوضوية كانت مذهباً حريصاً على تحقيق الحرية والسعادة وهو الشيء الوحيد الايجابي فيها، لكنها في الأخير ستجعل المجتمع يعيش الخمول والركود. فإضافة عنصر البهجة كما تصوره باكونين على حياة العمال لن يحقق السعادة التي لن توجد دون تحقيق حاجات العامل المختلفة وتخفف عنه مشقة العمل، أما عن اشتراكية الدولة عند ماركس كانت أكثر ضرراً لأنها ستكون عائق أمام التقدم في مختلف مجالات الحياة النفسية كونها تستغل الحريات الفردية وتطمسها في إطار الجماعة، كما أن التدخل الدائم للدولة في شؤون الفرد هو نوع من الحدود والأغلال التي رسمت على الإنسانية.[2]

إن مركزية الجهاز الحكومي المفروضة على الأفراد حسب راسل يجب أن يكون في حدود ضيقة وهي الحرص على عدم تجاوز القانون وانتشار الفوضى حتى لا يؤذي

[1]– المصدر السابق. ص 436

[2]– رمسيس عوض : برتراند راسل المفكر السياسي، سلسلة مذاهب وشخصيات، ط1، سنة 1966. ص 32

الفرد غيره، لأن الطبيعة البشرية في الكثير من الأحيان تندفع نحو ما هو غير إنساني ولا سبيل لكبح هذه الدوافع سوى بوجود القانون خاصة تلك الدوافع المتعلقة بتلبية رغباته، إن تركيز السلطة في يد الدولة خاصة من الناحية الاقتصادية والنقل والمواصلات هذا حسب راسل ضد للحرية الفردية ولقدرات الفرد الإبداعية والخلاقة.[1]

كل مركزية للدولة سواء في ظل الديمقراطية الاشتراكية أو الرأسمالية شر كبير يجب الحذر منه لأنها تجعل الفرد يشعر بهوة كبيرة بينه وبين النظام القائم أو الدولة بتعبير آخر،هذا الشعور يولد في نفسه انعدام الثقة في أجهزة الدولة وسيحرك داخله عاطفة الكره والحقد التي تصاحبها رغبة الدخول في الثورة، لهذا يجب رفض منطق الاشتراكية القائل بأن زوال الرأسمالية هو الذي سيؤدي إلى خروج الإنسانية من دائرة الحروب ورغم أن النظام الرأسمالي كذلك يسعى لفرض نفوذه الاقتصادي بكل الوسائل المتاحة لكن هذا لا يجعلنا نثق بالمعسكر الشرقي وقدرته على حل المشاكل ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.[2]

حملت الماركسية الكثير من الأفكار الفاسدة والخاطئة التي أسست للبيروقراطية والفساد لأنها أعطت للدولة أهمية على حساب الحياة الفردية ووجودها ومصلحتها فمصلحة النظام أهم من حياة الأفراد، لهذا كان سعي ماركس للوصول إلى الدولة الاشتراكية من خلال تأسيسه لطبقة البروليتاريا أمراً مبالغا فيه فمنطق ماركس القائل بالتفسير المادي للتاريخ لن ينجح كونه مجرد فلسفة مادية لا تهتم بالأبعاد الروحية والأخلاقية في العمل الاقتصادي، فحقيقة التغيير لا تكون دائماً بالجدل الذي يتصوره أصحاب المادية التاريخية من أمثال ماركس وإنجلز.

[1]– رمسيس عوض : برتراند راسل المفكر السياسي. ص 33

[2]– المرجع نفسه. ص 34–35

يرفض برتراند راسل نظرة ماركس للإنسان وعلاقته بالمجتمع الذي ينتمي إليه فقد كان هذا الأخير على خطأ عندما اعتبر أن الإنسان دائما يمتاز بعاطفة الولاء والخضوع فهذه فلسفة تجعل الإنسان مجرد كائن يهدف في حياته بأكملها إلى كسب المال فتصبح كل أفعاله وسلوكياته تفسر حسب الطبيعة المادية وهو ما يمكن تسميته باللاعقلانية في فكر ماركس،[1] ولهذا انكشف لراسل أن ماركس فكر في نسق اجتماعي كلي لا فردي فالتصدي للنظام الاقتصادي الكلي هو الذي يصنع التغيير لذا لا يجب الاهتمام بالأمور الجزئية كالأفراد وطبيعتهم النفسية أو العقلية والعاطفية. تبقى الماركسية تفكيراً جدلياً ينظر إلى القوة كمحرك للمجتمع والتاريخ الإنساني إنها نظرة فلسفية ربطت الأبعاد الروحية للإنسان وتطورها بأساليب الإنتاج وأشكاله، كما أن نظام الإنتاج الذي تحدث عنه ماركس يؤدي إلى التناقضات وبالتالي سيفضي إلى حرب طبقية ستستمر لأوقات طويلة وستعاني الإنسانية مرارة أخرى وتسلطاً جديداً يكون بين الجماعات أكثر من كونه بين الأنظمة وشعوبها.

فلسفة ماركس هذه تولدت من إيمانه بأن الصراع الطبقي سيبقى حتى ينتج في الأخير مجتمع عادل لا طبقي وبعد أن تصل الإنسانية إلى تحقيق هذا يتوقف النزاع وتستقر الحياة الاجتماعية، وكأن جنة الأرض عند ماركس هي إقامة المجتمع غير الطبقي وهذه النظرة للتاريخ تبقى مجرد رؤية ميتافيزيقية تفتقر للحجة المنطقية المقنعة أو للتطبيق الفعلي والايجابي.[2]

ولعل أكثر عيوب الماركسية أنها كانت تأخذ بالنظرة المادية للمذاهب الفلسفية المعاصرة التي شهدها القرن 18 ولقد أبعد تفكيرها الحقيقة على أن تكون مسألة متعلقة

[1]– المرجع السابق. ص 56–57

[2]– راسل برتراند: حكمة الغرب، الجزء الثاني، ترجمة فؤاد زكرياء، سلسلة عالم المعرفة،د.ط، سنة 1938. ص 169

بالتأمل وإعمال العقل البشري وكأن الوصول إلى اليقين في هذا العالم هو شيء من الممارسة وإذا أردنا أن نصل لتلك الدرجة من التأمل فما علينا سوى أن نؤمن بنزعة اشتراكية لا طبقية.

أما بخصوص الجانب العلمي للفلسفة الماركسية فإن له وجه من الصواب وآخر من الخطأ فقد أصاب ماركس عندما ربط المصالح الاجتماعية بالاهتمامات العلمية العامة للمجتمع ككل، وفي نفس الوقت يبقى العيب الظاهر في هذه النظرية أن المشكلات التي تتولد في العلم لا ينبغي أن ترتبط بالضرورة مع أشكال الحياة الاجتماعية وأزماتها فليست كل مسألة علمية هي علاج لحاجات اجتماعية معينة فضعف هذه النظرية متولد عن كونها لم تعترف باستقلالية العلم وقوته، وكأن حركة العلم حسب ماركس تتناسب مع حركة الضغوطات الاجتماعية المختلفة إن قوة العلم حسب راسل لها ما يدفعها ويجعلها مستقلة بموضوعها ومنهجها، فموقف ماركس كان محاولة لجعل العلم تحت سيطرة المجتمع وإرادته وما يقال على العلم يقال على جميع مستويات الحياة الإنسانية وبهذه السيطرة تفقد النظرة العلمية صفتها الموضوعية ونزاهتها.[1]

لقد ربط ماركس كل تقدم إنساني بنظرياته المختلفة في الإنتاج والعمل فلا يقال على الإنسان الذي لا يؤمن بوجهة نظره الاقتصادية متحضراً أو متقدماً بنحو صحيح وكل من لا يؤمن بالنبوءة الماركسية يصفه الماركسيون بالإنسان الرجعي التخلفي أي الذي لم ينزل عليه الوحي الجديد، وهذه الحجة هي التي تبرر استعمال العنف في كل عملية تغيير للواقع الإنساني وهنا تبدو فلسفة ملونة بنوع من العقيدة أو النظرة المذهبية

[1]– المصدر السابق. ص 170

المتشددة، إنها فلسفة من ليس منا فهو علينا وهذا المبدأ مناف بشكل كلي للقيم الديمقراطية وللحرية الإنسانية للمجتمعات الحديثة.[1]

كلُ هذا يقدم ماركس بصورة سلبية ويجعلنا نقول أنه ليس مفكراً سياسياً مصلحاً لتلك الدرجة التي تصوره بها البعض من أتباعه إن معظم كتاباته كانت من أجل التحريض على الفوضى والعنف والصراع، يصف راسل مؤلفات ماركس بأنها مزيج من السخط والاستقامة الأخلاقية بل هي بعيدة عن المنطق والتفكير السليم فقد كانت تدعو إلى تغيير الأوضاع الاقتصادية والسياسية من خلال القوة و العصبية الجماعية، وهذا تعبير عن عاطفتي الكره والبغض التي سادت معظم المجتمعات في القرن 18 والتي دامت آثارهما حتى فلسفات القرن 19 حيث أصبحت تفسر معظم الأفكار والنظريات والظروف والأحوال الاجتماعية بالأبعاد الاقتصادية السائدة وهو نفس ما آمنت به البرغماتية كفلسفة جديدة.[2]

هل فشل ماركس في تنبؤاته المستقبلية ؟ خاصة تلك التي تكونت من خلال نظريته في الجدل وتطور التاريخ إن إيمان ماركس بفكرة المنافسة الحرة وإمكانية تكوين احتكارات ولد نظرته الاقتصادية التي نجم عنها خطؤه في افتراض أن الأغنياء يصبحون أغنى والفقراء يصبحون أكثر شراً وكرهاً، وبالتالي فإنه ربط كل الطبيعة البشرية بالبعد الاقتصادي فقط وتتواصل هذه الطبيعة بين الفقراء والأغنياء حتى تنشب في النهاية الثورة في كل البلدان التي تتميز بالصناعة والإنتاج. ولكنها كانت في الحقيقة تنبؤات بعيدة على أن تكون صادقة خاصة في أوروبا وبالتحديد الجزء الغربي منها ولكنها أصبحت ممكنة في المناطق الزراعية مثل روسيا آنذاك.[3] ولكن مع ذلك

[1]– راسل برتراند: حكمة الغرب، ج2. ص 171

[2]– المصدر نفسه. ص 172

[3]– راسل برتراند: حكمة الغرب، الجزء الثاني. ص 173

صدق أكبر تنبؤاته حول خطر الرأسمالية الذي نراه اليوم ظاهر في قمع النظام الأمريكي لدول العالم و لفرض هيمنته على العالم و اتساع الهوة بين القوى الغنية والمستضعفة وهذه حقيقة انتبه لها ماركس وحذر منها طوال فترة حياته.

إن ما جعل فلسفة ماركس ذات تأثير كبير خاصة في القرن 19 ليس طابعها الإنساني، بل هو نظرتها الدينية الطوباوية وطابعها العنصري العدائي المحرض على الثورة والداعي إليها، كما أن فلسفته لم تكن أصيلة بل هي تتضمن مزيج من الهيجيلية وحتى البعض من أفكار كروتشه ما لعب دوراً كبيراً في بلورة فكره خاصة عندما وصف التاريخ بأنه المسار إلى الحرية وقد أدى التصديق بهذا النوع من التفكير حسب راسل إلى خلق العديد من الأزمات في العلاقات السياسية والاقتصادية أزمات نجمت عن أنظمة وثقة في الماركسية بالشكل المطلق.

الماركسية ليست سوى فلسفة رسمت حدوداً للفردانية واستقلاليتها كونها آمنت بأن التأسيس الفعلي للأخلاق وللمنظومة السياسية السليمة يكون بإبعاد الرغبات الإنسانية والحد منها ومن كل المصالح الذاتية الخاصة للفرد،[1]إن روح الاشتراكية التي جاء بها ماركس لم تكن ذات مبادئ قوية ودليل ذلك أنها فقدت الكثير من قيمتها بعد فترة وجيزة من وفاة ماركس حيث أصبح الاشتراكيون أصحاب نظرة مستقبلية ذاتية يسعون إلى تقلد مناصب سياسية مرموقة وإلى الانضمام للبرلمانات الحكومية بعدما كان هدفهم الأول هو الدفاع عن الطبقة الكادحة واسترجاع حقوقها المسلوبة، إن الغاية الحقيقية من الدولة الديمقراطية لا يمكن أن تجد سبيلها في ظل الاشتراكية الماركسية أو غيرها

[1]– المصدر نفسه. ص 173–174

لأنها نظام ينزع القوة من يد طبقة ليضعها في يد طبقة أخرى بدون مراعاة للمصلحة العامة أو بدون تصور طبقي ما.[1]

كانت غريزة النفوذ الاقتصادي المادي وحب السيطرة أكثر الأهداف التي ملئت فكر ماركس وأصبحت العامل المسيطر على نشأة الحرب أو الصراع بين طبقات المجتمع الحديث أو بين الشعوب وأممها، وبذلك لن تكون الغاية من الثورة هي الإصلاح بل هي تحطيم الأنظمة الاقتصادية من أجل دوافع اقتصادية وهو الأمر الذي جعل راسل يشك في أن فلسفة ماركس أو الدولة الاشتراكية لها مساع ودوافع إصلاحية عالمية. فقد كان راسل مناهضاً للماركسية ولكل مبادئها لأنها مجرد فكر عدائي حاول طمس الحريات الفردية في ظل الجماعة، إنها فلسفة طبقية قدست العامل اليدوي وكرهت العامل المشتغل بفكره ظناً منها بأنه وليد البرجوازية والأستقراطية، وفضلاً عن كل هذا تبقى فلسفة غير تقدمية بالشكل الإنساني المناسب لأن التقدم والرقي الذي رسمته في ذهنية المجتمع وفي روح البروليتاريا كان من خلال عاطفتي الحسد والحقد ما فتح باب الطغيان الذي عايشته الفردانية جراء الاستغلال الذي يقوم به أولئك الذين يشكلون جماعات مختلفة تحت شعار المصلحة العامة والتغيير.[2]

إن التأسيس الأمثل للقيم الأخلاقية حسب راسل مخالف تماماً لفلسفة ماركس لأن راسل لا يؤمن بأن العمل والإنتاج أو الثمن هو الذي يحدد القيمة الأخلاقية للفعل الإنساني.

تراجعت الإرادة الفردية في ظل الفلسفة الماركسية وآرائها الممجدة لسلطة الدولة ومركزيتها إنه نظام تعسفي يخضع سلطة المنتج الفرد إلى سلطة الحكومة وقراراتها أين

[1]– راسل برتراند: مثل سياسية عليا، مصدر سابق. ص 36

[2]– المصدر نفسه. ص 41

تحدد أهداف الإنتاج وأبعاده بشكل مسبق، وبالتالي لن تكون للحرية الفردية أي غاية وهذا من خلال إيمانه مع صديقه إنجلز بأن كل شيء مبني على المنافسة الاقتصادية المخطط لها من قبل الدولة بحيث لا يكون الفرد سوى مطبق لإرادتها وبرنامجها.[1]

أدخلت أفكار ماركس الطبقات الكادحة والمتوسطة في صراع مرير فقدت فيه الكثير من الأرواح ولم يَجن الاشتراكيون منه سوى المعاناة والألم شهدت هذه الحركة ثورات مختلفة كتلك التي حصلت في شهر يونيو 1848 وسميت بثورات الربيع الأوروبي والتي جعلت من طبقة البروليتاريا تفقد صورتها في الساحة السياسية ولم يصبح لها ظهور سوى في أوقات قليلة، ولكن رغم ذلك بقي ماركس مندفعاً إلى مثل هذه المعارك مدفوعاً بالاعتقاد القائل " البروليتاريا سيهزمون البورجوازية في آخر الأمر كما هزمت البورجوازية نبلاء الاقطاع في ثورة 1830".[2]

أكبر خطأ وقع فيه ماركس أنه لم يفهم الطبيعة البشرية بالشكل الصحيح إذ لم يقدر قوة النزعة القومية حق قدرها ولم يكن مدركاً بأن كره الطبقة البروليتارية للأجانب هو كره مدفوع من الناحية القومية وهو أقوى أحياناً من كرههم لأصحاب المال والأغنياء من الطبقة البرجوازية، ففي عام 1914 حدث أن الماركسيين انسلخوا من مبادئ الماركسية الأولى وأطاعوا أوامر الدولة الرأسمالية في عنصريتها اتجاه الأجناس الأخرى مثل السود والصفر متناسين بذلك كل صراعاتهم الطبقية من أجل تحقيق الغاية القومية وعاطفة الانتماء.[3]

رغم معارضة راسل للفلسفة الماركسية وآراءها الاقتصادية والفلسفية إلى أنها تبقى فلسفة جديرة بالاهتمام خاصة فكرة تدخل العامل الاقتصادي في حركية المجتمع

[1]– راسل برتراند: الحرية والتنظيم، مصدر سابق. ص262

[2]– المصدر نفسه. ص 263

[3]– المصدر نفسه. ص 264

وتطوره، كما أن له مجهوداً كبيراً في تبيان ضرورة وجود الدولة في كل الأنشطة الإنسانية خاصة في النشاط الاقتصادي ويرى بأن هذه الأفكار يجب ألا تبقى مرتبطة بالفلسفة الماركسية الاشتراكية بل عليها تعم العالم كله.

وسنختم حديثنا عن القراءة النقدية التي قدمها راسل لماركس بقول: "ومبادئ ماركس، كمبادئ غيره من الناس بعضها سليم وبعضها غير سليم وفيها الكثير مما يمكن المجادلة فيه ولكن نظريته تتضمن مسائل ذات أهمية قصوى تثبت أنه رجل على قدر كبير من الذكاء".[1]

قدم راسل انتقاده لأحد أكبر المذاهب الفلسفية التي عاصرها وعاصر أكبر ممثليها وهي البرغماتية أو الفلسفة الأمريكية وبالخصوص فلسفة جون ديوي John Dewey 1859-1952 ووليام جيمس William James 1842-1910، عرض راسل موقفه من أراء ديوي في الجزء الثالث من كتابه تاريخ الفلسفة الغربية حيث اعتبر الفيلسوف ديوي القائد الحي للفلسفة الأمريكية واستهل حديثه عن شخص هذا الرجل بأنه يكن له كامل التقدير والاحترام خاصة فيما يخص آراءه التربوية لأنها كانت أكثر القضايا التي شغلت فكره وميزت كتاباته، وفي هذا الصدد يعترف راسل بأنه لم يصنع لنفسه في هذا المجال المكانة التي حضي بها ديوي في المجتمع الأمريكي.

لخص ديوي أهم نظرياته التربوية في أشهر مؤلفاته "المدرسة و المجتمع"1899 مع ذلك كان لهذا الفيلسوف وجهة نظر خاصة متميزة في المسائل الاجتماعية والسياسية فقد كان رجلاً فضولياً يسعى لفهم المجتمعات التي عاصرها ما جعله يزور عدداً كبيراً من الحكومات مثل روسيا والصين ، وخلال هذه الزيارات التي قام بها تبنى

[1]- المصدر السابق. ص 270-271

ديوي الكثير من الآراء السلبية خاصة عندما مكث لمدة في الاتحاد السوفياتي وهي الفترة التي جعلته يعتنق الكثير من مبادئ الفلسفة الهيجيلية.[1]

كان جون ديوي من الفلاسفة الذين برز اعتراضهم على الحرب العالمية الأولى وعلى حكم ستالين في روسيا مؤكداً أن الوضع في الاتحاد السوفياتي لم يكن ليصبح سلبياً وفوضوياً لو أن تروتسكي*1879-1940 كان الخليفة لحكم لينين*1870-1924، واقتنع ديوي بأن الثورة والقوة التي آمن بها الديكتاتوريين السوفيتيين ليست أبداً الطريقة المثلى لبناء المجتمع الإنساني الأحسن ومن بين أهم مواقف ديوي المعروفة أنه لم يكن ماركسياً بل كان على درجة كبيرة من الليبرالية وهو الأمر استحسنه راسل كثيراً وأحبه. تكمن الأهمية الأساسية لعمل ديوي الفلسفي في آراءه عن الحقيقة خاصة نقده لتصورها التقليدي والذي عرضه في فلسفته التي أسماها "الأداتية" فقد كان الفلاسفة قبل ديوي يملكون تصوراً واحداً للحقيقة وكان الجميع يراها ثابتة مطلقة خالدة سواء في صورتها الدينية أو الرياضية التي عرفت منذ أفلاطون أنها تشكل النموذج الأول للحقيقة الثابتة والمجردة، أما عن صورتها الدينية فقد كانت تربطها بتلك القوانين التي تم تحديدها من قبل قوة مطلقة تتجاوز حدود العقل البشري وإدراكاته، لم يؤمن ديوي بهذه التصورات فهو يرى المعرفة الإنسانية وحتى الحقيقة تطورية لا ثابتة بمعنى أن كل معارفنا تمتاز بطابعها الديناميكي الحيوي وأن المعرفة الإنسانية في تزايد

[1]- راسل برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية ج3، مصدر سابق. ص 479

* ليون تروتسكي: كان اسمه الحقيقي ليف دافيدوفيتش برونشتاين هو ماركسي بارز وأحد كبار زعماء ثورة أكتوبر في روسيا عام 1917 إضافة إلى الحركة الشيوعية العالمية في النصف الأول للقرن الماضي، ومؤسس المذهب التروتسكي الشيوعي بصفته إحدى فصائل الشيوعية الذي يدعو إلى الثورة العالمية الدائمة، وتسلم بعدها مفوضية الحرب، وهو أيضاً مؤسس الجيش الأحمر ، وقوى من خلالها كيان الجيش الأحمر، كما أنه عضو المكتب السياسي في الحزب البلشفي إبان حكم لينين، غتياله في سنة 1940 بالمكسيك.

* لينين: فلاديمير أليتش أوليانوف المعروف بـ لينين، كان ثوري روسي ماركسي وقائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي رافعاً شعاره الأرض والخبز والسلام.

مستمر وتدريجي مخالفاً بذلك كل من يرى بالطابع النهائي لها، ورغم تأثره الظاهر بفلسفة هيجل خاصة في مرحلة شبابه لكن ديوي كان مختلفاً لأنه يرى كل واقع بشكل زماني وأن كل تقدم للمعرفة الإنسانية لن يصل بها لتلك الأزلية التي صاحبت فكر هيجل وماركس وفلسفتهما في التاريخ والاقتصاد.[1]

تجعل فلسفة ديوي من الحقيقة أمراً مرهوناً بالآثار التي تنجم عن الفعل الإنساني في المستقبل، وكأنه نوع من التنبؤ القبلي السابق للواقع البشري وهنا يكون الصدق والكذب الإنسانيين مرهونان بأحداث المستقبل، وهذه نتائج مرتبة بعيداً عن القدرة الإنسانية التي تبدوا حسبه بحثاً عن الإجابات التي تمتاز بالرضا والقبول وكأن الطبيعة البشرية باستطاعتها الابتعاد عن الوقائع المستعصية كأنها أداة مبرمجة تمتلك التأثير على البيئة بوجهة نظرها المناسبة.[2]

وهذا يجعل منها فلسفة ترتكز على القدرة ورغم أنها تختلف عن القدرة الفردية النتشوية*، إلا أنها تحمل طابعاً جماعياً رأت أنه يمكنها من السيطرة على قوى الطبيعة أكثر دون النظر لتلك القيود التي تعترض هذه السيطرة. كان لموقف الإنسان اتجاه الطبيعة عبر التاريخ وجهة نظر واحدة تربط الحقيقة بعيداً عن نطاق الإنسانية، أما عن فلسفة ديوي فهي تتناول ثلاثة عناصر أساسية وهي: العنصر البرغماتي للتأكيد على قيمة الفعل وأكثرها سوءاً هو تشبعها بالفكر الهيجيلي خاصة عندما كان يؤكد بأن الهدف الأول والنهائي لكل عملية بحث يجريها الإنسان هو الوصول إلى الكل العضوي أو الموحد، ومن خلال هذه النظرة تصبح كل الأحداث والخطوات التي نعتمدها في

[1]– راسل برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية ج3. ص 479–481

[2]– المصدر نفسه. ص 488

* الفردية النتشوية : وتعني النظر إلى الفرد بصورة ذاتية تملك الوعي بكل ما يوجد حولها، مع اعتبار الفرد العامي أو الجمهرة مجرد محاكاة وتكرار ليس له أي معنى لأنها تدعوا للصبر والثبات، وأما الإبداع فهو وليد القدرة الفردية الكامنة في داخلنا، إنها إرادة القوة.

تحقيق هذا الكل عبارة عن أدوات توصلنا إلى ذلك الهدف، وهذه النظرة الأداتية instrumental يستحيل أن نبلغ من خلالها الحقيقة الإنسانية لأنه من غير الممكن أن نبلغ أهدافنا فقط من خلال العمل على تجاربنا الخالصة وهو ما انتبه له البرغماتي المعتدل بيرس في نهاية حياته.[1]

عندما اطلع راسل على فلسفة ديوي خاصة تلك التي تركز على فكرة القدرة انتقد معظم أتباعه ومناصريه الذين اعتبروا فكره بمثابة ثورة حقيقية قامت بها الطبقة الوسطى، لدرجة أنهم رأوا فيما قدمه ديوي عملاً عظيماً يعادل ضخامة الثورة الصناعية وهذا حسبه استنتاج مبالغ فيه لحد كبير ومع ذلك فإن راسل احترم فلسفة هذا الرجل بشكل كبير فقد قال عنه " إن لدى ديوي نظرة حيثما تتميز، تتناغم مع عصر الصناعة والعمل الجماعي، وطبيعي إن أعظم إغراء فيه للأمريكيين، ويكاد تقدره أيضا العناصر التقدمية في بعض الأقطار كالصين والمكسيك".[2]

نظرة راسل هذه كانت نابعة من أنه يرى كل فيلسوف يجب أن يرتبط بالمحيط الاجتماعي وجميع الفلسفات ترتبط هي الأخرى بالبنية الاجتماعية لهذا ربط ديوي أفكاره بالمجتمع الأمريكي كغيره من الفلاسفة وكان هذا الربط نتيجة إيمانه بأن البعد الاجتماعي له أثار في تشكيل خلفية الفيلسوف وإنتاجه الفكري، لكن هذه الرؤية أثارت غضب ديوي كثيراً وهو ما لم يتوقعه راسل على الاطلاق من هكذا رجل، فما حدث أن ديوي لم يفهم قصد راسل إطلاقاً مما جعله يرد عليه بطريقة وصفها راسل بأنها كانت جد مؤلمة مقارنة بما كان يتوقعه من فيلسوف كمثل ديوي حيث كان رد ديوي بالشكل التالي "إن عادة راسل المؤكدة في ربط النظرية البرغماتية في المعرفة بالجوانب الذهنية

[1]– راسل برتراند: حكمة الغرب ج2، مصدر سابق. ص 209

[2]– راسل برتراند: تاريخ الفلسفة الغربية ج3، مصدر سابق. ص 489

للنزعة الصناعية الأمريكية هي أشبه بما لو كنت ربطت فلسفته باهتمامات الأرستقراطية الإنجليزية من ملاك الأراضي"،[1] لم يرَ راسل فيما قاله عن ديوي أي خطأ أو تقليل احترام بل هو على صواب تام حيث أنه من اللازم أن يتم ربط الآراء والأفكار بالمحيط والبيئة الاجتماعية للإنسان وهو ما فعله راسل أثناء حديثه عن فلسفة ديوي. لأنه لم يبتعد عن الفكر الأمريكي بل صاغ فلسفة تتماشى مع الإطار الاجتماعي الذي كبر فيه وهذا هو الإنسان حسبه حتى أنه نظر لفلسفته بنفس الشكل أي أنها تتأثر بالمحيط الاجتماعي وتعبر وتعكس جزء كبيراً منه.

كان راسل قد قدم في نفس صفحات كتابه تاريخ الفلسفة الغربية الجزء 3 اعتذار للفيلسوف الأمريكي لكونه لم يفهم قصده أو ربما قد يكون ديوي تحرر من أثار البيئة الاجتماعية، يقول راسل " فيما يختص بديوي قد أكون مخطأ بصدد المؤثرات الاجتماعية المعنية فإنني آسف "[2]، مع ذلك يرى راسل أنه ليس الوحيد الذي آمن بهذا التصور لديوي، فالكثير من المفكرين والنقاد من الفلاسفة يملكون نفس الرؤية فمثلاً هناك من اعتبر ديوي متأثراً بالهيجيلية ومن بينهم أشد الرجال الذين كرههم ديوي في حياته ولم يتفق معهم على الإطلاق وهو سنتايانا الذي يقول " إن ديوي كما في العلم والأخلاق الشائعين ثمة ميل منتشر هيجيلي إلى درجة ما لتفكيك الفرد إلى وظائف اجتماعية مثلما يفككون كل شيء جوهري واقعي إلى شيء ما نسبي وانتقالي "[3] لهذا يصف راسل العالم الذي كان يبحث عنه ديوي بأنه بعيد تماماً عن الطبيعة البشرية وهذا ما يجعل فلسفته الأداتية لا ترتقي إلى مستوى الفلسفة الإنسانية. فخطأ ديوي الوحيد أنه حاول أن فهم الإنسان بتجريده من محيطه الاجتماعي ليجعل المستقبل

[1]– المصدر السابق. ص 489

[2]– المصدر نفسه. ص 487

[3]– المصدر نفسه. ص 487–488

بمثابة تصور يمكن بناؤه دون النظر إلى الأسباب بل من خلال تصور الآثار والعمل على بلوغها دون النظر لما هو في الواقع الإنساني المعيش.

إن فلسفة جون ديوي عن الإدراك السليم للحقيقة حسب راسل كانت مبتعدة عن الإطار الصحيح، وهذا راجع لكونه لم يدخل الأحداث أو الوقائع في ضبطه لمفهوم الاعتقاد والحقيقة، يذكر لنا راسل بأن هناك اختلافاً كبيراً بينه وبين فكر ديوي، وأول ذلك هو الاختلاف في الاعتقاد وطريقة الحكم عليه إذ يرى راسل بأن تصور ديوي لهذا المفهوم لم يرتبط بالواقع وبالأحداث الماضية والحاضرة لأنه يعتمد في أحكامه على الآثار وليس العلل، وهذا يجعل فكرة الاعتقاد عنده بعيدة على أن تكون علمية عملية.

إن فهم ديوي للحقيقة لم يكن صحيحاً، كونه ابتعد عن الوقائع والأحداث حينما رفض أثر الماضي والمستقبل بأفعال الإنسان، وكأن الحقيقة حسبه مستقلة عن إرادة الإنسان في أبعاده الزمنية، وهذا حسب راسل ضد فكرة الليبيرالية والحرية وتقييد للذات الإنسانية وقدراتها، وكان على ديوي أن يدرك بأن مستقبل البشرية بين أيديها لأن البشرية تمتلك القدرة على تغيير الواقع وهذا هو جوهر الحرية الإنسانية.[1]

في حديثه عن جيمس ورغم كونه مفكراً متحرراً وصاحب شخصية متميزة لكن هذا لم يكن كافياً لأن هذا الرجل بقي متأثراً بانتماءاته العقائدية فكان بروتستانتياً محباً للعقيدة ومبادئها وهذا يتناقض مع نقده الدائم لكافة ضروب اللاهوت والإيمان، ولكن ما الأهمية التي يمتاز بها جيمس في الفلسفة المعاصرة على العموم وفي الفلسفة الأمريكية خصوصا؟

[1]– راسل برتراند: تاريخ الفلسفة الغربية ج3، مصدر سابق. ص 490–491

هناك حسب راسل عاملان أساسيان يجعلان من فلسفته ذات أهمية أولها دوره الفعال في نشر البرغماتية، أما الجانب الآخر فهو نظريته التي أوردها أول مرة في مقال نشره سنة 1904 بعنوان هل للوعي وجود؟ وهي نظريته " التجريبية الجذرية" انتقد فيها بشدة تدخل العامل الذاتي في المعرفة من خلال دحضه للمبدأ القائل بوجود علاقة بين الموضوع والذات في بناء الحقيقة والمعرفة الإنسانية. وفي هذه النقطة بالتحديد لم يظهر جيمس على أنه كان منطقياً في حق الإنسان لأنه رأى بواجب التخلي عن فكرة الوعي الذاتي واستبدالها بعامل الموضوع المقابل له فالفكرة عنده ليست سوى مجموعة من التجارب الخالصة البعيدة عن كل العوامل الذاتية. إنها عملية التقاء تجاربنا المتفرقة والمجزئة وهذه النظرية رغم فسادها وجدت من يدعمها ويتبناها.[1]

يعتبر وليام جيمس أكبر الفلاسفة البرغماتيين ومع ذلك فإن نزعته التجريبية التي تنظر للمادة على أنها الأصل في جميع الموجودات والأشياء جعلت من فلسفته شبه مشوهة وفاسدة، لأن التصور الذي قدمه جيمس حول التجربة فسر كل شيء في الحياة من خلال الأثر المادي الملموس أو الجانب العملي الخالص، وكأن السلوك الوحيد الذي يستحق الاهتمام في حياة المجتمع الإنساني هو ذلك المتعلق بالتجربة الخالصة وهي تجربة البشرية جمعاء على حسب اعتقاده، إن هذا التصور هو نفسه الذي تأثر به معاصره شيلر وبفعل هذا التأثر وضع هذا الأخير نظريته الخاصة تحت اسم "النزعة الإنسانية" فهل كانت كذلك؟ إنها حسب راسل تدعي ذلك لأنها ذات نظرة ضيقة بحيث يجدر على الإنسان أن ينظر إلى نفسه بأنه جزء من عالم بعيد عن متناول

[1]– راسل برتراند : حكمة الغرب ج2، مصدر سابق. ص 179

ذاتيته وخصوصيته لهذا ليس له أي تأثير على مجريات من صميم تجربة خالصة لا يمكن اعتناقها.[1]

كان جيمس دائماً على خلاف مع الفلاسفة العقلانيين أو الذين يمجدون الحالة الذهنية، حيث يصفها راسل بأنها تنشد ما لا يمكن تحقيقه بل تسعى إلى خلق نوع من الوحدة التي يستحيل أن نجد لها وجوداً في حياتنا المليئة بالتجربة الخالصة لذا كان وصفه لكل الفلاسفة الذين يملكون هذه الرؤية للحياة بأنهم أصحاب حقول وتصورات ضعيفة مقارنة بأولئك الذين لهم نظرة تجريبية وعقول صلبة متميزة، ولكن مع ذلك يرفض راسل أن يؤمن بهذا التطبيق الذي قدمه جيمس على الرغم من أن البرغماتية كانت فلسفة تؤمن بالأبعاد التجريبية للحياة لكنها تبقى وسيلة لفهم العالم بدون إعطاء أي اعتبار أو أهمية لتلك الأفكار والأحكام المسبقة التي لدينا، فقوام هذا المنهج أنه لا يقبل من الأفكار والأعمال ما ليس له طابع عملي يحدد الفوارق وقيمة الأشياء في حياتنا، وبذلك فإن فلسفة جيمس البرغماتية ليست سوى اسم جديد لأساليب تفكير قديمة وهي التجريبية التي أنتجتها عبقرية القرن 16.[2]

إن الثقة في المبادئ التي قدمها جيمس تجعل كل من يتبنى فلسفته في موقف ضعيف وغير مستقر وأكثر النقاط التي انتقدها راسل حول جيمس قوله بأن النظريات العلمية والبحوث وكل إبداع إنساني هو مجرد وسيلة أو أداة خلقت من أجل المستقبل البشري وليست بغرض الإجابة عن الأسئلة أو فك الغموض المعرفي الذي عجزت الإنسانية عن فهمه، إن البرغماتية بهذا المستوى تبتعد بشكل كلي على أن تكون فلسفة

[1]– راسل برتراند : حكمة الغرب ج2. ص 180–181

[2]– المصدر نفسه. ص 182

مثمرة، بل هي مجرد مذهب ميتافيزيقي مشكوك فيه إلى أبعد الحدود الممكنة، إنها تجعل من الحقيقة تصوراً وظيفياً وليس مفهوماً أخلاقياً أو هدفاً إنسانياً.

لم تكن البرغماتية فلسفة إنسانية خالصة لأنها كانت دائماً تبعث على الضجر في حياة الإنسان من خلال جعله يبني كل أحكامه وغاياته بتلك التجارب غير المبررة بأي أبعاد فردية أو ذاتية خالصة، وهذا إقصاء لأحد أهم الجوانب الإنسانية وربط الحقيقة بالمبدأ الخاضع للتجربة هو في حد ذاته افتراض ميتافيزيقي للحقيقة المطلقة وإبعادها عن كل ما هو إنساني. وبهذا رفض راسل كل المذاهب التي تبني المعرفة والأبعاد الأخلاقية وكذا المبادئ التربوية على معايير غير إنسانية.[1]

[1]– المصدر السابق. ص 210

المبحث الثاني: الغاية الإنسانية من الحكومة العالمية

في بداية هذا المبحث سنناقش بعضاً من المحاولات التي سبقت راسل في تأسيس الوحدة العالمية، والتي كان أكثرها ينطلق من مفهوم المطلق المكتمل أو العالمية المطلقة فهل أمكن لهم تحقيق ذلك؟

شهدت البشرية تغيراً مستمراً عرف فيه الإنسان انتقالاً من طابع البدائية إلى التجمع البشري الذي كانت القبيلة أول أشكاله، ولكن مع قدرة الإنسان في كشف خفايا هذا العالم وحقيقته أحكم سيطرته على الطبيعة، ما زاد رغبته السياسية التي دفعته إلى تشكيل الدولة بمفهومها القديم مثل ما كان عند اليونان والرومان والمسلمين، وخلال فترة القرون الوسطى تغير هذا المفهوم وظهرت العالمية الدينية محاولة أن تصنع كونية دينية تكون أسسها متأصلة من النص الديني وهو ما عرفته المسيحية والإسلام واليهودية، إنها عالمية النص المقدس الذي يتعالى على كل طبيعة بشرية ومع التطور الذي حدث في العلم والتقنية المعاصرة تغير مفهوم العالمية وأصبح متركزاً في مسألة الحضارة الغربية أو العربية فنقول العالم الغربي والعربي أو الإسلامي والمسيحي أوعالم الشمال والجنوب، فهل هناك إمكانية لأن يكون هناك عالماً واحداً بعيداً عن هذه التقسيمات والترتيبات ذات الطابع الاقتصادي والديني؟

ربما تعود أول محاولة لتحقيق العالمية في الحضارات القديمة إلى الرواقيين الذين نظروا للعالم بشكل شمولي وعميق دون اعتبار للاختلافات الجنسية فالله أب للجميع نحن جميعاً إخوة لا فرق بيننا نحن جميعاً مواطنون في هذا العالم، وبالتالي فإن عالمية الرواقية هي وحدة الكوكب الذي ننتمي إليه فالجنس البشري له أصل واحد ولا وجود لأي فوارق تمييز أو اختلاف، لأن العالم قد تحدد بشكل مطلق بفعل قوانين نخضع لها

جميعاً مثل البرودة والحرارة والله هو روح العالم ولا فرق بينه وبينها وما حياتنا سوى تناغم موجود في هذه الروح الطبيعية.[1]

أما في الحضارة الرومانية نجد الحكيم شيشرون يتصور وجود وحدة عالمية مطلقة مصدرها الذات الإلهية التي تربط أفراد الإنسانية جمعاء في أصلها وعلى الجميع أن يدين لهذا المصدر بالطاعة والخضوع، فالأفراد يعيشون في ظل نظام عالمي يخضع لتلك القوانين التي تحددها الآلهة، عرض شيشرون كل أفكاره هذه في كتابه " في الواجبات"، ولكن ما يعاب على نظريته أنها تسير الطبيعة البشرية بشكل قطعي دون أي حرية في العمل أو التغيير.[2]

بعد نجاح الإمبراطورية الرومانية في فرض نفوذها انتشرت دعائم المسيحية التي بشرت بعالمية جديدة تلك التي تنطلق من النصوص المقدسة ومن أفكار الكنيسة الكاثوليكية لتجعلها تعتنق العالمية، محاولة ترسيخ فكرة الشعور التعاوني الذي ينشأ من خلال غريزة الانتماء الديني فاستعملت لفظ الأخوة كوسيلة وجدانية في تثبيت هذه الوحدة، فمادمت البشرية جمعاء ملك الله فلابد أن نكون أسرة واحدة تحت سقف الكنيسة[3]، لكن هل نجحت هذه الغاية في أن تتماشى مع طبيعة الإنسانية الحقة؟

عندما وضع هذا الشعور الديني الأخوي موضع التطبيق شعر أولئك الذين يعتنقون المسيحية أن كل من لا يؤمن برسالتهم هذه ليس من أبناء الله بل هو من ورثة إبليس وعاد بذلك طابع الكراهية القديم الذي يرى كل من ليس من القبيلة عدواً لها وهو ما أعطى قوة عنصرية للعقيدة الدينية.

1- راسل برتراند: تاريخ الفلسفة الغربية،ج1 الفلسفة القديمة، ترجمة زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب،د.ط، سنة 2010. ص 393-394

2- مصطفى الخشاب: تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، مطبعة البيان العربي القاهرة، ط1. ص 202

3- راسل برتراند : السلطة والفرد، مصدر سابق. ص 144

أما في الفلسفة الإسلامية نجد نماذج أخرى تمتاز هي الأخرى بعالمية أو وحدة بشرية إنسانية يكون مصدرها الإسلام، ظهرت هذه الأفكار في كتابات الكثير من الفلاسفة، ومن بينهم الفاربي في دعوته إلى إقامة اتحاد بين الشعوب تحت إمرة شخص واحد يسمى الملك بشرط أن تتوفر فيه شروط معينة وهي: الشجاعة والقوة والفطنة وكذلك يجب أن يكون مطبقاً لشرائع الله في الأرض، لأن قانون الله قادر على تنظيم الحياة الإنسانية والملك هو الذي يسهر على تطبيق هذه القوانين وتحققها.[1]

وفيما يخص الفترة الحديثة نجد المشروع الكانطي في صناعة السلام ونبذ الحرب وثقافتها، وهو مشروع أخلاقي تربوي قبل أن يكون عملاً سياسياً أو اقتصادياً، عالج كانط مشكلة التعددية الأخلاقية والثقافية والسياسية، لهذا كانت لفلسفته غاية واحدة وهي نظام جمهوري تمثيلي في كل دولة، إضافة إلى وضع قانون عالمي يحكم الشعوب المتحدة الحرة وبفعل هذا القانون تنتظم العلاقات بين الدول وتزول أكثر الصراعات والأزمات حدتً وخطراً، تتم هذه العملية أي توحيد الشعوب في ظل رؤية سياسية وأخلاقية واحدة من خلال خطوتين أساسيتين: أولاً تنظيم الدول في هيئة واحدة تطبق القانون. ثانيا: صناعة أخلاق عالمية وسلام دائم.[2]

هل هذه الدعائم التي وضعتها الفلسفات قبل راسل كانت كافية حسبه لتحقيق الوحدة الإنسانية في ظل نظام واحد؟ ما هي الحكومة العالمية عند راسل وهل حقا تمتاز بأبعادها الكونية والإنسانية؟

[1]– محمد حسن الأبياري: المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، سنة 1978. ص33

[2]– عبد الرحمان بدوي: فلسفة القانون والسياسة عند إيمانويل كانط، وكالة المطبوعات، الكويت، د.ط، سنة 1979. ص 223

تقوم الدولة حسب راسل بالكثير من الأعمال والمهام التي يمكن أن تسند إلى مؤسسات ذات طابع خاص ومنها التعليم الابتدائي والبريد، ولكن هناك مهام أخرى لا يمكن أن تقوم بها أي مؤسسة مهما كانت طبيعتها أو حجمها نظراً للأهمية التي تمتاز بها والتي تعبر عن مدى قابلية الدولة وقدرتها على التسيير والسهر على شؤونها منها وضع القوانين وكذا الأجهزة المختلفة للأمن.[1]

ينظر راسل للدولة على أنها مفهوم أساسي في الحياة الإنسانية، فهي تعبير عن الشعب وإرادته وللدولة حسبه شكلان أساسيان من القوة الداخلية المتمثل في القانون والخارجي يطلق عليه تسمية القدرة التي تبرز هيبتها وسيطرتها المتجسدة في الهيمنة العسكرية التي يستعملها أي نظام دولي ليحمي نفسه من أي خطر خارجي، أما عن إمكانية استعمال نفوذها العسكري ضد مواطنيها فإنه لا يكون سوى بتوفر شروط ومعايير تنظم طريقة الاستعمال لأن قوة الدول لم توجد لقمع شعوبها، وما رآه راسل في القانون الدولي الذي ساد زمنه هو عدم امتلاكه للقدرة على تنظيم العواطف والأهواء التي يؤمن بها الناس على اختلاقهم والتي تكون سبباً رئيسياً وراء دخول الشعوب في غمار الحروب والأزمات الدولية إنه أقل تنظيماً وأكثر سوء من الحياة البدائية التي لم تكن مبنية على أي نوع من القوانين، فليس القانون هو الكفيل بتحقيقنا لكامل حقوقنا ومنافعنا وجعلنا نتمتع بنفس الحريات دون الحاجة لأي قوى داخلية أو خارجية.[2]

أظهر النظام البدائي الذي عاشه الإنسان أن السلطة للأقوى وليست الحرية إلا لمن تمكن من الحصول عليها إنه نمط حياة يُؤخذ كل شيء فيه بالقوة دون أي اعتبارات لمن هو أضعف، ولهذا النوع من السيطرة شكله المعاصر فالأعضاء الحاكمين في

[1]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي، مصدر سابق. ص 41

[2]– المصدر نفسه. ص 42

الدولة هم من يملكون القدرة على خلق المبادرة لاعتبارهم هيئات مسيطرة، أما البقية فهم مجرد آلات تلبي وتخدم المصلحة العامة كما يدعي هؤلاء الحكام، وهو ما انتشر في بريطانيا باسم السلطة العامة civile service[1]، لهذا علينا اليوم أن نسعى لتنظيم حياتنا حتى لا نقع في نفس الذهنية التي كانت سائدة آنذاك عن طريق وضع قوانين من شأنها أن تجعلنا نعيش نوع من الحرية التقريبية ولكن ما السبيل لذلك حسب تصور راسل؟

إن السبيل الوحيد لتحقيق ما نريده من حريات هو من خلال ضبط القوة بمختلف أشكالها الاقتصادية السياسية والعسكرية مع معرفة الطرق والأوقات المناسبة لاستخدامها لأنه من المستحيل أن نستغني عن القوة في زمننا هذا، لذا فإن وجود الدولة ضروري في تنظيم الكثير من العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد وأول ما عليها فعله هو نبذ أي نوع من التطرف أو الفوضى داخلها لأنه قد يخلق أخطر شيء داخلي وهو الانقلاب والتمرد. إن الدولة اليوم تنظم الكثير من العلاقات الاجتماعية والفردية كمثل الزواج والميراث ولكن دائماً تجدها تفرض نفوذها وهيمنتها على الأفراد حتى تتفادى وجود عرقلة لسير نظامها الداخلي ولحماية استقلالها وفرض نفوذها سيعاقب كل من يرفض الالتحاق بمؤسساتها العسكرية أو ينتقد مبادئها السياسية وأهدافها الاقتصادية أو برامجها التربوية.[2]

تعتبر عديد من الدول والحكومات أن مخالفة آرائها وأهدافها أو قراراتها نوع من الجريمة، فمثلاً نجد أن أمريكا وبريطانيا كانت من أكثر الدول نموذجاً في التعبير عن الحرية والكرامة الإنسانية، ولكن رغم ذلك نجد لديها هذا التصور الذي يرفض عدم

[1]– راسل برتراند: السلطة والفرد، مصدر سابق. ص 53

[2]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي، مصدر سابق. ص 42–43

الامتثال لأوامرها وغاياتها ففي أمريكا كان يرغم كل من يريد دخول أراضيها الاعتراف كتابيا بأنه لن يشارك في أي فوضى أو تظاهرة سياسية كشكل من أشكال حرية الرأي والتعبير، أما في بعض المناطق من أوروبا كانت تعتبر مخالفة تعاليم المسيحية جرماً وجب المعاقبة عليه من طرف الدولة وهو ما كان موجود في بريطانيا أين انعدمت حرية الفرد في عرض آرائه وانتقاداته لسياستها الداخلية والخارجية، وإن حصل ذلك ستكون العقوبة صارمة تصل حد الإعدام بتهمة التعدي على السلطة الدينية للبلاد.[1]

إن الأنظمة الدولية المعاصرة تجعل من رموزها وخدمة علمها دليلاً على روح المواطنة لدى أفرادها تصل هذه النظرة لدرجة يصبح فيها القتل عملاً أخلاقياً إذا ما تعلق الأمر بأن يقتل المواطن مواطناً من دولة أخرى، هذه جريمة غير الإنسانية لا تستدعي الفخر بل يستوجب علينا رفضها كسلوك لا أخلاقي كونها تصور يفضي في الأخير إلى نشوء الحروب، وهو ما لم يلاحظه الكثير من الناس عندما يرون أفعالهم تعبيراً عن حرياتهم وحبهم لأوطانهم ولرموزهم وهويتهم، وكانت أكثر الأشياء الغريبة التي شهدها راسل في شعوب العالم خاصة خلال الحربين العالميتين أنها ترى في حكوماتها التي تدخلها في حروب دامية صالحة وعلى صواب لذا تلبي بطريقة جنونية رغبة الحرب في أي لحظة شاءت حكوماتهم ذلك!.[2]

لماذا لا تتوقف الشعوب عن طاعة وتلبية شهوة حكوماتهم للدم والدمار؟ لماذا يلبي الفرنسي مثلاً رغبة دولته ليقتل الألماني بحجة أنه سخط على البشرية؟ أوالألماني الذي يبيح دم الفرنسي لأنه شخص مخادع هذا ما رسمته الدول في ذهنية أفرادها حتى تجعل من القتل مبرراً وأخلاقياً، يقول راسل " لماذا لا تستطيع الشعوب أن تترك الحرب

[1]– المصدر السابق. ص 43-44

[2] المصدر نفسه. ص 44

لأولئك الذين يهوونها ويشهرونها "،[1] سياسة الدولة هذه القائمة على تمجيد القتل دفعت مواطنيها للشعور بالبهجة في القيام بذلك، ففقدان دولة ما لأحد مواطنيها لا يعني شيئا لدولة أخرى وكأن تلك الخسارة ليست بشرية أو إنسانية، إن هذا التصور جعل من الإنسانية تمضي في دخول الحروب منذ زمن بعيد حروب لا مبرر لها إطلاقا، والأمر الأكثر فظاعة أنها لم تستطع التوقف عن لذة الحرب لأنها لا ترغب في ذلك ماذا لو أن الشعوب رفضت أن تشارك حكومتها هوس الحروب والدموية التي ليس لها أي سبب مقنع؟ ماذا سيحصل لو أن الألمان والفرنسيين رفضوا كل تنظيم حكومي يدفعهم لذلك؟ إن شعوب العالم اليوم لا تفكر في ذلك إطلاقاً وكأنها كائنات لا بشرية لا مفكرة. إن رغبتهم في القضاء على غيرهم أصبحت تثير شغفهم بشكل غريب وغير محدود وهذه الحالة الذهنية وجدت منذ القديم أين كانت الجيوش تلبي أوامر ملوكها أوأباطرتها بشكل غير عقلاني.[2]

يلعب الرأي العام دوراً كبيراً في نشر هيستيريا الحروب وشغفها لهذا تستعمل الدولة كل أنواع الإعلام والصحافة المختلفة في نشر أفكارها ومبادئها حول الغاية من الحرب ليؤثر في أفرادها تأثيراً تاماً، وهو ما حدث في إنجلترا خاصة في زمن الماركسية عندما أحكمت سيطرتها وأصبحت ثقافة العصر آنذاك، فالماركسية كانت فكراً يمجد التفاعل داخل قوى متماسكة يكون لها نفس الهدف وتحركها عقول قليلة لها القدرة على تفعيل الحرب أو بعث السلام وقتما شاءت وإن كانت هناك حريات للأفراد فإنها متناهية الصغر، وهذا التسلط ليس بالجديد على الإنسانية بل له صوراً قديمة

[1]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي. ص 44

[2]– المصدر نفسه. ص 45

تعود إلى إنسان الغريزة القبلية الذي يكن الولاء لقبيلته، أما اليوم فقد أصبح الولاء بصورة أكبر مع زيادة حجم الدولة وغاياتها الكبرى[1].

من بين العوامل المساعدة في تكوين سلطة الدولة هو الرأي العام وبفعله يتمكن كل نظام حكومي من تكوين أفراد أوفياء له يرون في كل من يعاديهم شخصاً مجرماً وينظرون لأنفسهم على أنهم على حق وصواب وأن ما يقومون به هو أمر ضروري لتصبح دولتهم قوية ولتزيد خيراتهم وسعادتهم، إن الكثير من الدول الحديثة تفرض نفسها خارجياً ليس من خلال ما تقوم به من علاقات بل بمقدار ما تملكه من قوة ومن جيوش جبارة تعطي لها الأحقية في أن تتدخل في شؤون غيرها بمنطق القوة المطلقة.[2]

لا تفسير لهذا التفكير سوى أن هناك نوعاً من الأنانية وحب التسلط كعاطفة تجعل العلاقات الدولية بعيدة على أن تبنى على روح التعاون والإخاء والمودة إن الهدف الأول لأي دولة معاصرة تدخل في غمار الحروب ليس المصلحة المادية أوالاستيلاء على خيراتها، بل هو ناتج عن رغبتها في أن تبدو أكثر سيادة من غيرها هذا ما يجعل أفرادها يشعرون بالمجد والاستعلاء أمام غيرهم من الشعوب المستضعفة. كل هذه الرغبات تجعل من الطرق المستعملة أخلاقية وضرورية فيصبح القتل والدمار فعلين أخلاقيين لتحقق الدولة أهدافها عندما تأتي اللحظة المناسبة لذلك، إن معظم دول العالم حسب راسل قد قامت بجرائم غير إنسانية في حق بعضها البعض وهذا ما جعله يطرح سؤالا جديدا: لماذا ترضخ الشعوب لسلطة حكوماتها القاتلة؟[3]

هناك الكثير من الأسباب التي تجعل من الشعوب تخضع لسلطة دولها الفاسدة ومنها السبب التقليدي في الطاعة الذي ظهر منذ الأزمنة البعيدة في جماعة القبيلة و

[1]– راسل برتراند : السلطة والفرد، مصدر سابق. ص 50–51

[2]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي. ص 46

[3]– المصدر نفسه. ص 47

القرية التي تلتف حول أفرادها وتخضع لسلطة فرد واحد يشرع نصوصها ويحكم بينها في كل المسائل دون أي معارضة، وهذا ما يسمى الحافز السيكولوجي الذي يسيطر على الأفراد إنه من أقدم الأسباب المولدة للخضوع المطلق الذي عرفته معظم الجماعات البشرية عندما غابت الوظيفة الإيجابية للدولة وهي عملية التربية وتزويد الأفراد بالأفكار الإيجابية، لتعوضها غاية سلبية وهي دخول غمار الحروب حتى تكون هناك أرباح كثيرة تعود بالخير على الفرد والجماعة.[1]

يلبي الأفراد سلطة ملوكهم وحكامهم بشكل مطلق فكل خروج عن طاعتهم وأوامرهم عصيان وتمرد يجب أن يعاقب كل من يقوم به وهذا ما حصل في أوروبا لأن الأنظمة الدولية هناك هي نتيجة لمخلفات الإقطاعية، ولكن هذا النوع من الأسباب لم يصبح له وجود في أيامنا هذه سوى في مناطق قليلة في العالم كمثل اليابان وروسيا. هذا الشعور نحو الملك وسلطته لا يزال هو السبب الرئيس وراء ما نراه من عصبية والدولة لا تزال تعمل على تقوية نفسها من خلال تقوية عنصر الطاعة لدى مواطنيها حتى لا يحصل أي تمرد عليها، ضامنة بذلك الولاء التام لإرادتها وغايتها ونتيجة هذا الخضوع تتمكن الدول من حشد جيوشها لدخول الحروب ضد غيرها من الشعوب.[2]

لعل أكثر ما يسيطر على الأفراد اليوم هو مدى حبهم لأن يكونوا أعضاءً في جماعات يشعرون بنفس العواطف مثلما حصل مع ماركس عندما كان يسعى إلى إقامة جنته في الأرض والمتمثلة في روح الطبقة البروليتاريا، التي انضمت عقب الحرب العالمية الأولى في جماعات أسمت نفسها الحزب الاشتراكي الديمقراطي أين بدأ سعيها إلى اكتساح المجالس البرلمانية والفوز بالمناصب العليا في البلاد،[3] بفعل هذه العواطف

[1]– راسل برتراند: السلطة والفرد. ص 51–52

[2]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي. ص 47–48

[3]– راسل برتراند: تاريخ الفلسفة الغربية الجزء 3، مصدر سابق. ص 437

المشتركة دخلت البشرية الكثير من الحروب التي بفعلها تبخرت الفوارق الفردية هذا ما كان حاصلاً في الحروب الصليبية أو الحروب الدينية وحركات الإصلاح حيث أصبحت الاعتبارات والعقائد الدينية هي المحرك لهم والمسئولة عن تلاحمهم ويكون هذا النوع من الروابط قوياً جداً بين الناس، يقول راسل " في هذه الحالة تصبح العقيدة الدينية رابطاً أقوى من الوطنية المشتركة "[1]، تعيش البشرية نفس الشعور في الفترة المعاصرة ويرى راسل أنه حصل في إنجلترا بسبب الانتشار الواسع للاشتراكية لكن هذه العواطف كانت أقل حدت فقد كان الاشتراكيون يشعرون بل يؤمنون أن كل واحد منهم يجب أن يكن كرهاً قوياً للطبقة الرأسمالية لأنها عدو حقيقي يجب القضاء عليه ذلك ما يبعث فيهم الشعور بالسعادة ويعيد للطبقة الكادحة كرامتها المسلوبة، هذه النظرة حركة الاشتراكيين دون أي مراعاة للفروق بينهم والشيء الوحيد الذي قلل من نتائج هذه النظرة هو أن هؤلاء لم يكونوا بالطبقة الغالبة بل كانوا أقلية ضئيلة لم تستطع أن تواجه قوة الدولة أو تجاريها.[2]

كل نظام دولي حسب راسل يبني قوته من خلال نوعين من العاطفة الخوف أولها: الخوف من حصول الجريمة والفوضى والتمرد داخلها وهو الذي يجعل منها ضعيفة أمام غيرها من الدول فتكون بذلك عرضة لكل عدوان خارجي، وهذا هو النوع الثاني من الخوف وبفعل هذين النوعين تتولد قوة أية أمة وكل دولة لا تحقق استقرارها الداخلي تعتبر فاشلة أمام غيرها، وأي انخفاض في قوتها يولد في نفوس الأغنياء الخوف والاستياء لأنه يؤدي إلى الفوضى التي من شأنها أن تعرض أملاكهم وحياتهم للخطر خاصة إذا ما تحركت ضدهم الطبقة الكادحة أو طبقة البروليتاريا التي تحدث عنها ماركس ودفعها إلى الثورة ضد أسس الرأسمالية من أجل التقدم الذي يجب تحقيقه

[1]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي. ص 48

[2]– المصدر نفسه. ص 48–49

دون المبالاة بالقيم الأخلاقية لأن الاشتراكية حسبه ستحسن الأوضاع الخاصة بأي نظام اجتماعي اقتصادي يريد الحصول على المكانة أمام سيطرة الطبقات المالكة، كان ماركس معارض لنشوء الدولة اللامركزية التي لم تحقق الأغراض الحقيقية لها[1]، ولكن في الحقبة المعاصرة أصبح الأفراد يقدسون قوة الدولة ويطلبون وجودها ومركزيتها ليس بغرض تحقيق الأهداف الاقتصادية بل يتعدى الأمر لتلك الجوانب العقائدية واللغوية وتلك الخاصة بلون البشرة يخضعون لها بشكل تام ويعتبرون كل مقاومة أو معارضة داخلية نوع من الشرور التي يجب ألا تكون إطلاقاً، وهذا من بين أسباب الطاعة والانقياد لرغبات الدولة حتى أنك تجد طبقات المجتمع المختلفة خاصة الأغنياء منهم تساهم في نشر ثقافة الحروب وتدعمها بكل ما تستطيع لتقوي جيوش دولها، غير مبالية بنتائج ذلك على غيرهم من الشعوب مادامت مصالحهم محفوظة، إن هذا النوع من التفكير هو الذي جعل من الأنظمة الحكومية تزيد من رغباتها في الحروب ضد غيرها من الدول والشعوب.[2]

كل دولة حسب راسل مهما كانت قوتها تكون معرضة للخطر الخارجي والذي يتمثل في الغزو على أراضيها لذا تسعى لتقوية نفسها غير مراعية بذلك أي قيم إنسانية وأكثر المطالب التي أصبحت تحميهم من ذلك هي السباق نحو التسلح مع غيرهم من المنافسين، وهو ما أدخل شعوب العالم في حالة من الرعب خاصة تلك الأمم التي لم تصنع القدر الكافي من الأسلحة المتطورة، ومن الأمور التي لاحظها راسل فيما يخص هذه المسألة كثرة المجالس الثورية أكثر من مجالس الصلح والسلام كل هذا بسبب غياب الروح والقيم الإنسانية في الدول المعاصرة.[3]

[1]– راسل برتراند: تاريخ الفلسفة الغربية، مصدر سابق،ج3. ص 436

[2]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي، مصدر سابق. ص 49

[3]– المصدر نفسه. ص 50–51

هناك عاطفة أخرى تعتمدها الدول في تقوية نفسها وهو الشعور أو الإحساس بما نسميه اليوم الوطنية، وأسوأها هو تلك ذات الطابع المتطرف التي لا تختلف عن الغيرة التي تحرك الإنسان خلال الحروب الدينية، لذا يوجد في كل أمة فئة من الأشخاص ينمون ويشحنون الشعور بالوطنية ويجعلونه من العواطف السامية الدالة على الهوية الحقيقية والانتماء، ومن مركبات هذا الشعور العائلة والمنزل والأصدقاء والحي والمحيط كلها تدفعنا للحفاظ على أوطاننا والتفكير في أن القوة التي تملكها دولتنا هو ما سيحمي أحباءنا، لكن الغريب في الأمر أننا لا نفكر في غيرنا بمثل هذه الطريقة فنسلبهم كل شيء وكأنهم لا يملكون ما نملك ونشعر في تحطيمنا لهم بالكثير من الفخر والعظمة وبذلك نمجد المجتمع الذي ننتمي إليه.[1]

هذا الشعور هو أقوى ما تسعى الدولة إلى تقويته في عقول أفرادها وفي قلوبهم الأمر الذي يدفعهم إلى اعتبار أبناء دولتهم أو الجماعة التي ينتمون إليها هي الأفضل والأجدر من غيرها، تصبح هذه الرؤية المحرك لكل سلوكيات الفرد اتجاه غيره وهو ما قمنا بذكره في حديثنا عن الصراع الإنساني وأسبابه، إن هذا التصور هو الذي حرك الألمان والإنجليز والفرنسيين للقضاء على بعضهم البعض وإلحاق الأذى بأنفسهم دون المبالاة بالنتائج من الناحية الإنسانية، إن كل الحكومات المعاصرة تعمل بكل جهد لتجعل من أفرادها يميلون بشكل مطلق للحياة العامة التي ينشرونها سعياً منها لجعل شعوبها تؤمن بفكرة التضحية في سبيل ما تؤمن به، وهذه الحالة وجدت في زمن الحروب الدينية التضحية في سبيل نشر العقيدة سواءً عند المسيحيين أو المسلمين واليهود.[2]

[1] المصدر السابق. ص 50

[2] – المصدر نفسه . ص 50–51

أكثر عامل تستعمله الدولة لتقوي العنصر الديني في الوطنية هو التربية والتعليم من خلال تدريسها للأطفال وفق برنامج منهجي يجعل تاريخها وآدابها الأرقى على الإطلاق، وقد يصل بها الحد إلى أن تدرس تاريخ غيرها على أنه سيء وأن أمتهم أفضل الأمم وهذا يجعل من الفرد يؤمن بأن أي نزاع تدخله دولته يكون الحق من نصيبها دائماً وأن تضحيته لها قيمة كبيرة لهذا يندفع لنصرتها دونما أي خوف على حياته وكأنه قد دخل في حالة انصهار تامة لا يفرق فيها بين وجوده ووجود أمته، إن إيمان الدول المعاصرة بالوطنية المطلقة المتطرفة جعل من شعوب العالم تؤمن بالصراع وتملأ قلوبها به، يقول راسل " كلما اشتد إيمان الأمة بوطنيتها اشتدت لا مبالاتها بنكبات الأمم الأخرى "[1]ولكل أمة وطنيتها ومبادئها التي تبني عليها هذا النوع من المشاعر وهذا الاختلاف في الوطنية هو الذي ولد الصراع الإنساني وعمل على استمراره إلى يومنا هذا بأشكال مختلفة منها الصراع المادي الذي يسعى من خلاله النظام الحكومي الحديث إلى استغلال كل إمكانياته المادية لغرض واحد هو تحقيق الديمومة والمكانة الاقتصادية وهذا انعدام للروح الإنسانية في العامل التقدمي كالذي رسمه ماركس للتاريخ ولصيرورة الدولة وبقاءها لأنه لم يضع إصبعه على الفهم الحقيقي لتطور الدولة وحركتها حيث يحصل التغير السياسي وحتى التاريخي والفني والثقافي حسبه طبقاً لتطور المادة لذا على كل قطر من هذا العالم أن يعلم أجياله هذه الغاية التي يجب أن يلتف حولها الأفراد سعياً لتحقيقها.

لكن إذا حصل وعملت الدول على جعل أفرادها يؤمنون بالخير والمنفعة العامة لهم ولغيرهم من الشعوب دون الاهتمام بتحقيق تلك الأبعاد الميتافيزيقية التي وضعها هيجل أو المادية التي نجدها عند ماركس فإنه سيقلل من حدت هذا الشعور وخطورته ويتولد

[1]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي. ص 51

بذلك نوع من المحبة بين البشرية جمعاء. إن الوطنية أو القومية المفرطة تصبح في الكثير من الأوقات معتقدات دينية قد يصل خطرها إلى القضاء على الإنسانية فلا أحد منا يكره وطنه أو يحب الأذى لأبناء وطنه أو جيرانه وأحبائه حباً غير متساوي ولكن علينا أن نعمل على جعل هذه المشاعر الطيبة ذات طابع عالمي بحيث نعامل الناس بمبادئ إنسانية واحدة.[1]

تحتم الأوضاع السياسية التي يمر بها العالم ضرورة العمل على إنشاء وإنماء الكوسمبوليتيية *Cosmopolitisme حتى تبنى علاقاتنا مع غيرنا من الشعوب والثقافات المختلفة التي نختلف عنها ولكن لا نتخالف معها، كما يجب الإيمان بالفرد وحريته التي يستطيع من خلالها أن يكون مسئول عن كل أفعاله وغاياته، هذه كانت نظرة راسل للعلاقات بين الدول مبنية على قبول الآخر مهما كانت انتماءاته أو عقيدته التي يتبناها أو يؤمن بها، نظرة مخالفة لكل مبادئ الاشتراكية والسنديكالية التي انشغلت بمعارضة الطبقة الغنية مقتنعة بأن الدولة وجدت للدفاع عن مصالح هذه الطبقة غير مبالية بالفقراء، لذا حاولت بشدة أن تحصل على السلطة وتفرض فلسفتها الخاصة دون أي محاولة لإنماء شعور العيش المشترك.[2]

---

[1]– المصدر السابق. ص 51–52

*الكوسموبوليتية Cosmopolitisme هي اصطلاح فلسفي يعني أن إن جميع البشر ينتمون إلى مجتمع واحد على أساس الأخلاق المشتركة يسمى الشخص الذي يلتزم بفكرة الكوسموبوليتية كوسموبوليتاني أو مواطن عالمي الكوزموبوليتانية هي مفهوم ابتكره الفيلسوف الساخر ديوجين من سينوب ، من الكلمات اليونانية الكون، والسياسي والمواطن إنه يعبر عن إمكانية أن يكون المرء مواطنًا في مكان ما وأن يلامس الشمولية دون إنكار خصوصيته تم تبني هذا المفهوم وتعميقه ونشره في جميع أنحاء العالم القديم من قبل الفلاسفة الرواقيين، ومن خلال نصوصهم وصل إلينا.

[2]– المصدر نفسه. ص 52

امتلأ العالم بالكثير من الشرور التي نجمت عن زيادة حجم الدولة وقوتها وهيمنتها وهو ما يحدث كثيراً في العالم المعاصر، لكن البشرية لا تدرك ذلك ولم يصبح هناك سوى عدد قليل من الناس الذين يدركون ذلك ويعرفون حقيقة ما يحصل أما البقية لا تزال غير واعية أو مدركة ، يقول راسل " إن الشر الذي أصاب العالم المعاصر بسبب طغيان كيل سلطان الدولة هو كبير جداً والغريب في الأمر أنه لا يدري به سوى القليلون "[1] لأن الدولة بمفهومها الحديث جلبت للإنسانية الكثير من الألم والمعاناة والشرور بعدما أصبحت تعمل على دخول أكبر قدر من الحروب والنزعات، وتسعى إلى زيادة حجم قوتها العسكرية وهذا ما يزيد من سخطها وأنانيتها اتجاه غيرها من الأمم والشعوب.

لكن الملاحظ أن سيكولوجية الإنسان القديم ورغم غياب الدولة جعلته يعيش وئاماً بينه وبين أفراد الجماعة التي ينتمي لها، لأن التنظيم البشري داخل روح الجماعة يبنى على ذلك الاتفاق حول أهم وسائل الحياة وغاياتها لم يكن هناك أي نوع من السلطة القانونية التي نراها اليوم في أجهزة مختلفة مثل الشرطة والجيوش التي تحضرها الدول الحديثة، إنه نظام قبلي واحد يسري على كل الأفراد كفيل بتحقيق نوع من العدالة التي لم تصبح ممكنة في ظل التطور والنمو المتواصل الذي تعرفه الدولة الحديثة بأبعادها المختلفة، فكلما حدث ذلك التوسع في محيط الوحدة الاجتماعية أصبحت الحرب شيئاً ممكنا الحدوث في أي لحظة من الزمن ودون أي مبررات لها.[2]

إن السباق نحو التسلح وامتلاك أسلحة الدمار الشامل قد يكون في ظاهره وسيلة للدفاع عن الدولة من الخطر الخارجي وتقوية سلطانها أمام غيرها، ولكن بمجرد أن

[1]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي. ص 52

[2]– راسل برتراند: السلطة والفرد. ص 39–40

تملك هذه المزايا والقوة تتولد لها الرغبة في القضاء على غيرها سواء في الوقت الحاضر أو المستقبل القريب، يقول راسل " هكذا تؤدي الوسيلة التي تجلب الأمن في الداخل إلى عدم الأمن في الخارج "[1]، فالعنف والدموية الذي تقوم به الإنسانية هو حسبه مدفوع من الأنظمة الدولية بالدرجة الأولى، ويصف راسل جهاز الدولة المعاصرة بأنه لا عقلاني تتحكم فيه مجموعة من الأشخاص يعتبرون الفوضى أجمل من النظام والحرب أفضل من السلم حتى أنهم جعلوا شعوبهم عبيداً لقوانينهم المجحفة والظالمة مجردين من القيم الإنسانية، لأن غاية هؤلاء الحكام الفاسدين هو تحقيق الطاعة وفرض الهيمنة وجعلنا لا نتقيد بأية أخلاقيات اتجاه الأمم الأخرى لتَكُونَ بنيتنا الاجتماعية مزيجاً من أفراد غير إنسانيين يرون قتل وتشنيع جثث غيرهم أمراً عادياً.

أهم شيء لاحظه راسل أن هذه المؤسسة المستديمة – الدولة– تتميز بكبر مساحتها أو الرقعة الجغرافية التي تتربع عليها مما يولد لدى الفرد صعوبة في إدراك ما يحصل فيها، أو غياباً لقدرة تأثيره أو مطالبته بتغيير نظامها أو المبادئ التي تقوم عليها، في ظل هذا التوسع يفقد الإنسان المعاصر شجاعته ويصبح صوته غير مسموع لدى أولئك الذين يسمون أنفسهم رؤساءً ووزراءً وحكاما ويحدث هذا في الدول الكبرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية أين تجد عامة الناس تعيش في جو من الديمقراطية دون أن تكون لهم دراية بما يحدث فيها من قرارات ومسائل كبرى مما يؤدي لزوال حرية الأفراد وجعلهم غير قادرين على التعبير فيصيبهم نوع من الضعف واللاوعي السياسي وهو ما يسميه راسل بالحدود على الفردانية، أين لا يملك الفرد سوى حيز

[1]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي. ص 53

صغير ليطلق العنان لنفسه وإذ ما تجاوز حدوده سيعتبر مخالفاً للقانون مرمياً في إحدى السجون يتلقى العقوبة على ذلك.[1]

إن اتساع مساحة الدولة غيب الكثير من شجاعة الفرد وإرادته التي كان يملكها عندما كانت رقعة الدول أصغر، ولا يحصل على السلطة في الدولة المعاصرة كل من شاء ذلك بل يبلغها أولئك الذين يملكون طموحاً يفوق العادة فمن عادة الأنظمة المعاصرة أنها تصنع رجالاً يتعطشون إلى السيطرة والنفوذ على مجريات الحياة السياسية والاقتصادية أما البقية من الناس تراهم يشعرون بالعجز وعدم القدرة على المواجهة وهذا يقتل عزيمتهم ويضعف إرادتهم.[2]

غياب السمات الإنسانية في الدولة المعاصرة سببه الإيمان بالغاية الكبرى والرئيسية وهي السيادة خاصة عندما تدخل الدولة غمار الحروب حيث تجدها تسعى للسيطرة على تراب دولة أخرى وضم مواطنيها بمنطق القوة، ولكن ماذا لو عملت كل دولة على أن توفر القدر الممكن من السعادة لمواطنيها ؟ ماذا لو أصبحت السعادة غاية أقصى من السيادة هنا ستخف ويلات الحروب وتزول الأذية من العلاقات الدولية الحاضرة، إن منطق السيادة هو السبب وراء الأذى الذي تلحقه دولة ما على أفراد ومواطنين من دولة أخرى سعياً منها إلى أن تضمها لرقعتها الجغرافية لتزيد سيادتها. وبفعل هذه الغاية التي أصبحت تسيطر على كل الأنظمة العالمية كبحت كل أنواع الحريات، ويؤدي الشعور بالسيادة إذا زاد عن حده إلى عاطفة التكبر لدى الدول ما يجعلها ترفض الدخول في طاولة المناقشات أو حل النزاعات لهذا تستعمل القوة وتهدد باستعمالها ففي نظرها كل لجوء للغة الحوار السياسي السلمي هو دليل على ضعفها

[1]– المصدر السابق. ص 53

[2]– المصدر نفسه. ص 53–54

وانعداماً لسيادتها، ومن عادة الأشخاص الذين يصلون إلى كراسي السلطة أنهم لا يمتلكون منطق المشاورة والحوار السياسي إنهم سريعي الغضب يعاملون غيرهم من الرؤساء والحكام كأنهم أحد المستخدمين في قصورهم أو مجالسهم.[1]

مثل هؤلاء الرجال لا يصلحون أبداً للعلاقات الدولية لكن الحقيقة أن السلطة دائما في يد أشخاص متسلطين لا يؤمنون أبداً بالديمقراطية والحرية الفردية فمعظم الوزراء والرؤساء الذين عرفهم راسل في حياته كانوا من الطبقة الغنية التي لها نفوذ قوي في الدولة، والحل الوحيد للتقليل من هذه الفئة في الدولة هو بأن يهتم المواطنون العاديون بالشؤون السياسية الداخلية والخارجية اهتماماً مستمراً، وأن لا يروا أنفسهم مجرد أفراد تحركهم عاطفة الوطنية التي ترسمها خطابات زائفة تجعلهم يضحون بأنفسهم في سبيل أشخاص غايتهم الوحيدة البقاء في كرسي الحكم لأطول مدة ممكنة، ليصبح الفرد بهذا الشكل مجرد خادم لمصالح طبقة فاسدة تجعل منه ثائراً أو رجلاً فدائياً متى شاءت له ذلك وفي نفس الوقت تعطيه تصوراً عادياً ومثالياً عن الشؤون الداخلية، ليقبل في الأخير كل ما يحدث دون أي شك وهذا يضمن لأصحاب السلطة ولاء الشعب وخدمته لهم، أما إذا حصل وتحركت الشعوب ضد أنظمتها يتم مواجهتها بالقوة التي كانت تؤسس لها دونما انقطاع. [2]

الكثير من الدول المعاصرة تستعمل في حق شعوبها كل أنواع القوة المتاحة لها للقضاء على كل الحركات النقابية المعارضة ورغم قلة هذه الفئة الحاكمة إلا أنها تلحق فشلاً كبيراً لاقتصاد دولتها ولإنتاج الطبقة العاملة، دون أن يلام هؤلاء السادة وأصحاب رؤوس المال نظراً للنفوذ الذي يملكونه أو لسيادة عائلاتهم صاحبة المكانة

[1]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي. ص 55

[2]– المصدر نفسه. ص 55–56

في الدولة، ومن أكثر الأسباب وراء التعاسة والبؤس اللذين تعيشهما شعوب العالم هو نمو قوة الدولة وإحكام سيطرتها على الشؤون الداخلية والحل الوحيد لتخفيف هذه السلطة يكون بعدم الاندفاع وراء خطاباتها اللامعة والبراقة للحرب والدموية، [1] لكن إذا ما كانت هذه غايات الدولة غير الإنسانية فهل هذا يعني أنه لا يوجد للدولة أي عناصر إيجابية أو سياسية إنسانية حسب منظور راسل ؟

للدولة غاية نبيلة حسب راسل وهي وضع القانون الذي يجعل من العلاقات بين الشعوب ممكنة ولكنها مرتبطة بمدى وجود حكومة عالمية تتحكم بهذه العلاقات كونها تمثل القوة المطلقة والسيادة التامة، لأن القانون وحده لن يحقق الغاية المنشودة في العلاقات الدولية الحالية كونه يتميز بنوع من الجمود والستاتستيكية فأوروبا وأمريكا خلال القرن الماضي عرفت إيديولوجيات انقسمت بفعلها لمعسكرين هما المعسكر الشرقي والغربي الأول ماركسي كانت له آثار كبيرة في روسيا أما الثاني فهو الليبرالية التي أفرزتها فلسفة جون لوك وبنتام، ومن أجل تفادي الوقوع في الفخ الذي لاحق الولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد السوفياتي علينا أن نعمد إلى التغيير وإذا لم يكن هناك تعديل فإن النزاعات ستبقى على حالها لذلك يصبح وجود حكومة عالمية واحدة هو السبيل الوحيد لإنجاح العلاقات الدولية المعاصرة.[2]

للدولة غايات أخرى أخلاقية ومهام إيجابية يجب أن تعمل عليها لتدرجها ضمن اهتماماتها وأولوياتها الخاصة ومن أكثر النقاط التي يجب على الدولة أن تولي اهتماماً بالغاً بها هو أن تحقق للأفراد الحياة الكريمة وما تتطلب من رفاهية اجتماعية، ولكن وفق حدود معينة وليس بطريقة همجية، ومن ناحية أخرى يجب أن تعمل على حفظ

[1]– المصدر السابق. ص 57–58

[2]– المصدر نفسه. ص 58

النظام والقضاء على الظلم في حق كل فئات المجتمع المختلفة وحماية أفرادها من المخاطر التي تصيبهم جراء الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية.[1]

من مهام الدولة الأساسية حفظ الحريات المختلفة دون المساس بالجوانب الشخصية للفرد فأنظمة القرن 15 و16 فشلت في أن تحفظ نفسها لأنها لم تحقق هذه الغاية فعاشت الشعوب في ظل البؤس والحرمان والفوضى الذي أدى إلى مقاومات عديدة خلفت وراءها الكثير من الدمار المادي والمعنوي فالتطور الذي تعيشه الدولة الحديثة أدى إلى زيادة كبيرة في الثروة ولكنه قلل من شعور الأمن لدى الأفراد، ويُعتبر قطاعي التعليم والصحة من أهم المسائل ذات الطابع الإنساني التي يجب أن يهتم بها أي نظام دولي حديث، لأن انتشار الجهل والأمية وسط المجتمع يعتبر من أكبر المخاطر التي تهدد السير الصحيح للقيم الإنسانية والأخلاقية، فوجود الديمقراطية بشكلها الصحيح يستدعي نشر التعليم وتعميمه لأن زيادة نسبة الطبقة الجاهلة داخل المجتمع يقلل انتشار الديمقراطية الصحيحة فيه، كما يجب على كل حكومة أن تهتم بأجيالها من حيث الرعاية الصحية وتوفير التعليم الصحيح وهو أكثر ما يتمناه المجتمع المعاصر من أي جهاز حكومي، ومن المسائل الجديرة بالاهتمام من طرف كل دولة هو رعاية البحث العلمي والتكفل به لأن مثل هذه البحوث ستعود بالخير على الأمة وعلى الإنسانية جمعاء.[2]

على الدولة أن تسعى لتنظيم الشؤون الاقتصادية التي يعتبرها راسل من مهامها الأساسية والرئيسية حتى لا يكون هناك ظلم وطبقية بين أفراد المجتمع ولكن ما نراه اليوم أن الكثير من الدول تكبح حرية الأفراد في هذا المجال من خلال تحكمها التام في

[1]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي. ص 59–60

[2]– المصدر نفسه. ص 61

مجريات الحياة الاقتصادية في الوقت الذي يجب فيه أن تفتح أمام الأفراد حرية هذا الميدان لأن شل روح الإبداع في المجتمع يقتل العزيمة عند الإنسان ويولد خيبة الأمل التي من شأنها أن تخلق الأزمات السياسية التي لا طالما يكون معظمها وليد الأوضاع الاقتصادية السائدة[1]، ولعل أكثر ما يزيد فساد العلاقات الدولية حسب تحليل راسل لما عايشته الإنسانية خلال العقدين الأخيرين هو غياب حكومة مركزية فيدرالية تسهر على تنظيم القانون وحسن تسييره وبفعلها يأمل راسل عودة النظام العالمي لحالة أفضل من حالته الراهنة.[2]

إن بناء الدولة الحديثة مرتبط بعاطفة الانتماء للأمة التي تمنح شعوراً غريزياً لدى الإنسان يشبهه راسل بغريزة الانتماء إلى القطيع وهو لا يجعل الإنسان مختلف عن الحيوان وهذه العاطفة تولد الشعور بأننا الأفضل والأجدر من غيرنا وتجعلنا نُكنُ الكثير من العداء لغيرنا من الأمم يقول راسل " إن غريزة الجماعة ينتج عنها نوع ضار من ضيق الأفق في الأخلاق، فالرجال جميعاً يرون أن الخير هو ما ينفع جماعتهم والشر هو ما يتعارض ومصالحهم، حتى ولو كان هذا الشر في مصلحة الجنس البشري كله كوحدة"[3]، هذا النوع من التفكير الفاسد والمشاعر المؤذية ينتشر كثيراً أثناء الحروب والأزمات الدولية الجادة كمثل الإنجليز الذين رأوا أن قتل كل جندي ألماني في أرض المعركة سيجلب السعادة للعالم بأسره.

تتمثل الغاية الأولى لأي حكومة معاصرة في تحقيق الحرية المطلقة والسيادة التامة ولكن ما إن تعلن كل دولة أنها تتمتع بهذه الغاية ستضع نفسها أمام العداء لتصبح عرضة للمطامع من طرف غيرها من القوى المجاورة لها، مثلما حدث مع الإتحاد

[1]– المصدر السابق. ص 62

[2]– راسل برتراند: مثل سياسية عليا، مصدر سابق. ص 57

[3]– المصدر نفسه. ص 58

السوفياتي الذي كانت له رقعة جغرافية كبيرة يسيطر عليها فجعله مكسبه هذا يبذل قصارى جهده ليعمل على فرض هيمنته وإخضاع العالم لقوته العسكرية، لهذا يجب أن يتوقف هذا التفكير القائل أن الكرة الأرضية كبيرة ومتسعة وعلينا أن نحظى بأكبر مساحة منها لن يتوقف هذا دون تحقيق مطلب الحكومة العالمية، إن هذا التفاخر والتعاظم الذي عاشته بعض الأنظمة مثل الإتحاد السوفياتي[1] هو مشابه لما يحدث للفرد إن هو أعلن عن حريته المطلقة فهل سيقبل الجميع مبدأه التحرري.

هكذا حال العلاقات الدولية الحالية ليس من حق أي دولة مهما كانت قوتها في أن تصدر مثل هذا القرار الذي يعني لغيرها بأنها تسعى لفرض نفوذها كقوة إقليمية وهنا يصبح مبدأ الحرب محرك للعلاقات الإنسانية،[2] ولعل أول خطوة يجب أن تعمل بها الأنظمة العالمية الحالية هو الاستغناء عن فكرة حريتها المطلقة خاصة فيما يخص شؤونها وعلاقاتها الخارجية، وهنا يجب أن يتم إسناد الأمور إلى أداة حكومية واحدة عالمية تكون لها السيادة التامة في تسيير جميع السلطات ذات الطابع القضائي والتشريعي لأن وجود المنظمات العالمية اليوم مثل هيئة الأمم المتحدة أو منظمة الدول العربية لم يغير من منطق الصراع ولم يقلل منه إطلاقاً لذا انتقد راسل كل الهيئات والتنظيمات الدولية السائدة لأنها لم تتمكن من حل الأزمات الدولية الشائكة فهي مجرد تنظيم دولي يعمل على وضع بعض القوانين دون أن تكون له القوة على تطبيقها في أرض الواقع، من هنا يصبح من الضروري أن توجد قوة واحدة تعمل على تنفيذ القانون على الجميع.[3]

[1]– راسل برتراند: السلطة والفرد، مصدر سابق . ص 55–56

[2]– راسل برتراند: مثل سياسية عليا. ص 60–61

[3]– المصدر نفسه. ص 61

عارض برتراند راسل كل من يريد إبقاء العلاقات الدولية في صورتها الحالية لأن الدعوة إلى السلام القائم على نفس الوتيرة التي نعيشها سيترك الأمور على حالها بل سيجعلها أشد حدت في المستقبل القريب، يقول راسل " إن لم توجد مثل هذه القوة الدولية للقيام بهذا التغيير فقد يشتد الميل إلى الحرب وقد يطغى مستقبلاً "[1] ،كانت هذه رغبة راسل في إصلاح العلاقات الدولية السائدة فما هي أهم الشروط الضرورية في هذه القوة أو الحكومة العالمية؟

أول شيء هو شرط القوة العسكرية إذ يجب أن تكون القوة الوحيدة في العالم بأسطول وجيش هما الوحيدان اللذان يفضل استعمالهما أثناء الحاجة في نشر السلم والحد من تصاعد وتيرة النزاعات وهذا للتقليل من الشرور التي بالإمكان أن تصيب الإنسانية، فمن إيجابيات وجود قوة عالمية واحدة هو الحد من الانتشار الواسع للغرائز الإنسانية المؤذية ذات الطابع الوحشي لأن بقاء أنظمة عالمية متنافسة سيولد حرية استعمال القوة من جميع أطرافها، ليصبح العالم مسرحاً للحروب الضارية وسيستعمل الجميع كل ما لديهم من قوة للنهب والاضطهاد في حق غيرهم.[2]

يصف راسل نظريته هذه بأنها وجهة النظر الأكثر صواباً ومعقولية من غيرها لأن وجود هذه الحكومة التي تملك القوة بشكل مستقل ومطلق عن بقية العالم سيضمن الاستعمال الصحيح لها الذي لا يكون سوى عند الحاجة وفي وقت قصير جداً وبمجرد انتهاء الغاية من استعمالها تتوقف، كل هذا سيغير من الفوضى الحالية التي سببها الاستعمال المتواصل للقوة من طرف أي دولة امتلكت مقداراً معيناً منها، فوجود هذه الحكومة سيضمن السيطرة على كل العلاقات الموجودة نتيجة لقوتها ونفوذها الذي

[1]– المصدر السابق. ص 61

[2]– المصدر نفسه. ص 61

سيجعل الولاء لها إجبارياً مما يقضي على كل إرادة في الخروج عن سيطرتها وستقل بفعل هذا الولاء الهمجية بين دول العالم وشعوبها ولن يكون السباق نحو التسلح ضروريا أبداً.[1]

تؤدي حرية الدول في التطور العسكري إلى حروب طويلة الأمد ودون توقف وسيكون مصير الإنسانية في هذه الحالة هو الهلاك بكل تأكيد، لذلك فإن أحسن اختيار لها أن ترضى بحكومة واحدة لأنه أكثر الحلول عقلانية فإعطاء الدول الحرية في حل النزعات القائمة بينها لن تكون له أي نتيجة إيجابية، وفي الأخير تبقى العلاقات السيئة قائمة ما لم تتلاشى بفعل قوة واحدة تفرض نفسها على الجميع لأن صراعات الحكومات المعاصرة تتولد من أسباب تافهة، يقول راسل "الضرائب الجمركية مجرد وهم والاحتقار للأجناس هو جريمة، والفخر والاعتزاز بالقوة والتملك هي حماقات طفل صغير"[2] لذا فمجرد إعطاء الحكومات الحالية هذه الحقوق المختلفة كامتلاك القوة والسيطرة وكذا الحرية في التجارة سيزيد من أنانيتها وغطرستها فحرية التجارة ليست ذات أهمية في تأسيس العلاقات واعتبارها شأناً دولياً هو ما يولد ضرورة في فتح أسواق عالمية كانت سبباً في دخول دول العالم في حروب تافهة وصلت بهم لدمار لم يحققوا من ورائه سوى الخسارة بكل أشكالها.[3]

إن وجود حكومة عالمية واحدة لا يعني أن تتوحد العادات والتقاليد والقيم والديانات أو أن يتم تلاشيها من حياتنا بل القصد من ذلك كله القضاء على المصالح الوهمية التي تتصارع من أجلها الحكومات الحالية، وجود مثل هذه القوة المطلقة لن يؤدي بنا إلى فقدان هوياتنا وانتماءاتنا المختلفة بل سنحتفظ بحبنا للوطن وكل ما سيحصل أننا

[1]– راسل برتراند: مثل سياسية عليا. ص 61–62

[2]– المصدر نفسه. ص 62

[3]– المصدر نفسه. ص 62–63

سنشعر بروح جديدة ذات طابع إنساني روح عالمية نضيفها إلى عواطفنا ولن تصبح هناك أنانية قومية وسيفكر الإنسان بالعظمة كون أمته تمتاز بالسلام وتعمل على مساعدة الآخرين جميعا وسنرى العداوة اتجاه غيرنا سلوكاً لا أخلاقياً منافياً لطبيعتنا الإنسانية .[1]

يذكر لنا راسل في كتابه أمال جديدة في عالم متغير أن تطور أساليب الحياة وإحكامها يؤدي إلى زيادة حجم الوحدات الاجتماعية وبفعل هذه الزيادة تخلق العلاقات بين البلدان في مجال المبادلات التجارية والصناعية والزراعية، وهذه التعاملات هي التي تؤدي إلى العداء وهو صراع سخيف تعيشه الكثير من الأنظمة، فسرعان ما تتحول هذه المبادلات من كونها ذات طابع اقتصادي لتتشكل بصورة سياسية وهي النظرة التي آمن بها ماركس عندما أقر بأن الحياة السياسية هي انعكاس للأوضاع الاقتصادية القائمة وعلى إثرها ترغب جميع الحكومات أن تصبح أغنى وتستعمل وسائلها المتاحة خاصة أجهزتها العسكرية من أجل فرض سيطرتها الاقتصادية وجعل الأمم الأخر تعيش حالة الفقر والتخلف.[2]

تعد الحروب اليوم أكثر ضرراً مما كانت عليه في الأزمنة الماضية لذا أصبح إجبارياً على الإنسانية أن تبحث في سبل تبعدها عن هذه الثقافة غير الأخلاقية المتمثلة في التعصب والهمجية وسيكون لها ذلك إذا ما عملت على خلق وسائل وحيل مناسبة أكثرها تلك الدبلوماسية الذكية والماهرة، ولكن مع ذلك فإن هذه العملية تبقى بعيدة ومليئة بالمخاطر خاصة في ظل تنوع النظم السياسية وحدة الصراعات والأزمات التي تضع الوجود الإنساني داخل دائرة مغلقة من الصراع، فكلما وجدت تنظيمات

[1]– المصدر السابق. ص 66

[2]– راسل برتراند: أمال جديدة في عالم متغير، مصدر سابق. ص 98/97

مختلفة ستسعى كل واحدة إلى فرض سيادتها بكل ما تملكه من قوة عسكرية محاولة تحقيق الحكم النهائي، وليست هناك سوى طريقة واحدة يمكن أن تجعل العالم في مأمن عن الحرب وهي إنشاء سلطة واحدة ينتمي لها العالم بأسره تحتكر كل القوة والهيمنة. ولابد على هذه الحكومة إذا ما أرادت أن تضمن الاستقرار وتمنع التمرد والحروب أن تضع يدها على كل السلطات أولها العسكرية ثم تليها الشؤون الاقتصادية والسياسية.[1]

يرى راسل أن مشروع السلام العالمي لن يتحقق إلا من خلال قوانين تحددها حكومة واحدة مركزية التي تعتبر كل نظام سياسي أو حكومي يستخدم القوة ضد غيره عدوا لكل العالم وتفرض عليه عقوبة صارمة، وهذه هي أولى خطوات السلام فكلما تم العمل بمثل هذه القوانين الصارمة تخضع كل الأنظمة الدولية لتشريع دولي واحد، بعد ذلك يتم وضع هيئات أو سلطات تسهر على القيام بكل النشاطات والوظائف أولها سن القوانين التشريعية والقضائية لتصبح العدالة أمراً محققاً في أرض الواقع وليست مجرد نصوص تحفظها الكتب والدساتير.[2]

تختلف أشكال هذه الحكومة العالمية حسب راسل فقد تكون ذات طابع ديمقراطي أو حكماً مطلقاً أو أنها تتأسس بشكل متمدن أو عن طريق الغزو فقد تكون دولة مدنية أو دولة قوية تستطيع أن تغزو وتتحكم في كل العالم، ومهما تعددت صفاتها فإنها تسعى بكل تأكيد إلى تحقيق المساواة والعدالة وأنجح وسيلة لبناء هذه الحكومة هو الغزو لأنه يستحيل أن تُخلقَ من خلال الرضا المتبادل أو بالتنازل عن القوة والهيمنة. ظهور هذه الحكومة يأتي بفعل دخول العالم في حرب عالمية بين مجموعتين تقوم فيها تلك التي انتصرت بالتشريع والحكم وإخماد نار العداء التي تبقى في الطرف المنهزم

[1]– المصدر السابق. ص 100–101

[2]– المصدر نفسه. ص 102

وهذا من خلال إعطاءه فرصة المشاركة في الحكم، لكن هل حقا للجنس البشري مثل هذه الروح والمهارة السياسية والحنكة الدبلوماسية؟

يجيب راسل:" أعتقد أن الجنس البشري ليست لديه هذه المهارة أو القدرة على التسامح المتبادل"[1] وبالتالي فلا إمكان لإنشاء هذه الحكومة المركزية في المستقبل عن طريق الرضا وهذا هو السبب الرئيس وراء دعوة راسل في أن تمتلك هذه الدولة العالمية كل القوة العسكرية خاصة خلال الفترة الأولى من تأسيسها حتى تتمكن من فرض هيمنتها ونفوذها وصناعة كلمتها في العالم.

رغم أن مبدأ القوة أصبح أمراً ضرورياً لخلق الاستقرار الذي نسعى إليه في المستقبل خاصة في جزء كبير من العالم، ولكن مثل هكذا هدف لا يمكن أن نصل إليه دون علاج الأسباب الحقيقية التي تدفعنا للصراع المتواصل مع بعضنا وهذه الأسباب ليست هي المصالح الاقتصادية أو السياسية، بل هي أكثر خطورة لأن ما يدفع الأمم لدخول حرب فيها طرفان متنازعان هو ثلاثة محاور أساسية: وهي تلك المتعلقة بالسكان، والعنصر والمذاهب فمثلاً سعي آسيا هو توفير مكان جغرافي أكثر اتساعاً لمجموع سكانها وسعي أمريكا وأستراليا هو تحقيق حكم الرجل الأبيض لذا فإن وصول العالم إلى الاستقرار الذي ينشده يكون من خلال المساواة بين الجميع بدرجة معينة وأن يكون هناك امتثال لنظام عالمي واحد تكون له القدرة على حل هذه المحاور الثلاث، بداية من مسألة السكان التي لها أثر وجوانب سياسية خطيرة فكلما تواجدت هذه المشكلة وتزايدت أصبح من المستحيل القضاء على الفقر ورفع المستوى المعيشي لتلك الشعوب الفقيرة في العالم مقارنة بغيرها التي تعيش رفاهية تامة، وإذا لم يتم وضع هذا التساوي الاجتماعي ستبقى الغيرة والحقد وهذا سيجعل الحكومة العالمية تستعمل

[1]– راسل برتراند: أمال جديدة في عالم متغير. ص 102

القوة ضد كل نظام يحاول تحقيق حاجاته الاقتصادية بمنطق الاستعمار والاستغلال ليغتصب حق غيره، في هذه الحالة سيكون وضع العالم مزرياً وغير أمن لذا فمن الأفضل على جميع الأمم أن تسعى جاهدة لرفع مستوى معيشة شعوبها وكذا جعلها متعلمة ومتقدمة في أساليبها العلمية والتربوية مع التركيز على التوازن في عدد السكان.[1]

تعد غريزة حفظ البقاء من مميزات الكائنات الحية وبالنسبة للإنسان هي أكثر خطورة لأنها تدفع لتحقيق الاستمرارية في العيش وتعمير الأرض لمدة زمنية طويلة وفي ظل هذه الرغبة تظهر أخطار مختلفة تحدق بالإنسان وتعصف بوجوده في هذا العالم، أخطار ليست بيولوجية بل هي من صميم ذاته فقد عاش الإنسان طيلة ملايين السنين تحت سيطرة هذه الحالة، فهل هناك أمل في أن يكون له مستقبل أم أنه سيقضي على نفسه يوما ما؟

إن بقاء هذا العالم المتجه نحو اللاعقلانية دون جهاز حكومي عالمي أصبح له شكل واحد فقط وهو أن تحصل حرب نووية تقضي على كل أوجه الحضارة وسينجو في الأخير عدد ضئيل من البشر، وهؤلاء هم الذين سيعملون من جديد على تأسيس أجهزة ومؤسسات اجتماعية ولكنهم لن يتمكنوا من ذلك لأنهم لن يكونوا قادرين حتى على توفير الطعام الكافي لهم أو نشر المعرفة بين أفرادهم ونقلها إلى الأجيال الأخرى هذه هي صورة العالم دون الرضا بحكومة عالمية مركزية.[2]

اعتمد راسل في نشر فكرته حول الحكومة العالمية بالوعيد والتخويف فهل هذا مقبول بصفة إنسانية ؟ بعدما انتقد المسحية وشَخص المسيح كونه أراد نشر أفكاره

[1]– المصدر السابق. 102–103

[2]– راسل برتراند: هل للإنسان مستقبل، ترجمة عابد الرباط، أقلام عربية للنشر والتوزيع،د.ط، سنة 2019. ص 88

وإقناع الناس بالإيمان بأسلوب الترهيب أين الاختلاف بين الأسلوبين؟ فقد أشار راسل في كتابه لماذا لست مسيحيا؟ إلى أن المسيح ليس شخصاً يمتلك ذلك المقدار من الحكمة التي يراها فيه جميع المسيحيين فأسلوب سقراط كان أفضل من ناحيته الإنسانية فقد كان لطيفاً حكيماً متسامحاً في نقاشاته وعرض أفكاره حتى على معارضيه وهو الأسلوب الذي لم يعمل به المسيح هنا يبدوا راسل على تناقض تام بين مطالبته بوجود حكومة عالمية وبين الأسلوب الذي استعمله في الإقناع هل من الضروري أن تكون هناك حرب أخرى حتى ينتظم العالم في ظل نسق وإيديولوجية واحدة؟ أليست الليبرالية تياراً أخر يسعى للهيمنة بشاكلته الخاصة ؟ في ماذا تختلف هذه العقيدة عن غيرها؟

ربما كانت الحرية كشعار ليبرالي هي التي حركت فيه هذه الرغبة أي تكوين جهاز حكومي عالمي ومع ذلك فإنه قد ابتعد عن الغاية الحقيقية منها يجب أن تكون هذه العالمية أخلاقية إنسانية تنشر مبادئها بواسطة الحوار، لأن قبول دول العالم بهذه الدولة الكونية مرهون بمدى الثقة التي يضعها كل نظام حكومي في هذه القوة لن تكون هذه العملية سهلة فاكتساب ثقة شعوب العالم يأتي بفعل القوانين والمواقف السلمية وليس بمنطق الهيمنة العسكرية، كما أن دخول العالم في حرب بين قوتين قد يؤدي إلى زوال البشرية، وهو ما حدث أثناء الحرب الباردة بين الكتلتين الشرقية والغربية وكانت أزمة كوريا خير دليل على ذلك فقد كادت هذه الأزمة أن تؤدي بحرب عالمية ثالثة بين قوتين عظيمتين تمتلك المقدار الكبير من الأسلحة. أما البقية من العالم كانت تعيش لحظات قاسية تنتظر مصيرها في ظل تلك الثنائية القطبية ما بين سنة 1945-1989.

بعد أن جاءت العالمية ذات الطابع الديني التي ميزتها المسيحية والإسلام كان هناك امتداد لهذه الغاية الإنسانية مع ظهور الفلسفة الحديثة ووصولا إلى الحقبة المعاصرة، وكان ذلك بظهور القومية وقيام الدولة بمفهومها الحديث فآمن الكثير من الفلاسفة والمفكرين وحتى الأدباء بإنسانية شاملة من أمثال: دانتي، كروتشه، ليبنتز وكذلك كانط وغيرهم وكان لكل واحد تصوره الخاص لمفهوم العالمية أو الكونية ويرجع السبب الحقيقي لهذا الاختلاف هو نوع المبادئ والأسس التي تقوم عليها هذه النظرة الشمولية.[1]

كتب كانط مقالين أساسيين في هذا الموضوع بالتحديد وهما " مقترحات رجل دولي للتاريخ العالمي" والأخر هو " نحو السلام الدائم" وفحوى هذين المقالين أن الإنسانية دائماً تلمس الوصول إلى حياة هادئة تحكمها قوانين موحدة أو دستور عام يخضع له الجميع لأن أحكامه تمتاز بطابعها العادل والإنساني، أحكام يتفق عليها جميع البشر والأمم الحرة وقد نص هذا المشروع الكانطي على تحديد مجموعة المبادئ التنظيمية للعلاقات الدولية والتي تمكن من الابتعاد عل كل ما يسبب الحروب والأزمات انتقد كانط جميع من أرجع مسألة السلام في العلاقات للاتحاد بين الملوك والحكام بل كان يرى أن صناعة السلام الدائم هي بيد الشعوب المتحررة ذات النظام الديمقراطي النيابي.

هناك مرحلتان أساسيتان يمكن إتباعهما إذا ما أردنا تحقيق هذه الغاية أي السلام والأمن العالمي وأول مرحلة هي تنظيم الأمم في شكل هيئات دولية تعمل على ترتيب العلاقات ومراقبتها، أما المرحلة الثانية فهي العمل على صناعة السلام وهي غاية أخلاقية مثالية وقد تحققت المرحلة الأولى سنة 1945 عندما تأسست هيئة الأمم

[1]– محسن حسن الأبياري: المنظمات الدولية وفكرة الحكومة العالمية، مرجع سابق. ص 33

المتحدة ومنظمة الدول العربية أما الثانية فإنها تبقى حلماً نسعى جاهدين إلى تحقيقه في ظل الأزمات الراهنة.[1]

بخصوص الفكر الشيوعي خاصة مع إنجلز وماركس فقد كان رافضاً لوضع أي هيئة حكومية عالمية لأنه لن يغير من الواقع وليس بإمكانه أن يعيد للإنسان الضعيف كرامته، بل إن السبيل الوحيد لتحقيق ذلك هو التركيز على دور الحزب في تكوين الطبقة القادرة على التغيير، لهذا كانت دعوة ماركس إلى نشوء طبقة البروليتاريا في ظل نظام يحتم زوال الدولة بشكل نهائي ليعوضها المجتمع الطبقي فكل هيئة حكومية مهما كانت أسسها ومبادئها تحمل عوامل انهيارها.

إن قيام حكومة أو دولة عالمية حسب الشيوعيين لن يقضي على النزاعات الحاصلة بل سيؤدي إلى توسيع دائرة الصراع وهو ما حصل مع الرأسمالية التي كانت حسب ماركس تنشد غايتها القصوى وهي تحقيق السيادة المطلقة لأصحاب رؤوس المال دون أي اعتبار للطبقات الأخرى، وكان هذا السبب الرئيس وراء الشعار الذي أطلقه ماركس في خطابه الشهير سنة 1848 " يا عمال العالم اتحدوا فلن تخسروا شيئاً سوى السلاسل التي سوف تقيدكم"، فالقضاء على الظلم حسب تصور الماركسية مرهون بتفجير ثورة عمالية عالمية وليس دولية أو حكومية.[2]

كانت هذه من بين المحاولات التي سبقت راسل في دراسة الأبعاد العالمية للإنسان ولكن لم يوجد بينها ما يحمل مبادئ وأسس سياسية خالصة بل امتزجت بالجوانب الدينية أو الأيديولوجيات والقوميات، أما عن راسل فقد كان شديد الحرص على أن يعطي لهذه الغاية الإنسانية في وضع حكومة عالمية اهتماماً كبيراً وأول خطوة كان

[1]– كانط إيمانويل: مشروع السلام الدائم ترجمة عثمان أمين – الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة،د.ط، سنة 2000. ص 23

[2]– محمد حسن الأيباري، المنظمات الدولية وفكرة الحكومة العالمية. ص 144

عليه القيام بها هي تبيين أهم العقبات التي يمكن لها أن تقف عائقاً أمام تحقيق هذه الوسيلة أو التنظيم مستقبلاً.

من أكثر عقبات قيام هذا الجهاز السياسي العالمي الحرب التي دائما ما تنبع من أسباب سيكولوجية، بحيث تعبر عن رغبات دفينة يطلق عليها راسل " دوافع الحرب" أما الأهداف فهي مجرد محركات لهذه الدوافع المرضية لدى الإنسان خاصة غريزة تأكيد الذات والتي تخلق كل أشكال العدوانية والتسلط لذا يؤكد راسل بأنه يجب أن تتخذ وسائل وآليات تعيد توجيه هذه الدوافع بالشكل الصحيح لأن الغاية ليست قمع ما هو بشري بل الإبقاء على عواطفه دون أن تنتج عنها أي حرب أو أذية وهذه أهم الأسباب التي أخرت وضع جهاز الحكومة العالمية وإن لم تعمل الإنسانية على كبح هذه الدوافع سيصبح من الصعب تحقيق السلام الذي نسعى إليه في المستقبل.[1]

يعتمد تأسيس الجهاز الحكومي العالمي على انتزاع العنصرية الخاصة باللون والجنس لهذا لابد من اختلاط الأجناس في كل رقعة من هذا العالم ليتم خلق تعايش مشترك جنباً إلى جنب دون رد اعتبار لتلك الطوائف والمذاهب التي ترى في الاختلاط أمراً مخالفاً للناحية البيولوجية ومضراً بها لأنه ليس هناك أي دليل علمي يثبت صحة هذا الاعتقاد فكل السلالات البشرية في التاريخ نشأت من خلال الاحتكاك الحضاري وليس بالإمكان أن يكون هناك جنس نقي مثلما كان يعتقد الألمان أنفسهم في عهد هتلر، ولكن يشترط راسل في هذا الاختلاط أن يكون منظم وفق قوانين كتلك التي تنظم

[1]– راسل برتراند: نحو عالم أفضل ترجمة دريني خشبة – عبد الكريم احمد العالمية للطباعة والنشر سلسلة الألف كتاب مصر القاهرة،د.ط، سنة 1956. ص 64

الهجرة وتعمل على تحقيق المساواة بين كل الفئات والأجناس الموجودة حيث يسمح بالزواج المختلط ليتم القضاء على فكرة النقاء التي تشكل المحرك الأول للعنصرية.[1]

وصل العالم خلال القرن الماضي خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى إلى أقصى درجات الجنون الإنساني وكان سبب هذا هو رغبة امتلاك القوة العسكرية المطلقة من كافة الدول، مما نجم عنها السباق نحو التسلح الذي بلغ ذروته منذ سنة 1945 إلى يومنا هذا خاصة بين الكتلتين الشرقية " الإتحاد السوفياتي " والغربية " الولايات المتحدة الأمريكية" أين أصبحت الغاية من البحث العلمي هي تطوير الأسلحة النووية وزيادة طاقتها التدميرية وفي ظل هذا التسابق المرعب أصبح لازماً أن نطرح تساءلاً ما مصير الإنسانية في المستقبل؟ الجميع يعرف عواقب الحرب النووية وأثرها على الحياة وقد كانت تجربة هيروشيما ونجازاكي دليلاً على ذلك، يقول راسل " إن القنبلة الذرية وأكثرها الهيدروجينية قد أوجدت مخاوف جديدة تدعو إلى الشك في تأثير العلم على الحياة الإنسانية".[2]، لهذا لا يمكن أن نتجاوز خطر الأسلحة النووية إلا بإنشاء حكومة عالمية تعمل على تفادي شبح الحرب وخطرها المحدق، هذه كانت مواقف راسل المعادية للتجارب الهيدروجينية فما دامت هذه التجارب موجودة ستكون هناك دائما فرصة ساذجة لأي نظام حكومي للقيام بعمل طائش في حق غيره لذا فمن الواجب أن يتم إيقاف هذه الإجراءات والتجارب من خلال وضع اتفاقيات سياسية عالمية ترأسها قوة تملك زمام الأمور كلها.[3]

[1]– راسل برتراند: أمال جديدة في عالم متغير، مصدر سابق. ص 111–113

[2]– راسل برتراند: أثر العلم في المجتمع، ترجمة صباح صديق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، ط1 بيروت سنة 2008. ص 82

[3]– راسل برتراند: محاورات برتراند راسل مصدر سابق. ص 182

من أكثر المبادئ التي يجب زوالها وإضعاف قوتها هي القومية أو ما يسمى السيادة المطلقة لشعب ما على غيره فقد كانت السيادة رمزاً للأنظمة في عصر النهضة وتعني الاستقرار الحكومي والمطلق الذي يضمن مكانة الدولة إقليمياً وعالمياً، يعتقد راسل أن الأساس الذي تبنى عليه أي قومية هو الميل الغريزي أو الأغراض المشتركة وأحياناً قد يكون لهذه العاطفة الأهمية البالغة أكثر من النصوص القانونية والدساتير يقول راسل " إن هناك رغبة تسيطر على جميع الناس وهي أن يقسموا إلى دول قومية وهذا بطبيعة الحال جانب من الطبيعة الانفعالية للإنسان، فيصبح لنا الاستعداد بأن نحب ونكره فنحب مواطنينا ونكره الغرباء".[1]

يخلق التمايز والاختلاف السياسي بين الشعوب الكراهية ويؤدي للنزعات والأزمات الناتجة عن القومية كتفكير عنصري تستعمل في الكثير من الأحيان كذريعة للعدوان سواءً للدفاع أو لتحقيق المطامع، فالظاهرة العدوانية الناتجة عن القومية هي واحدة حتى ولو تغيرت الوسائل والتسميات فقد يسميها البعض استعماراً ويسميها الضعيف حماية ولكن الغاية الحقيقية هي الإبادة وإلحاق الأذية بالغير وإفناء كل من ليس مرغوب فيه.[2]

يقترح راسل أن تتنازل كل الأنظمة الحكومية في عصره عن سيادتها المطلقة خاصة في مسألة العلاقات الخارجية لتدع الأمور وتسييرها لحكومة واحدة لأن السيادة المطلقة لأي نظام حكومي تدفع نحو التشابك بين المصالح والمطالب خاصة بين الدول العظمى، ولا إمكانية لتجنب ذلك دون أن تنشب الحرب لتفرض الدول العالمية مكانتها السياسية ويتحقق في الأخير مطلب المجتمع المدني، يشبه راسل تنازل

[1]– المصدر السابق. ص 114

[2]– راسل برتراند: مثل سياسية عليا، مصدر سابق. ص 68

الحكومات عن سيادتها المطلقة بتنازل الأفراد عن حرياتهم وصلاحياتهم للدولة أوالقانون الذي يحكمهم بشرط أن يضمن لهم التمتع بالحياة والحرية دون أن يؤذي بعضهم بعض.[1]

يتم تعويض القومية السلبية بأخرى إيجابية وهي القومية العالمية خَلافاً لتلك الوطنية أو القارية أو القطرية، لأن هذه الأخيرة تشكل خطراُ مقارنة بتلك ذات الطابع العالمي، لذا يجب على البشر أن يدركوا المصلحة العامة لأبناء جنسهم فيصبح الجميع أفراد يتشاركون في هذا العالم دون أي فروق في الحقوق والمبادئ، بل سيصبح الكل يشعر بفكرة الوحدة العالمية[2]

فالروح العالمية التي ينادي بها راسل لا تعني طمس الهويات إنما هي شعور يفوق ويتعدى الحدود الجغرافية الخاصة بالبلدان لتصبح المنفعة العالمية هي المحرك الأول لكل سلوكياتنا اتجاه الغير،[3] ويميز راسل القومية الثقافية عن السياسية، فالنوع الأول يعتبر ايجابياً وضرورياً لأنه سبب التنوع والتعدد الثقافي الذي يشبع رغبتنا الفنية كما أنه إضافة إلى التاريخ الحضاري الإنساني فمن الجميل أن نجد هذا التنوع الثقافي الذي يضيف علينا الشعور بالفضول وحب الاكتشاف أما عن القومية السياسية فإنها وجهة نظر سلبية لأنها سببت الكثير من الشر في النفوس.[4]

يجب تزويد شعوب العالم بأفكار في صالح الإنسانية فكلما نشأ الفرد على حب المصلحة الوطنية أكثر من مصالح بلدان أخرى فإن هذا سيعمل على غرس الأنانية

[1]– راسل برتراند: نحو عالم أفضل، ترجمة دريني خشبة، عبد الكريم أحمد.المركز القومي للترجمة،ط2 سنة 1956. ص 82

[2]– راسل برتراند: محاورات برتراند راسل. ص 125

[3]– راسل برتراند: مثل سياسية عليا. ص 85

[4]– راسل برتراند: محاورات برتراند راسل. ص 109

وحب الذات وهذه هي الحالة التي نجدها في زمن الحروب والأزمات لذا عليه أن ينظر إلى المسائل التي تهم أمته بنفس نظرته للأمم الأخرى وألا يجعل غايته هي المصلحة القومية، لم يعن راسل بتنازل الأمم عن سيادتها تخليها استقلاليتها وحرية تسييرها لمؤسساتها وشؤونها الداخلية بل هو يؤكد على ضرورة استقلال كل أمة في تدبير أمورها دون أن تتعرض لتدخل خارجي ولكن بشرط أن لا تتجاوز القانون الدولي الذي تضعه الحكومة العالمية.[1]

وضع هذا الجهاز الحكومي العالمي الكوني الذي أراده راسل مرتبط بمقدمات ضرورية تسبق تأسيسها كقوة واحدة موحدة لكل الأمم وأكثر هذه الضروريات هو أن يتم إنشاء أفراد قادرين على التعايش المشترك وقبول الآخر، فالأنظمة التعليمية هي أكثر وسيلة لنشر الأيديولوجيات ولا أحد بإمكانه أن ينكر هذه الحقيقة، فهناك من البرامج والمناهج التعليمية ما تشكل خطراً أو عائقاً. أما عن تحقيق الوحدة والتعايش السلمي بين الشعوب والثقافات المختلفة فتدريس التاريخ هو وسيلة تستعملها الكثير من الأنظمة السياسية لخلق القومية التي تنشدها وهذه الدول تعمل على غرس التعالي والكبرياء المطلق، ومن الصعب تجاوز هذه النظرة الضيقة لدى بعض الشعوب ففي بعض الأحيان يكون من الأفضل أن يظل بعض الناس غير قادرين على القراءة أو الكتابة. انتبه راسل إلى أن السواد الأعظم من الناس يصبحون مهيئين إلى قبول كل ما تقره أنظمتهم السياسية بمجرد تعلمهم للقراءة، هذا لا يعني أن راسل كان ضد تدريس روح حب الوطنية، ولكنه فقط يرفض أن تصبح الوطنية شعوراً معقداً أو نوعاً من المعتقدات الراسخة في الذهن.[2]

[1]– راسل برتراند: مثل سياسية عليا. ص 68

[2]– راسل برتراند: محاورات برتراند راسل، مصدر سابق. ص 112

إذا ما أرادت الإنسانية إقرار السلام العالمي ونشره يوما ما فما عليها سوى وضع مناهج لتدريس التاريخ، والتي تكون تحت إشراف وتقييم لجنة مسئولة عن الكتب والبرامج بشكلها الموضوعي فعلى كامل الحكومات أن توافق على توحيد تعاليم التاريخ وأن يصبح هذا النوع من الدراسة مركزاً على تدريس تاريخ العالم أكثر من انطوائه على تاريخ قومية أو وطنية محددة، وأن يتم التركيز على قضايا التربية والإصلاح أكثر من الحروب والنزاعات والمعارك فالسلام الذي نبحث عنه مستقبلاً يكون مجرد عبث إذا استمرت هذه البرامج التعليمية الضيقة.[1]

إن ضرورة التربية في بناء وقبول الحكومة التي أرادها راسل يتيح شعور وحدة العنصر البشري وينمي في نفوس الشعوب قيمة التعاون الدولي فبفعل التربية نتجاوز شعور الكراهية والبغض لنستبدلهما بالنية والإرادة الحسنة، فإنشاء مستقبل دون حروب تكون أولى خطواته إقامة سلطة دولية تضمحل بفعلها الحاجة لتاريخ كاذب أو إلى تمجيد القتل أكثر من الحياة،[2] فإذا توفرت هذه الحكومة العالمية فإنها وبدون شك ستكون قادرة على وضع نظام تعليمي وتربوي يمنع أنواع التعليم المفرطة في روحها القومية والوطنية.

من بين النقاط الأساسية التي تستطيع خلق حكومة عالمية هو التقليل من نسبة السكان في العالم فكلما حدث التزايد في النمو الديموغرافي أصبح الصراع أقوى وأكبر بسبب تفاقم خطر المجاعة والأمراض، وبالتالي سيصبح تكتل الدول أمراً ممتنع الحدوث فإذا لم توجد مثل هذه الحكومة لن يحدث أي تنظيم في السكان فصور الصراع الإنساني كانت في معظمها مرتكزة بين جماعتين إحداهما في تزايد والأخرى

[1]– راسل برتراند: التربية والنظام الاجتماعي، ترجمة سمير عبده، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان،ط2. ص 134

[2]– المصدر نفسه. ص 228

ثابتة، وكلما تزايد مستوى القوة استعمل كوسيلة إلى حرمان الجماعة التي يقل عددها وهذه صورة الصراع الإنساني اليوم ولكنها بشكل غير مباشر.[1]

لن يتم تحقيق العدالة في زمن الأسلحة المدمرة إلا من خلال تعيين قانون دولي واحد محايد يَدْرُسُ كل المطالب السياسية ورغم أن هذا الأمل حسب راسل هو غير ميسور وسهل، لكن إذا لم يعمل الجنس البشري على تحقيقه فإن عليه أن يختار إما بين الحكمة أو الموت ويقصد راسل بقبول الحكمة الرضا والامتثال لكل ما تصدره هذه الهيئة العالمية لأن أساس النظام هو احترام القانون وحتى لو كانت الغاية من كل نظام سياسي في دولة ما هو تحقيق هذا المطلب، لكن ذلك لن يكون في غياب القوة التي تسهر على تطبيقه وتعديله بين الحين والأخر ليتماشى مع كل مطالب الشعوب ورغباتها.

كانت العالمية التي أرادها راسل بمثابة تشجيع لمبادرة التعاون وفتح المجال بيننا وبين الآخرين إذ ليس هناك من داع لأي نظام اقتصادي أن يفكر في إنتاج حاجاته من سلع وبضائع بنفسه، بل يجب أن نتعلم كيف نتبادل ما ننتجه من سلع وخدمات مع دولة أخرى حتى تكون الفائدة عامة، وبالتالي ينتقد راسل كل من يدعي حماية بضائعه من التقليد بل يؤكد على أن نظام المبادلات التجارية الخارجية هو أساس في خلق فرص التواصل والاتفاق.[2]

بعيداً عن عالمية التجارة والاقتصاد يأخذنا راسل إلى عالمية أكثر فائدة وأجدر وهي عالمية العلم التي تعني اتفاق كل الأمم على ما يفيد الحضارة الإنسانية فتقدم العلم يجب أن يكون مرهون بجلب المنافع والخيرات لكل الشعوب وألا يكون حكراً على بلاد

[1]– راسل برتراند: أثر العلم في المجتمع. ص 114

[2]– راسل برتراند: مثل سياسية عليا. ص 83

واحدة دون غيرها من الأجدر أن يكون ملكاً للجنس البشري ويؤكد راسل أن العلم ليس شيئاً مادياً تملكه أمة بشكل مطلق لتنفرد به، إنه ملك للإنسانية جمعاء لذا يجب على هذا النظام العالمي السياسي الواحد أن يعمل على خلق التعاون العلمي من خلال أكبر قدر من العلماء في جميع أنحاء العالم، ليكون التعاون مشتركاً ومن أجل هدف واحد وهو خدمة الحياة الإنسانية.[1]

جاء في المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة " لكل دولة الحق في الدفاع عن نفسها " انطلاقا من هذا النص يتساءل نعوم تشومسكي* هل لهذه العبارة أي معنى أمام المد الأمريكي؟ أم أنه مد إمبريالي كما وصفه جون ايكنبري الخبير السياسي في العلاقات الدولية، الذي اعتبر الهيمنة الأمريكية إستراتيجية إمبراطورية كبرى تنظر لأمريكا كقوة مصححة للقانون الدولي ومؤسسة للسلام الدائم[2]، هل كان راسل محقا عندما اعتبر أن الأحادية القطبية أو العالمية الأمريكية هي الأحق بالسلطة كدولة عاقلة تسير بمقتضاها كل العلاقات الراهنة؟

كانت سياسية الولايات المتحدة الأمريكية واضحة لو أن راسل دقق النظر في الطرق والوسائل التي اعتمدت لفرض هذه الهيمنة إنها متناقضة مع مبدأ الحرية والكرامة

---

[1]– المصدر السابق. ص 84 –85

* أفرام نعوم تشومِسكي.(Avram.Noam.Chomsky) ولد في 7 ديسمبر 1928 فيلادلفيا بنسلفانيا أستاذ لسانيات وفيلسوف أمريكي إضافة إلى أنه عالم إدراكي وعالم بالمنطق ومؤرخ وناقد وناشط سياسي. يعمل تشومسكي كأستاذ لسانيات فخري في قسم اللسانيات والفلسفة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا والتي عمل فيها لأكثر من 50 عام له دراسات في مجال اللسانيات، كتب تشومسكي عن الحروب والسياسة ووسائل الإعلام وهو مؤلف لأكثر من 100 كتاب.

[2] –Noam Chomsky : Hegemony or survival America's quest for global dominance, Allen and Unwin – September, 2004. P8

الإنسانية والديمقراطية، لأنها في النهاية ديمقراطية بوليأرشية* صريحة ومباشرة أين تصبح مسؤولية النظام الأمريكي إسناد الحكم لفئة الأخيار دون المبالاة بالرأي العام أوالحركة النقابية المعارضة، حتى أن أبرز المثاليات الأمريكية وهي المبادئ الويلسونية* لم تتردد ولو لحظة واحدة عن استعمال منطق القوة والقمع سواء للمواطنين الأمريكيين أو للشعوب الأخرى، مع هذه المبادئ الجافة والكاذبة تأكد للوسط السياسي الأمريكي أن الإكراه والغطرسة رغم أنها وسيلة مؤذية تبقى ضرورية لترويض العالم وإخضاعه للسلطة الأمريكية.[1]

منذ المثالية الويلسونية الكاذبة أصبحت كل الصناعات الكبرى والعسكرية تندفع لأجل غاية واحدة وهي تحقيق السيطرة الأمريكية ضد ما تسميه الوحوش وتعني بها كل الدول التي قد تعارض التيار الليبرالي الأمريكي وهو ما حصل مع العراق أثناء حكم صدام حسين، كانت وجهة نظر الحكومة الأمريكية واضحة منذ حكم ويلسون إنها تفويض هذا النظام ليكون مصدراً للسلطة والاستقرار والقيم الأخلاقية، وهي وجهة النظر التي نالت إعجاب الكثير من المثقفين الإنجليز والأمريكيين أمثال راسل و جون ديوي وغيرهم من أصحاب الفكر الفلسفي الليبرالي، ولا يمكن صناعة هذه الغاية إلا من خلال إقرار القبول بأداة حكومية واحدة، وفي هذه الحالة تصبح المراوغة السياسية فناً يستعمله النظام لفرض مبادئه وهو ما حصل أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية لهذا

* البوليارشية Polyarchy أو «ملأ المرجعيات»، مفهوم الذي ركز عليه مطولا عالم السياسة الأمريكي روبرت دال، وهو النظام القائم على الاختلاف في النخب المتحكمة، بين التي تملك الحصة الأكبر من الثروة وتلك التي تملك القوة وتلك التي تمسك بالإدارة. واقعية دال المحافظة دفعته لشبه المرادفة بين البوليارشية وبين الديمقراطية. فبدلا من النظر بمعايير الديمقراطية من تحت (درجة ونوع مشاركة المواطنين) اعتمد منظار النظر من فوق.

* الويلسونية تنسب إلى الرئيس الأمريكي السابع والعشرين وودرو ويلسون 1856-1924، صاحب الإصلاحات العديدة والداعي إلى الليبرالية الجديدة في داخل المجتمع الأمريكي، والبنود 14 لإحلال السلام على الصعيد الدولي بمنظور أمريكي.

[1] –Noam Chomsky : Hegemony or survival America's quest for global dominance. p5

فلا بديل عن ذلك، لأن الثورة الحقيقية التي يجب أن تقوم بها الديمقراطية هي القضاء على الفضوليين والمعارضين، والذين يسميهم النظام الأمريكي الجهلاء بالحرية أوالقطيع الذي يجب أن يرضى بالولاء في كل شؤون الحياة السياسية والاقتصادية لسلطة واحدة وهي أمريكا.[1]

بعد هجومات 11 سبتمبر 2001 على الولايات المتحدة الأمريكية كتب نعوم تشومسكي مؤلفاً بعنوان 11 أيلول حيث خالف فيه بشدة موقف أمريكا وأكد أن معاناة الأمريكيين لم تكن مختلفة عما تعانيه الشعوب الأخرى بسبب ما قام به النظام الأمريكي وسياسته الخارجية، فقد أطلق تشومسكي عليها " الدولة الإرهابية القائدة " وبسبب مواقفه هذه نعت في جريدة نيويورك تايمز " الرجل المعادي للأمريكان " وهو اسم أطلقه عليه ممثل الحزب اليميني ديفيد هورويتز.[2]

ومع ذلك فإن تشومسكي لم يصدق أبداً الدعاية الأمريكية التي صدقها أتباع الليبرالية الذين عاصرهم ونعني بهم البرغماتيين الأمريكيين وحتى كبار الفلاسفة الإنجليز أمثال برتراند راسل، لأن المتمعن في مواقف أمريكا سيدرك أنها في الحقيقة دولة فاشلة تملك مؤسسات وهمية لا تقوم بوظائفها الحقيقية، بل هي مجرد شعارات كاذبة مزيفة لا تعبر عن حقيقة المجتمع الأمريكي، إنها مجرد انعكاس لإرادة أشخاص يتحكمون في مجريات الحياة السياسية والاجتماعية في أمريكا.[3]

---

[1] –Ipid.p 4–5

[2] – نعوم تشومسكي: أشياء لم تسمع بها أبدا ...لقاءات ومقالات، ترجمة أسعد الحسين، دار نينوى للنشر والتوزيع، سنة2010. ص 95–96

[3] – المرجع نفسه. ص 98

الفصل الثالث: قيمة برتراند راسل في الفلسفة المعاصرة

المبحث الأول: فلسفة التربية عند برتراند راسل

المبحث الثاني: مكانة برتراند راسل في الفلسفة المعاصرة

المبحث الأول: فلسفة التربية عند برتراند راسل

يتناول هذا المبحث بالتحليل أهم أراء برتراند راسل في مجال التربية ومضامينها وكذا غاياتها الكبرى بغرض تبيان مدى إنسانية مشروعه ومنهجه التربوي، فقد أدرك في مرحلة مبكرة من حياته مدى أهمية العملية التربوية في أي نظام سياسي حديث كان قد عاصره أو سبق عهده بسنوات، أدت التربية الأحيان إلى خلق الروح القومية الضيقة في معظم شعوب العالم وحضاراته، لهذا سعى راسل إلى قراءة معظم المناهج والبرامج التربوية من أجل تقييمها ومعرفة القدر الذي تحمله من قيم إنسانية ذات أبعاد كونية عالمية.

كانت التربية إحدى أهم الوسائل التي تستعملها القوميات الحديثة في أوروبا وحتى بقية ربوع العالم لتنشر مبادئها وإيديولوجياتها التي تؤمن بها، فقد كان الانجليز والفرنسيين وحتى الألمان يضعون برامج تربوية تغرس في نفوس المتعلمين منذ نعومة أظافرهم الشعور بالرفعة على غيرهم، لدرجة يصبح فيها هؤلاء المتعلمين مثل الآلات المبرمجة للعمل المسلح والحرب أكثر من كونهم بشراً يحملون مبادئ السلام والحب والحرية.

لهذه العملية دور كبير وفعال في تكوين الشخصية الفردية والاجتماعية ولكن هناك كذلك ارتباط وثيق بينها وبين الأبعاد السياسية لأي نظام دولي ومعرفة هذه العلاقة ثم أخذها بعين الاعتبار هو أولى الخطوات في إعادة بناء ما يسميه راسل المجتمع السلمي المتحرر من الأفكار الفاسدة، ولكن بحوث الفلاسفة والتربويين والمنظرين لهذه العملية لم تنتبه للعلاقة بين التربية والسياسة وهي أكثر المسائل التي عنى بها راسل وصب عليها اهتمامه البالغ، فرغم أن سابقيه من فلاسفة التربية قد كان لهم مؤلفات

متعددة ومختلفة لكنها مع ذلك ارتكزت على فهم طابع الطفولة والمراهقة دون الغوص في الأبعاد الكبرى لعملية التربية وهي الأبعاد السياسية والأخلاقية والإنسانية.[1]

التربية وسيلة لتنمية ملكة التفكير والذكاء عند الأطفال لهذا دعا راسل لاحترم هذه الفئة كما بين ضرورة حصولها على كامل الحقوق سواءً من ناحية منحهم تعليماً منظماً أو تزويدهم بمعرفة صحيحة وعادات أخلاقية رفيعة وإنسانية أو أن نكونهم كأشخاص صالحين في المستقبل، ولكن يجب الحذر من أن يصبح المنهاج التربوي سلاحاً سياسياً لا يحترم مبادئ العدالة والحرية المطلوبة في أي مجتمع إنساني.

هذا المطلب الأخلاقي أي العدالة يرتبط كثيراً بمضمون العملية التربوية التي يقوم بها المجتمع لأن تحقيق المساواة والحرية لا يأتي دون تربية يكون جوهرها مبني على تصور ايجابي لكل مقومات الحياة الهادئة والطيبة، وهذه العملية لا تحتاج حسب راسل إلى اختيار من لهم الذكاء الخارق وعزلهم عن البقية مثلما كانت التربية القديمة بل يجب أن تحدث بشكل متساوي، وهنا تظهر أهمية المسؤولية الكبرى التي تسند إلى منظري العملية التربوية وإذا ما كان هؤلاء على علم بقوة السلطة وأثرها في التربية هنا يقول راسل " على المربين أن يخترعوا الطرق المناسبة التي تسمح باستعمال السلطة دون المساس بروح الحرية في حياة المتعلم"[2] فأحسن تربية هي التي تشبع المتعلمين بمبادئ الاحترام للآخرين، وهي الغاية التي افتقرت لها تلك الأنظمة الآلية الجامدة حيث كان المصلحون يبغون تقييد الطبيعة الإنسانية وبرمجتها بمجموعة قواعد تضعها سلطاتهم.

[1]– راسل برتراند: نحو عالم أفضل، مصدر سابق. ص 117

[2]– المصدر نفسه. ص 118–119

يعتقد راسل أن فرض البرامج التي تضعها الحكومات على المدارس الخاصة بالأطفال هي من تجعل منهم مجرد قالب من الصعب تغييره فينشأ المتعلم بنوع من التوتر والقلق الروحي والقسوة على الجسد، لهذا يجب ألا تسند البرامج التربوية إلى رجال لا تتوفر فيهم خاصية الاحترام فيحاولوا أن يخضعوا كل من يتربى على أيديهم إلى نفس المبادئ التي يؤمنون بها وبالتالي سيحطمون في المتعلمين أمالهم لتتطفئ فيهم نشوة العزم والخير والحياة، هدف التربية هو الابتعاد عن إعداد الأطفال ليكونوا في المستقبل أدوات تحقق ما تسعى إليه الدولة فكلما تم إخضاع هذه العملية لسلطة الدولة أو الدين أو مؤسسات المجتمع الكبرى فإن الفرد سيفقد الكثير من القيم الإنسانية، فما لاحظه راسل أن معظم المنظومات التربوية التي كانت في عصره لم يكن همها مصير الشباب في المستقبل بقدر ما كانت تسعى إلى خلق أجيال تخدم مصالحها وأوضاعها وتتفق مع كل مبادئها.[1]

تندفع معظم التربيات المعاصرة إلى إعداد الأفراد نحو النجاح المادي الملموس أو ما يمكنه تسميته بالدنيوي فتجدها تركز كامل اهتمامها على أن تصنع في المستقبل رجالا و نساء لهم مكانة سياسية واقتصادية مرموقة فيصبح اهتمامها بطرق النجاح المادي أكثر النقاط التي تركز فيها مجوداتها، وكأن النظم التعليمية اليوم لا تعمل على تزويد الإنسان بالنمو العقلي والروحي بل تراها تتسارع في خلق استعدادات آلية تحل مكان التفكير الحر، إن للتربية أهدافاً لابد من أن تعمل كل بلدان العالم على تحقيقها وهي أن تعلم شعوبها القراءة والكتابة وتفتح للجميع أفاق اكتساب المعرفة الضرورية في

[1]– المصدر السابق. ص 119–120

الحياة اليومية مثل الطب والهندسة والقانون واللغات، ولكن عليها الحذر عندما تلقن بعض المواد الأخرى مثل الدين والتاريخ حتى لا تجعل منها أيديولوجيات عنصرية.[1]

الدين والتاريخ هما من بين المواد القابلة لإثارة الجدل خاصة إذا لم تتقن الحكومات طريقة تدريسها وهي بذلك ستحدث ضرراً كبيراً، لأن هذه المواد تتصل بالمصالح الكبرى للبلاد وتستعمل لنشر وجهات النظر، فالتاريخ يستخدم كأداة تمجيد وترسيخ لفكرة الوطنية التي يراها راسل سلبية على المنظومة التربوية فهي تعلم النشء أن بلدهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم ورجالهم ونسائهم هم الأحق والأجدر والأفضل من الجميع.[2]

انتشرت في الآونة الأخيرة الكثير من الآراء الزائفة في التربية التي تحث على إشعال روح الوطنية المتعصبة لذلك وجب أن يتم وضع بعض البرامج التي تدعم العلاقات الطيبة والحسنة بين الدول، وهذه البرامج تكون تحت إشراف لجنة دولية تمتاز بتفكيرها المحايد غير المتحيز نحو أي نزعة معينة أو أيديولوجية ما، فالملاحظ أنه كلما سيطرة سلطة الدولة ومؤسساتها على البرامج التربوية تعمل على خلق اتجاهات معينة ومعتقدات تمنع الناشئين من التطلع إلى اكتساب مبادئ يشتركون فيها مع غيرهم حتى ولو اختلفت كل المقومات الدينية واللغوية والثقافية.

يذكر لنا راسل في كتابه أسس لإعادة البناء الاجتماعي أن معظم منظري الكتب التربوية لم يدركوا حقيقتها وأهدافها الكبرى فقد اعترف في صفحات هذا الكتاب أنه لا يملك المعرفة المطلقة في هذا الميدان من البحث سواءً عن الأطفال أو عن التربية والتي تخول له أن يكمل نقائص النظريات التي سبقته، ولكنه مع ذلك يطرح سؤالاً

[1]– راسل برتراند: نحو عالم أفضل، مصدر سابق. ص 120–121

[2]– المصدر نفسه. ص 122

جوهرياً يتعلق بعملية التربية وعلاقتها بإعادة بناء المجتمع الإنساني الصحيح لأن النظريات التي سبقته قد أهملت هذه الغاية الأساسية من عملية التربية.[1]

عادة ما تستعمل التربية كآلة تغرس في المتعلمين وعقولهم مجموعة الأفكار التي يحملها المصلحون وهم بدورهم أدوات طيعة مستعدة لخدمة النظام ومختلف مؤسساته دون أن يعير هؤلاء أي اعتبار للأجيال التي يغرسون فيها أفكارهم، فيصبح المتعلمون في أي مجتمع غير قادرين على التفكير الشخصي الحر بل سيجدون أنفسهم ملتزمين بأفكار وعقائد غيرهم، في هذا الشأن يقول راسل " لو يحترم المصلحون حقوق المتعلمين لما كان هناك مجال في أن تصبح التربية سلاحاً سياسياً"،[2] لأن جوهر عملية التربية يتمثل في بناء وتحضير إنسان المستقبل البعيد عن العنصرية والقومية ويتطلب تأسيس هذا الجوهر الخاص بالتربية نشر الأفكار الإيجابية في كل نظام تعليمي كمثل العدالة الحرية والمساواة. إن أجيال المستقبل في أي مجتمع إنساني هي تحت رحمة برامج التربية ومن يسهرون على وضعها لذلك يجب أن لا ينخرط في هذا المجال أشخاص لا توجد لديهم الطرق والوسائل السلمية التي تنمي الروح الأخلاقية والقيم الإنسانية والاحترام للآخرين في نفوس الأفراد.[3]

تحولت التربية في مائة سنة الأخيرة من كونها مهارة تتعلق بإنماء الجانب المعرفي لدى المجتمع الإنساني وتزويده بآليات التفكير الصحيح إلى كونها اليوم أكبر الفروع الخادمة للمجتمع، ففي الأجيال السابقة كان المربي أو ما نسميه المدرس أو المعلم مجبراً على أن يكون من ذوي المعارف والحكمة حتى يكون له الأثر الفعال في محيطه الاجتماعي وتكون كلماته مسموعة ومؤثرة، لكن أنظمت التعليم الكلاسيكية هذه لم تكن

[1]– راسل برتراند: نحو عالم أفضل، مصدر سابق. ص 122

[2]– راسل برتراند: أسس لإعادة البناء الاجتماعي، مصدر سابق. ص 120

[3]– المصدر نفسه. ص 120–121

منظمة أو مراقبة من طرف لجان محددة بشكل دقيق، فقيمة المربي عند القدماء كانت فيما يتركه من مؤلفات تخليدا لاسمه وعقيدته الفكرية التي يؤمن بها، فقد حكم على سقراط بالموت وأفلاطون بالسجن كما قيل عنهما ومع ذلك فإن هاتين الحالتين لم تقف أبداً عائقاً أمام نشر أفكارهما جيلاً بعد جيل.[1]

ليس من اللائق بأي حال رفض كل تعليم يضعه الجهاز الحكومي ولكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار المخاطر التي تنجم عنه كتلك التي ظهرت أيام النازية الألمانية والفاشية الإيطالية أو في روسيا مع تعاليم الاشتراكية، فحيثما وجدت مثل هذه العقائد قلت معها إمكانية وجود أناس يملكون مقداراً كبيراً من الذكاء والتفكير الحر، فبسبب تعاليم النازية والاشتراكية أصبحت فئة الشباب أقل تعقلاً وأكثر جهلاً بما يحدث خارج ثقافاتهم، لأنهم لم يعتادوا على النقاش الحر بل تشبعوا بروح القومية المتعبة وبفكرة إنسان القطر الواحد الذي لا يملك أي قاسم مشترك مع غيره من الناس في أقطار أخرى من العالم، وستكون نتيجة هذا وخيمة على الإنسانية فلا يمكن أن نتصور حضارة مشتركة بين البشر إذ لم نصمد أمام شراسة فكرة القومية والوطنية.[2]

اتبعت معظم الأنظمة الدولية في مطلع القرن 19 مبدأ تقليل البعثات الطلابية وتكوين الأساتذة والمنظرين التربويين خوفاً من أن يعجب هؤلاء أو أن يتأثروا بمناهج وبرامج غيرهم في الأقطار الأخرى من العالم، وقد وصل الأمر بهذه الأنظمة أن تضع قانوناً يمنع من التدريس كل من لا يحمل جنسيتها فقد كان هناك ميل في انجلترا للاستغناء عن الفرنسيين والألمان في تدريس لغاتهم هذا لأنهم لا ينتمون لنفس القومية

[1]– راسل برتراند: بحوث غير مؤلوفة، مصدر سابق. ص 120

[2]– المصدر نفسه. ص 128

وتقل مثل هذه الأفكار بشكل كبير في البلدان التي تنتشر فيها مبادئ الديمقراطية والحرية.[1]

أهم سؤال يجب أن نطرحه حول عملية التربية هو ما الغاية التي نرجوها منها: هل هي إزالة العوائق التي تقف أمام نمو المجتمع الإنساني؟ أم أن التربية هي تدريب الأفراد ليكونوا صالحين داخل مجتمعهم؟ وفي هذه النقطة يشير راسل للاتجاه الهيجيلي الذي لم يعرف الاختلاف والفرق بين الفرد والإنسان الصالح، لم يتخذ راسل من هذا موقفاً مؤيداً أو رافضاً رغم أن وجهة نظر هيجل كانت نتيجة تفكير ميتافيزيقي بعيد عن الواقع، لكن راسل يرى أن هناك ميزات أساسية لما يسمى بالموطن كفرد والفرد كإنسان فالميزة الحقيقية والأساسية التي نجدها عند المواطن هي التعاون الذي لا يكون إلا عند وجود هدف واحد وجاهز يتعاضد به، وليس بمقدور أي شخص أن يمتلك قناعة بمفرده في أن يلبي مطلب التعاون مع جميع الناس بمحض إرادته دون أن يغريهم بإتباعه والاتفاق معه. فالمواطن هو ذلك الفرد الذي تتصوره وتشكله الحكومة ليصبح معجباً بنظامها القائم.[2]

للوطنية أشكال مختلفة تنتج من خلال مخططات تربوية تدرب المواطنين وتجعلهم على استعداد لتقديم أنفسهم في سبيل الاحتفاظ بما تم غرسه فيهم ولكل نظام تربوي نموذج يسعى إلى تدعيمه فالأمريكيون يمجدون جورج واشنطن وجفرسن والانجليز يمجدون بوريفيا، أم الأمم الغربية جميعاً تمجد نموذجاً دينياً وهو شخص المسيح، ولكن في نفس الوقت لا تقبل المبادئ السياسية والفكرية التي كان يحملها هؤلاء وقد يسجن كل من يشاطرهم تلك الآراء، فولاء المواطن لا يكفي بل يجب أن تنعدم فيه القوة على

[1]– المصدر السابق. ص 123

[2]– برتراند راسل: التربية والنظام الاجتماعي، مصدر سابق. ص 15

خرق القانون وبالتالي لن يكون هناك رجال عظماء في تاريخ الإنسانية، إن هذه الرغبة التي ملأت قلب راسل وذهنه ليس تدعيماً لمفهوم العصيان أو الفوضى وإنما هو تشجيع للحرية فهدف أي دولة حالياً هو تدريب المواطنين داخل الجماعة وجعلهم يمتلكون عقلية واحدة، فقد كانت التربية في القرون الوسطى تربي الأفراد ونموذجها في ذلك الكاهن وفي عصر النهضة والبرجوازية كان نموذجها الجنتلمان، أما فيما يخص القرون الوسطى فقد كانت الغاية القصوى في النظام التربوي هي الوصول إلى نموذج الإنسان الذي يخشى الإرادة الإلهية ولهذا المواطن صفات منها الكياسة والعبادة وهي صفات المواطن المجرد من السلطة السياسية الذي تصبح علاقته غير مبنية على النصوص القانونية التي تضعها الدولة أو مؤسسات المجتمع بل تنجم عن شعور روحاني داخلي.[1]

إن انضمام الإنسان إلى الجماعة التي يتعاون معها ويقاسمها معظم لحظات الحياة له أسباب مختلفة فقد يجتمع معهم لتحقيق أهداف مثل الثراء والمكانة وأحياناً أخرى قد يكون سبباً دينياً فينظم إلى جماعة أخوية، أو قد يكون غرضه تحقيق الهوية من خلال تقوية رابط الدم وفي جميع هذه الحالات سيستعمل وسائل مختلفة ليحظى في الأخير بشعور العظمة والمكانة داخل الجماعة، وهو ما يقوي فيه عاطفة الوطنية فكلما وجد هدفاً مشتركاً بين الناس داخل القطر الواحد استمر بينهم التعامل وكلما قل حل مكانه الانشقاق.[2]

وتعتبر الدولة أقوى التنظيمات البشرية التي يرغب أي شخص في الانتماء لها كعضو ايجابي يحقق أهدافها كبقية أفراد القطيع، هذا ما يجعل الدول الحديثة تضع

[1]– المصدر السابق. ص 17

[2]– المصدر نفسه. ص 126

مجموعة من الأهداف وتقويها داخل ما تسميه المواطنين الذي ينتمون ويخضعون لحكمها ولهذه الأهداف المشتركة شكلان هما الداخلية والخارجية تتمثل الأولى في احترام القانون ومؤسسات الدولة والتقاليد والنشيد الوطني وتاريخ البلاد، أما عن أهدافها الخارجية فإنها تعمل على صنع مواطن يدافع عن ترابها بكل روح عدوانية وهي فائدة مطلوبة في أي نظام دولي مع التركيز على استعمال هؤلاء الأفراد في خدمة المصلحة الاقتصادية الخارجية والنمو بها، وكثير ما يستعمل المواطن ضمن الأهداف الخارجية للدولة كوسيلة لتدمير غيرها من الشعوب والدول ونزع ثرواتها وتهديدها وهكذا يصبح كل فرد ينتمي لنظام يحمل مثل هذه الأهداف إنساناً مجرماً بشكل قانوني وأخلاقي فلا يعاقبه القانون لأنه يسمى وطنياً أو ثورياً شجاعاً.[1]

تعمد الكثير من الدول والمجتمعات الحديثة على إعداد وتحضير المتعلمين سوءً أولادا أو بنات للإخلاص الاجتماعي اتجاه الدولة التي ينتمون إليها بصفتهم مواطنين يجب عليهم العمل بكل ما تفرضه حكوماتهم وما تقوم به من توجيهات دون أن يتساءلوا أو ينتقدوا قراراتها، وهذه الحالة من الخضوع الكلي الذي بلغته الشعوب اليوم هو السبب الأول والرئيس وراء شيوع الجريمة المبررة أخلاقياً وقانونياً في نظر الكثير من الأمم والأنظمة، وبذلك فإن تربية الوطنية والمواطن في وقتنا الحاضر تشبه تعاطي المخدرات أو قد يكون لها خطر أكبر وكلما توسع هذا الأسلوب التربوي واستمر قل معه فعل التحضر.[2]

إن تربية الوطنية هي شعور وتاريخ كاذب يعلم الأجيال أساليب الحرب والقوة أكثر من تعليمهم القيم الأخلاقية والإنسانية، فالملاحظ أن بعض الأمم تضع في برامجها

[1]– برتراند راسل: التربية والنظام الاجتماعي، مصدر سابق. ص 128–129

[2]– المصدر نفسه. ص 131–132

التربوية دروساً تعلم فيها لأبنائها أن أخطاء غيرهم هي شر يجب القضاء عليه بكل مجهوداتها المتوفرة، لهذا تستعمل الدولة الحديثة كل الأساليب لتنمي شعور الوطنية وتجعله أكثر فاعلية وانتشاراً.[1]

على التربية أن تكون وسيلة نبذ لكل سلوك فيه مضرة سواءً للفرد أو الجماعة وبتعبير أوسع أن تتوافق مع المثل العليا للخلق الإنساني فكلما اختلفت هذه المثل أصبحت لعملية التربية غايات تتضارب حسب مصالح كل أمة، وهذا النوع من التربية هو تلقين للعقائد ومن هنا يستخلص راسل نوعين من التربية أولها تلك التي تعتبر وسيلة لنشر مبادئ أيديولوجية فاسدة، أما النوع الثاني يعلم الأجيال كيفية الاستقلال في إرادة الحكم وهي مسائل من الأجدر عدم الخوض فيها بل من الأحسن وضع خطة محكمة تنظر في أغراض التربية من ناحية الجوانب الفردية والجماعية وهي أول خطوة نحو صناعة تربية في شكل مادة خام متوفرة في كل اللحظات التي نعيشها في زمننا الحاضر، وليس لعملية إصلاح النسل وتحسين السلالات كما يدعي البعض أي فائدة في تنمية صميم العملية التربوية ومسائلها.[2]

يميز راسل بين نوعين آخرين من التربية تلك التي تهذب الخلق وأخرى تسعى إلى التحصيل المعرفي وتسمى الثانية بعملية التعليم وتتناول تربية الخلق مناقشة أهم الفضائل والقيم، فقد كان جون لوك وجون جاك روسو من أهم رواد التربية قبل القرن 19 نتيجة محاولتهما في تجاوز أخطاء وهفوات سابقيهم، ولكنهما في نفس الوقت لم يبحثا في القضايا التربوية العالمية بل ركزا اهتمامهما على تربية الخلق وعلى التحصيل المعرفي لدى الطبقات الأرستقراطية التي كانت تضع لأبنائها مربي خاص وهو نظام لا

[1]– المصدر السابق. ص 134–135

[2]– راسل برتراند: في التربية، ترجمة سمير عبد، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت،د.ط. ص 15–16

يمكن إتباعه من طرف كل طبقات المجتمع الإنساني بل تحظى به تلك العائلات الغنية المحظوظة وبالتالي يستحيل أن تسود مع هذه المبادئ التربوية فكرة العدل لأن تربية روسو ولوك لم تكن ميسورة لجميع فئات المجتمع، ولم تعط الفرصة بشكل عادل فالتربية الحقيقية التي يجب أن نطمح لبلوغها مستقبلاً تمنح كل شخص الفرصة لنيل مستوى معرفي وأخلاقي معتدل، وأحسن نموذج للتربية هو أن يكون ديمقراطياً رغم أن تحقيقه في أرض الواقع ومن خلال الإيديولوجيات المنتشرة يبقى أمراً غير ممكن الحدوث من أجل هذا اهتم راسل بفكرة الديمقراطية في التعليم والتربية وهو الأمر الذي انعدم بشكل كبير في مؤلفات جون لوك وكذلك روسو.

انتقد راسل ما يسمى عند البعض من الفلاسفة فكرة الاستعداد الفطري لدى الإنسان خاصة في شكلها التربوي لما لها من ضرر على تحقيق فكرة المساواة والابتعاد عن تصنيف المتعلمين أو المعلمين على حد سواء، كمثل بعض الأمم التي كانت تحتكر التعليم العالي على طبقات معينة، مجرد الأخذ بوجهة النظر هذه يتولد تحطيم لكل تقدم إنساني في عملية التربية وبالتالي يكون مصير هذه الأخيرة منحطاً لذا علينا أن نقترب تدريجياً من التربية الديمقراطية بأكبر أقدر ممكن.[1]

ذكر لنا راسل اتجاهاً ظهر في التربية تميز بديمقراطيته ولكنه حمل الكثير من الجدل وهو ما عرف بالتربية النفعية والتربية الزخرفية والتي ركزت على إعطاء فهم جديد لهذه العملية الإنسانية، تميزت التربية الزخرفية ببحثها فيما يخص تهذيب الروح بحثاً عن السيد الأنيق والسيدة الأنيقة وهي أقرب إلى التربية الأرستقراطية لاهتمامها بالآداب القديمة والفنون المستظرفة، أما عن الجدل الذي حصل فهو في أسبقية فكرة المنفعة على فكرة الزخرفة في التربية وقد ركز راسل اهتمامه على فكرة النفع في التربية

[1]– المصدر السابق. ص 20

وطرح سؤالاً جديد: هل ينبغي أن تكون التربية نافعة؟ إذا كان لب النفع هو تلبية الحاجة فسيكون كل عمل يقوم به الإنسان ويؤدي لتحقيق الحاجات وتلبيتها بدوره نافعاً وصالحاً في التربية، ويعط راسل مثال على ذلك بالفلاح الذي يستعمل المحراث كأداة تشق الأرض ولكن شق الأرض سيكون مؤلماً لها وفي نفس الوقت نافعاً لأنه يمكن الفلاح من وضع البذور التي ستنتج القمح الذي ينتج الخبز وهذا الأخير نافع لأنه يحفظ حياة الإنسان من الموت جوعاً، وهنا يظهر سؤال جديد هل للحياة نفع ؟ أم أن لها قيمة ؟ فإذا كنا سنحدد معنى الحياة من خلال النفع فإنها ستكون تارة حسنة وأحياناً أخرى سيئة وهذا حسب الظروف التي تحيط بها.

هدف النفعيين في التربية كان جعلها وسيلة لتحقيق الغايات والمنافع إنهم لا يسعون إلى الإنسان في تربيتهم وإنما يعملون فقط من أجل تعليم الأجيال صناعة الآلات والتحكم بها بحجة أن الآلة تلبي حاجات الإنسان من راحة وغذاء ولباس ومسكن، يقول راسل " وهكذا نجد أن المدافع عن النفعية هو رجل لا يجعل قيمة ذاتية إلا لما يرضي الحس فالنافع عنده هو شيء يسد حاجات البدن ويرضي رغباته"[1] إن هذه حسب راسل فلسفة الجائعين الغائيين الذين ابتعدوا عن التربية الإنسانية الحقيقية وعن مفهوم الإنسان العالمي.

أما عن التربية الزخرفية فإنها تفترض كما قلنا مسبقاً مشروعاً للتربية يعمل على خلق السادة الأنيقين والسيدات الأنيقات ففي بيوت هذه الأسر هناك نوع من السرور النفسي والمحاسن فقد كانوا طبقة فاحشة الثراء، ولكن هل لهذه التربية اليوم حضور واسع مثلما كانت عليه في عصر النهضة الأوروبية؟ أما عن الجدال بين هاتين التربيتين النفعية والزخرفية فإن له سؤالاً واحداً : هل عملية التربية الحقيقية هي التي

[1]– راسل برتراند: في التربية. ص 24

تمتاز بطابعها المادي العملي، أم هي من تحشو وتزود المتعلمين بعقلية الأناقة الفنية والأدبية؟

التربية الحقيقية حسب راسل لا هي الطرح النفعي ولا الزخرفي إنها ذات طابع ديمقراطي تسعى لتجاوز فكرة الحدود والطبقية دون أي تفضيل أو تقسيم فلا هي نافعة ولا هي زخرفية أو أرستقراطية، بل إنها ديمقراطية لا تتداخل فيها هذه العناصر لأن مبدأها الأول هو الحرية والعدل والمساواة.[1]

إن العالم اليوم يطرح أمام الإنسان العديد من الأسئلة والمشاكل المعقدة مما حتم على كل جيل أتى أو سيأتي بأن يفتح المجال أمام طرائق جديدة في التربية دون أن يختل التوازن بين الجوانب الفنية والأدبية والروحية والعملية، ودون أن يهمل أهم حاجات الإنسان الأساسية هكذا عبر راسل عن هذه المسألة بتأكيده أن العناصر الأدبية في التربية يجب أن تبقى بشرط أن تفسح المجال للعناصر الأخرى.[2]

لم يكن فيلسوفنا في التربية رجلاً إقصائياً بل صب اهتمامه على كل أبعاد الإنسان دون تفضيل أحدها عن الأخر فكل من عناصر الفن والأدب وعنصر المنفعة لا يقل أهمية بالنسبة للإنسان الذي نريده ونسعى إليه في برامجنا التربوية، قدم راسل أوجه الاختلاف بين هاذين النمطين من التربية وكذلك حدد نقاط التداخل الممكن بينهما فمعرفة الأدب الراقي والموسيقى في المجتمع الإنساني ينمي فيه الخيال ويبعث فيه السرور النفسي وبدونه يصبح أي تقدم تقوم به البشرية مجرد عمل آلي يخلو من بصمة الإنسان، كما تظهر قيمة التربية النفعية فيما يسمى اليوم بمصطلح العلم ومختلف فروعه فهو الذي يشكل ويغير من طبيعة المادة حتى يحسن الإنسان

[1]– المصدر السابق. ص 26

[2]– المصدر نفسه. ص 29

استعمالها، وهذا الجزء من التربية هو الأصعب بالنسبة للأجيال لأنه قد يلبي فيها الميول المادية ويزيل تلك المعنوية الروحية.[1]

في حديثه عن النظريات التربوية المختلفة يصنفها راسل لثلاثة فروع أساسية ولكنه حكم عليها وأسماها النظريات التربوية السلبية وتتمثل في التربية التي تبحث عن تجهيز كل الفرص لنمو الفرد والقضاء على التخلف، والثانية هي تلك التي تتمسك بمنح الأفراد رصيداً ثقافياً تعمل على تطويره لأقصى الحدود الممكنة، وأخيراً نجد التربية التي تركز على المجتمع أكثر من تركيزها على الفرد حتى تصل إلى غاياتها الحقيقية وهي تدريب الموطنين النافعين للدولة، وتعتبر التربية الاجتماعية هي الأقدم بينهم أما التربية الأولى الهادفة لتحضير الفرد ونموه هي الأحدث ، ولكن مع ذلك فكل هذه التربيات ليست ضالة راسل وغايته لأن هذه الأخيرة غير حقيقية أو مستمرة كما أنها تمتاز بعدم الوضوح وبالتالي فإنه لابد من وجود نظرية أخرى تكون هي الأجدر، هذه التربيات الثلاث التي امتازت بسلبيتها هي جزء من عقيدة تحررية ذات طابع سياسي أكثر منه تربوي منذ زمن روسو، وحتى الاشتراكيون والشيوعيون أصبح لهم الاعتقاد بهذه التربية.أما في الفترة الحديثة أصبح التركيز على تدريب الأطفال سلوكياً وصناعياً لأجل تحضيرهم نحو الاندماج الاجتماعي فكانت الأساليب المتبعة في تحقيق هذه الغاية شبيهة بتدريب الخيول لاعتمادها على أسلوب العقاب، ورغم ذلك فإن هذا النظام التربوي قدم النتائج التي أرادها وحقق ما يسمى بالإنسان القائد أو المالك لقدرة القيادة دون مراعاة الحاجات الإنسانية الحقيقية.[2]

[1]– راسل برتراند: في التربية. ص 29

[2]– المصدر نفسه. ص 20

إن تربية الإرغام البدني والقسوة ليست ذات طابع إنساني إطلاقا لأنها تقود الفرد إلى التخلي عن أكبر المبادئ الإنسانية ليتعاطى مبدأ القومية والكراهية، وهكذا يصبح الإنسان مضطرباً وتتحول رغبات الحياة الايجابية إلى أخرى عدوانية وهنا لن تصبح لدينا إمكانية في خلق علاقات اجتماعية مبنية على السرور، هذا النوع من التربية يدمر الذكاء والرغبة في المعرفة ويسعى إلى حشو الإنسان أو المتعلم بمقدار من المعارف يفوق قدراته العقلية والنفسية، يشبه راسل هذا النوع من التربية بالأسر التي ترغم أبناءها على الأكل سيأتي يوم وتكون لهم كراهية للطعام، هذا حال المتعلمين الذين يرغمون على تعلم يفوق قدراتهم سيأتي يوم وتصيبهم كراهية العلم ويفقدون بذلك القدرة على التفكير الإرادي، ليصبحوا مجرد أفراد يفكرون لإرضاء أولائك الذين أشبعوا عقولهم بالمعرفة أكثر من إرضائهم للإنسانية، فالمجتمعات التي تعلم أجيالها بدرجات زائدة ظناً منها أنها تؤسس لفكرة الإصلاح إنها بعملها هذا تخلق أشخاصاً فاقدين للذوق وجمالية الحياة، إن التخلص من هذه المتاعب يكون من خلال إعطاء المتعلمين في أي نظام تربوي حرية الاختيار للدروس التي تتلاءم مع ذهنياتهم ليشعروا بأن لهم قدراً من الخصوصية والديمقراطية.[1]

ركز راسل على إحدى الفضائل التي يجب أن تتوفر عليها عملية التربية الحرة الاختيارية وهي فضيلة الإتقان لأنه أساس التعاون الاجتماعي بعيداً عن سلطة الدين فالحياة الإنسانية المستقرة والعادية تحتاج لهذه الفضيلة، مضيفاً إليها فضيلة الشرف واحترام ملكية الأخرين[2]، وبعيداً عن تربية الإرغام والقوة التي لا تمتاز بطابعها الأخلاقي والإنساني هناك فئات أخرى من التربية لا تقل ضرراً عن سابقتها وهي تربية الوراثة التي لا تتناسب مع الأبعاد الإنسانية والقيم الروحية والأخلاقية، بل هي ذات

[1]– المصدر السابق. ص 33

[2]– المصدر نفسه. ص 35

أهمية في عوالم أخرى غير العالم الإنساني كمثل الحيوانات والنباتات ولكن نقاش مثل هذا الموضوع بوجهة نظر إنسانية أصبح يطرح كثيراً من قبل السلطات المختلفة من خلال ما يسمى بعلم الوراثة والتطور وعلم السلالات، وطرح هذه القضايا لم يكن كسؤال علمي بل سياسي خالص عرف هذا النموذج انتشاراً واسعاً لدى بعض الأنظمة في العالم مثل إنجلترا وبالتحديد لدى طبقة المحافظين وطبقة الامبرياليين في أمريكا والتي كانت تسعى إلى تنمية فكرة الاختلاف في لون البشرة وهو نوع من التطرف، وفي مقابل هذه الحركة العنصرية وجد المتطرفون وهم رجال ركزوا على ديمقراطية التربية من أجل تجاهل فكرة الفوارق الفردية المعتمدة على اللون أو اللغة والعقيدة.[1]

هناك أساليب وطرق مثلى لتجاوز هذه الأفكار والتقاليد التي لا تنتمي إلى التربية بأي صلة أولها وضع المرامي والأهداف وتصور النتائج التي يريدها أي نظام تربوي وقد تصور الكثير من الفلاسفة والحكماء ورجال الدين والمصلحين التربويين في أممهم أهدافهم التربوية، فكان بينهم اختلاف كبير نتج عنه تمايز في مبادئ التربية ومقوماتها لذا فمن الضروري أن نعد تصوراً صحيحاً للشخص الذي نرغب فيه مستقبلاً، هذه العملية تسبق تحديدنا لرأي واضح عن التربية التي نراها خيراً لأجيالنا فعلى سبيل المثال نجد أن هدف أرنولد توينبي في التربية هو التواضع العقلي أما في فلسفة أرسطو التربوية نجده الإنسان الكريم، وعند المسيح الرجل المؤمن بالحب والأمر به والباعث عليه أما عن كانط فإنه يراها متعددة منها الشجاعة وأحياناً أخرى الرحمة والاستقامة أو الواجب اتجاه الدولة، وفي رأي الحكيم كونفوشيوس هي محبة أولي الأرحام ، تحدث راسل بشكل كبير عن هذه الأشكال من التربية فأبرز وبكل عناية الأهداف المتباينة في هذه النظم التربوية على مستوى أنظمة سياسية مختلفة مثل

[1]– راسل برتراند: في التربية. ص 34

الصين واليابان وأمريكا وبعض بلدان أوروبا الأخرى باحثاً عن أهم ما خلفته هذه الأخيرة ومدى نجاحها أو تحقيقها لأكبر مطالب الإنسانية إذا ما أمكن لها فعل ذلك.[1]

تحدث راسل عن التربية في الصين وبالخصوص تلك التقليدية التي عملت على غرس مجموع طقوس ومعتقدات كونفوشيوسية بكل عناية ودقة بتعليم الأجيال المحافظة على عقيدة الأسلاف وفتح النقاش للمتعلمين، بشرط أن تكون له دائما نتائج قطعية يجب الإيمان بها لهذا لم يكن نقاشاً حراً فهذه التربية الصينية تشبه تلك التي وجدت عند اليونان قديما فبالقدر الذي كان اليونانيون يعلمون في مدارسهم حفظ وتلقين قصائد هوميروس كان الصينيون يحملون أطفالهم على حفظ مأثورات كونفوشيوس، لكن الاختلاف بين هذين الشكلين يظهر في أن التربية عند اليونان كان لها قدر ملحوظ من التطور في مجال الفنون والعلوم السياسية وحتى فن الحرب الذي أحرزوا فيه نجاحاً معروفاً لدى الجميع، أما التربية الصينية فقد أنتجت الاستقرار والتطور في مجال الزخرفة والرسم والعمران والألبسة وفي مقابله فشلت في إنتاج تقدم علمي ذلك لأن الإيمان بالمعتقدات والمذاهب والتفكير المحدود لا ينتج أي نوع من التقدم والرقي فالأمم التي تعمل على ترسيخ مبدأ الحرية في التربية هي التي تتطور وتحفظ نفسها وتزدهر.[2]

بعد حديثه عن الصين قدم راسل النموذج الياباني في التربية الذي غلبت عليه فكرة أساسية عمل النظام التربوي على جعلها هدفه الأول وهي النزعة الوطنية التي تجعل عظمة الوطن أكبر هدف تسعى إليه وكانت مدارسهم في مراكز تكثف فيها عاطفة الوطنية والإخلاص للدولة، لهذا وضعت البرامج والمناهج التربوية من أجل هدف واحد وهو حماية الوطن قبل حماية النفس لأن أسبقية الروح هو جريمة في حق الوطن، كان

[1]- المصدر السابق. ص 38-39

[2]- راسل برتراند: التربية والنظام الاجتماعي، مصدر سابق. ص 39-40

في اليابان كذلك معتقدات لا يمكن الشك فيها إطلاقا من بينها ديانة الشينتو* وبعض العادات والقيم الأخلاقية كاحترام الآباء وتقديس مراكز العبادة كلها يجب أن لا يشك فيها الفرد الياباني، هذا النوع من التربية جعل من المستحيل حسب ما رآه راسل هناك أن يكون أي تقدم بل كل ما يوحى به هو أن المجتمع في اليابان يعيش تحت ظل نظام تربوي مقفل قد تكون نتيجته الوحيدة هي الثورة كأداة للتقدم.[1]

كلما سيطرت المعتقدات على التربية في أي نظام اجتماعي ستكون أبسط الأخطاء سببا للفوضى، وكلما كانت معتقداتنا أقوى أصبحت هي أساس كل أعمالنا ومناهجنا في الحياة، أما إذا ابتغينا التحكم فيها فإن هذا يتطلب إرادة عقلية خالية من الجانب العاطفي وستكون ممكنة إذا ما امتزجت بالإطار المعرفي ذو الطابع العلمي والمنطقي.

كذلك نجد التربية اليسوعية وهي تلك التي اختص بها أباء الكنيسة الكاثوليكية فقد كان همهم الوحيد هو جعل الفرد وسيلة صالحة خادمة لتعاليم الكنيسة ونظرتها وكلما كان الفرد مخلصاً اقترب بشكل أكبر من أن ينقذ روحه من عذاب جهنم وينال بذلك كل الثواب، وهناك أسماء كبيرة في الأدب تأثرت بهذا النمط التربوي مثل فولتير في هذه الشخصية يظهر لنا أن الكنيسة الكاثوليكية حققت مختلف أغرضها من خلال إخضاع الفن للعاطفة، ولكن مع ذلك تبقى التربية بهذا الشكل مجرد تفكير سطحي يحمل الكثير من الأخلاق المنحلة، لذا اعتبر راسل أن فرنسا قد احتاجت لثورتها الشهيرة حتى يتخلص المجتمع آنذاك من الشرور التي خلفتها التربية اليسوعية، والتي

* ديانة الشينتو: الشنتوية هي ديانة متفائلة، حيث تفترض أن الإنسان كائن طيب في الأساس، وأن الشر يقع نتيجة تدخل الأرواح الشريرة، وتنحصر أغلب العبادات الشنتوية في إبعاد هذه الأرواح الشريرة عن طريق تنقية النفس الصلوات وتقديم القرابين للـ"كامي"

[1]– راسل برتراند: التربية والنظام الاجتماعي. ص 40–41

كانت أكبر جريمتها أنها لم تكن تربية محبة للمتعلمين وإنما كل ما أرادته هو تحقيق غاياتها الدينية وليس الدنيوية.[1]

أما في إنجلترا فقد كان للمدارس عيب كبير لا يقل في أثاره السلبية عما تركته التربيات التي سبق الحديث عنها وهذا العيب في التربية الإنجليزية هو طابعها الأرستقراطي فقد كانت المناهج والبرامج التربوية توضع لغرض واحد وهو إنماء القدرات لدى الأطفال وإعدادهم ليكونوا في المستقبل أصحاب نفوذ وسلطة، لذلك اعتمدت المدرسة الإنجليزية في سابق عهدها على غرس فضائل معينة تجعل المتعلم نشطاً وقوياً من الناحية البدنية، أما من الناحية الفكرية فإن العملية كانت تحتاج إلى جعله يؤمن بمعتقدات ثابتة لا تتغير وجعله مقتنعاً بأن له في الدنيا رسالة هامة، وقد تحققت هذه المطالب في التربية إلى حد كبير لدرجة أصبح الفرد الإنجليزي يضحي بالعطف والمحبة ليقوي معتقداته الدنيوية فيضحي بالرحمة من أجل الصلابة وبالخيال من أجل العزم، ومع ذلك بدأت الأرستقراطية تتلاشى في عملية التربية لعدم اتفاقها مع متطلبات العصر وتغيراته الدائمة، لأن شعوب العالم الحديث أصبحت لا تطيع الفكر الأرستقراطي مما دفع الحكام إلى استعمال القوة ضدهم وهي من الأسباب التي شجعت شعوب أوروبا للقيام بثورات ضد أنظمتها الفاسدة.[2]

إن طراز الحياة الجديدة يتطلب الذكاء أكثر من المعتقد والعطف والخيال أكثر من الخشونة والعزم لتقل فكرة الشجاعة الغاشمة وتسود محلها فكرة المعرفة الإنسانية، فقد كانت التقاليد الأرستقراطية في انجلترا سبباً وراء انجرافها لحمى الحرب والصراع، لذلك يجب أن يتوفر في الحكم رجال أحرار وليس مجرد حكام تحركهم قوتهم المالية

[1]– راسل برتراند: في التربية. ص 42

[2]– المصدر نفسه. ص 42–43

ومكانتهم الاجتماعية يدعون الإحسان لرعياهم حتى يتلقوا الكثير من الإعجاب بهم. لهذا انتقد راسل تلك المعاهد التربوية والمدارس العميقة التي تركتها الأرستقراطية نتيجة عجزها الظاهر في التكيف مع حياة العصر ومتطلبات المجتمع العلمي.

بعد تقديمه لنموذج المدرسة الإنجليزية عرض راسل المدرسة الأمريكية العامة التي أصبحت تؤدي نجاحاً في المهمة التربوية لم يبلغه أي نظام تربوي من قبل، وهذا النجاح يكمن في تحويل أي مجموعة من الناس باختلاف فآتهم العمرية والجنسية واللغوية والعقائدية واللغوية إلى أمة تمتاز بالوحدة والتجانس وهذه العملية تستحق ثناء عظيما.[1]

كثيراً ما كان يشعر المهاجرون القاطنون في أمريكا وهم من مختلف شعوب العالم "هنود–عرب–زنوج .." بنوع من الشعور الديمقراطي وحضور للفكر الحر الراقي وللفن والصناعة والتطور العلمي، وهي الأسباب التي جعلت الكثير من شعوب العالم معجبة بالنمط الأمريكي فالمدرسة هناك كانت تعلم الأجيال محاسن عامة بدون أي تلقين لما يسمى بالوطنية الأمريكية، لكنها مع ذلك تغرس في أجيالها عبر البرامج التربوية كالتاريخ والجغرافيا وعلوم السياسة والاقتصاد الاحتقار لعالم الجنوب، والعالم القديم وإنماء الشعور بتفوق العالم الجديد، أما على مستوى الجوانب الفكرية فقد كانت التربية في أمريكا تنظر إلى المستوى الثقافي والفني سواءً في أوروبا الغربية أو الشرقية على أنه مجموعة خرافات وتقاليد تقل في أمريكا أين كان الفرد يعيش وسط قطيع أفقده حريته الفكرية فأصبح مجرد أداة تخدم الهدف الصناعي وهيئات الدولة الكبرى، وبهذا الشكل وبطريقة غير مباشرة سيظهر ضرر أخر في المدرسة الأمريكية العامة وهو

[1]– المصدر السابق. ص 43

تعليم وطنية بحتة بشكل غير مباشر وهذا تحت شعارات مختلفة منها العالم المتقدم والمتخلف وعالم الشمال والجنوب.[1]

إن التربية الإنسانية يجب أن تقضي على فكرة الحدود الجغرافية واللغوية والوطنية والقومية وعليها أن تعتبر المتعلمين والأجيال كلها غايات وليس مجرد وسائل، ومع هذا فالكثير من المنظرين لعملية التربية في أقطار العالم وخاصة أمريكا يرون في المتعلم مجرد أداة وأن ما يقدمه الجيل الذي يتربى كوسيلة هو الذي يبقى أثره دائماً وحجتهم في ذلك أن الإنسان لا تبقى له ذكرى إن هو نشأ كغاية، ولكن هذا تصور التربوي فاسد لأن الأصح هو أن يتربى كغاية إنسانية فأهمية الفرد كوسيلة تعكسها وتظهرها الآثار البعيدة والمستقبلية لما يقوم به من عمل وقد يكون خيراً أو شراً، وهكذا سنقول حكماً مطلقاً ليس بقانون للفطرة الإنسانية وهو أن الطيبين من الأفراد كوسيلة لهم أثار إيجابية حسنة أما الأشرار فنتائجهم عكس ذلك تماماً، لذا فإن أكثر تربية ناجحة هي التي تنطلق من الإنسان كغاية متجاوزة بذلك النظرة المادية له، بل الأحسن أن نرى الناس خيرين أو أشراراً في ذواتهم وهنا ستكون الآثار أقل خطراً من أن نعتبر نتائجهم كوسائل في يد الدولة وهو الذي يحدد مقدار الخير الذي فيهم.

فالتربية التي تعتمد على مبدأ الآداتية كما هو الحال في المدارس الأمريكية العامة ستجعل من المتعلمين مجرد مواد خام تنفذ غاياتهم وخططهم المستقبلية وهذا يؤدي إلى غياب الجانب الإنساني في الحقل التربوي، فأحسن تربية ليست تلك من تعلم الأجيال طرق النجاح المادي إنما هي التي تنمي روح الحب والتسامح، فالعلم والتطور لن يساعد الأمم إذا نقص فيها الحب كمبدأ إنساني يحرك كل علاقاتنا ولا يكون الحب ممكناً في حياتنا إلا إذا اعتبرنا أنفسنا وغيرنا كغايات في حد ذاتها، وإذا نجحنا في ذلك

[1]– المصدر السابق. ص 44

حققنا أكبر غرض من التربية وهو الإنسان الصالح،[1] فكلما كبر فينا الحب كنا أناساً جيدين وستكون لنا القدرة على أن نضع برامج تربوية ناجحة.

ولكن حتى هذه الحالة النفسية التي نسميها حباً يجب أن نعرف كيف نغرسها في الأجيال بشكل صحيح حتى يدركها الفرد ويسمو بها، فمثلا هناك من الحيونات تعلم صغارها الشعور بالحب اتجاه بعضها البعض كالقطط ومع ذلك تجدها تعلمها صيد الفئران واللعب بها، وفي حالة الحروب والأزمات بين الدول هناك انتشار واسع لهذه الظاهرة فالحربيين والقادة السياسيون يفعلون بالصغار من البشر مثلما تفعل القطة بصغارها يعلمون أطفالهم حب أبناء وطنهم وكره أبناء أعدائهم وحتى نتفادى هذه الحالة اللاعقلانية، يجب أن نعمل على توفير بعض الصفات في الإنسان على الرغم من أنها لن تكون واحدة وستختلف بين الشعوب وبين الرجال والنساء، ولن تكون متوفرة لدى الجميع وإن وجدت ستختلف في نسبتها، وهذه الصفات هي نشر المحبة نحو الإنسان دون ربط عامل الحب بالانتماء أو النزعة، كما يجب أن ننمي في المجتمع طبقات مختلفة من رجال فن وعلم وحتى إداريين وسياسيين عظماء وفلاحين وطباخين وأياد عاملة في مهن مختلفة، هذه صفات للرجل أو المرأة ولكنها لا تجعل من أحدهما سامياً مؤهلاً لأن يكون إنساناً صالحاً حتى ولو أتقن صفته الفنية أو عمله، فالتربية الصحيحة ليست تلك التي تجعل من الجميع ناجحين في حياتهم العملية بل إن أهم الصفات التي يجب تلقينها للإنسان هي الحيوية والشجاعة والحساسية والذكاء.[2]

تعتبر الحيوية إحدى أهم الصفات التي من اللازم احترمها في أي نظام تربوي وهذا حتى نحصل في الأخير على أناس صالحين، وهذه الصفة هي ذات طابع فيزيولوجي

[1]- راسل برتراند: في التربية. ص 44-45

[2]- المصدر نفسه. ص 46-47

جسدي أكثر من كونها ذات طبيعة عقلية أو نفسية لأن الحيوية تكون مرتبطة بالصحة الجيدة والقوية وتكون في أوجها عند مراحل الطفولة الأولى ثم تبدأ تتناقص كلما تقدم السن حتى تصبح منعدمة في الشيخوخة، أينما وجدت الحيوية كان هذا دليلاً على أن الإنسان ما يزال على قيد الحياة حتى ولو كانت الظروف التي يعيشها سيئة فهي عامل أساسي في التقليل من المشقة وألام الحياة، فكلما كان الإنسان حيوياً شغل نفسه وحواسه بأشياء إيجابية ليقضي على الهم في داخله وهو ما يكون مانعاً للمحبة والأمل.

حيوية الإنسان هي إنماء لعلاقته بعالمه الخارجي فبواسطتها تقل عاطفة الحسد والكره فالحيوية تشجع على البهجة في الحياة وهذه أفضل محاسنها، فعاطفة الكره والحسد هي من أكثر أسباب التعب والمشقة وإذا زادت فاعلية الحيوية في ذواتنا قلت الأحاسيس السلبية، فقد حصل أن نيوتن وليبنتز رغم أنهما كانا من العقول الراقية لكن رصيدهما من الحيوية وقوة البدن لم يسمح لهما بالتمتع بملذات الحياة وهو ما سبب جدلاً بينهما دمر الرياضيات الإنجليزية لأكثر من 100 سنة.[1]

من الصفات الأخرى التي يجب أن نعمل على تكثيفها في كل مجتمع إنساني يذكر لنا راسل الشجاعة التي لها صور مختلفة ومتعددة، وتعني هذه الصفة في الكثير من الأحوال المقدرة على التجرد من الخوف أو ضبطه خاصة الخوف غير المعقول أوالمرضي الذي يكون سبباً في تدمير الحياة العاطفية لدى الكثير من الناس كالذين يتوهمون الاضطهاد من طرف غيرهم فيصبح هذا الشعور سبباً في صراعهم ضد الكثير من الجماعات الإنسانية، وفي الكثير من الأحيان يؤخذ المتربون هذا النوع من الخوف من كبار السن حتى وإن أضمر هؤلاء خوفهم فإن الطفل يستشعره ، ولا سبيل لعلاج هذا الخوف إذ لم نستعمل وسائل تشفي الناس بعيداً عن القوة والقمع، ففي بعض

[1]– المصدر السابق. ص 48

الأمم يتعلم الرجال الشجاعة من خلال الدخول في غمار الحروب، دون أن تظهر عليهم علامات الخوف من الارتجاف أو الانبهار واصفرار الوجه وتقلب السلوك، هذا النوع من الشجاعة يجر المجتمع الإنساني إلى الكثير من الشرور والأذية، إن التغلب على عاطفة الخوف هو أمر لا تكفيه الشجاعة في الفعل بل كذلك يجب أن يتوفر الوعي بالخوف على مستواه الظاهري والباطني، فأحياناً قد نتغلب على الخوف في شكله الخارجي لكنه يبقى يعيش في داخلنا وبفعله تظهر لدينا الكثير من الانفعالات الغير المبررة أو المفهومة، لذا تبقى أحسن الطرق الفعالة في تجاوز الخوف والتحلي بالشجاعة هو ضبط الغضب والقسوة لأنها تعبير عن الجبن وليس دليلاً على انعدام الخوف، ولا يوجد لحد الآن نظام تربوي ناجح يعرف كيف يضبط الخوف لدى الإنسان ويفعل داخله الشجاعة النبيلة التي تعد إحدى الصفات الأساسية للإنسان الصالح، كثيراً ما يستعمل الحكام صفة الشجاعة في تحريض شعوبهم على استعمال العنف والقوة ضد كل من يعكر صفوهم ومزاجهم ويكون حسب تصورهم عدوا لهم، يقول راسل " إني أتكلم هنا عن نظام الظلم والقسوة الذي تلتمسه الفئات الحاكمة للاحتفاظ بسلطتها وسيادتها"[1]، لهذا لابد من تقوية الأساليب التربوية التي تقلل من حالة الخوف المرضي الذي يجعل الإنسانية تعيش حالة الشك والفوضى والانفلات في القيم الأخلاقية.

أكثر العوامل المساعدة في الحصول على الشجاعة هو توفر الصحة والحيوية لدى الإنسان، مع وجود المرونة والمهارة في التعامل مع المواقف الخطرة التي تواجهه كما يحتاج كل واحد منا تفعيل الاحترام نحو الذات، وهي حالة نفسية تعني أن يعيش الإنسان بوحي إرادته وحريته دون أن يكون مجرد دمية تحركها أياد خارجة عن ذاته وهؤلاء الذين تحركهم سلطة غيرهم لن يمتلكوا إطلاقا الشجاعة، بل سيكونون مجرد

[1]– راسل برتراند: في التربية. ص 49–50

أشخاص يسعون إلى إثارة الإعجاب لدى غيرهم، وقد كان سلوك التواضع قديماً أحد الأسباب الحقيقية في إخضاع النفوس لإرادة غيرها وإشعارها بالمذلة والضعف، وكأن التصاغر في الإنسان هو وسيلة للفوز بالتقدير والاحترام هذا سلوك تربوي خاطئ لا يعطينا أبداً إنساناً شجاعاً يمكنه مواجهة كل مصاعب الحياة، عرف هذا الأسلوب في الكثير من النظم والبرامج التربوية حيث يتعلم الأطفال إما في المدارس العامة أوالخاصة و في الأسر التي يعيشون فيها الخضوع الكلي والمطلق والطاعة التامة لغيرهم، وكلما كبروا صاحبهم هذا الشعور حتى أصبح يقال إن كل الذين يتعلمون كيفية الطاعة والولاء لأسيادهم هم مستقبلاً أفضل الأمرين، هذا التصور الذي قدمه راسل لفعل التواضع والطاعة لا يعني أنه لن يكون هناك في الحياة قادة وأمراء وأشخاص قادرون على اتخاذ أفضل الحلول في أصعب المواقف، ما يعنيه راسل هو أن يتوفر مثل هؤلاء في مجتمعنا ولكن دون أن يحرموا رعاياهم أو من يطبقون أوامرهم حق الاختيار خاصة إذا ما كانت الأغراض التي يسعون إلى تحقيقها مشتركة، مثل قائد فريق كرة القدم هو شخص يخضع له أفراد الفريق مختارين لا مجبرين بهدف الوصول إلى غاية واحدة ينشدونها وبالتالي ليس هناك أي ضرورة لوجود من يأمر ومن يطيع بشكل مطلق.[1]

رغم أن صفتي الحيوية والشجاعة هما إحدى العوامل المساعدة في تحسين التربية الإنسانية الصالحة، ولكن يحتاج كلاهما إلى عاملين آخرين بينهما الكثير من التداخل وهما الحساسية والذكاء، أما عن الخاصية الأولى فإنها تعني كثيراً مصطلح العطف والشفقة على الغير مهما كانت صفتهم أو انتمائهم الاجتماعي أو العقائدي واللغوي.

[1]– المصدر السابق. ص 50

إنها من الصفات الضرورية في مفهوم الإنسان الصالح بمعناه العالمي لا القومي وللحساسية معنيان: أولهما طبيعي يوجد لدى الجميع وهو ذاك المتعلق بمرحلة الطفولة الأولى مثل البكاء والضحك، فقد يبكي الطفل عند بكاء أخيه ولكن ليس هذا النوع الذي نحتاج إلى غرسه في الأجيال، بل هو ما نستشعره بوعينا عند حدوث مصيبة ما اتجاه أولئك الذين ليست لنا بهم أي صلة أو قرابة وهذا الصنف يحتاج في تثبيته لدى الإنسان للكثير من الذكاء، لأن الكثير من الأشخاص قد لا يتأثرون بمعاناة الناس وآلامهم ولا تتحرك فيهم العاطفة إلا إذا كان الألم قد أصاب أحد الذين يهتمون لأمرهم، ويحدث هذا كثيراً في حالة الحرب التي لا تبدوا للبعض من الناس فضيعة إلا إذا أصيب أحبائهم أو جيرانهم بالأذى، لكنهم لن يروا ذلك إذا ما أصابت الحرب والدموية غيرهم من الأمم والشعوب، هذه عاطفة مرضية يجدر إزالتها من كل إنسان وتعويضها بالحساسية الإنسانية التي تعطف على الجميع مهما كانت انتماءاتهم، فنحن اليوم أمام التقدم العلمي نريد أن نؤثر على الشعوب البعيدة عنا لصبحوا جزءاً من منظومتنا الفكرية وإن لم يتأثروا بأفكارنا وعقائدنا فلن يكون هناك أي عطف نحوهم وهذا تعطيل للإنسانية بحدود لا أخلاقية.[1]

أما عن الصفة الأخرى يراها راسل مكملة للحساسة هو الذكاء كأحد أهم صفات الإنسان الصالح المالك لما يؤهله للاندماج الاجتماعي الإيجابي وفي حديثه عن الذكاء انتقد راسل كل الأعراف والعادات والتقاليد والقيم الأخلاقية القديمة لأنها لم تقدر هذه الخاصية الإنسانية، ولم تعمل يوماً على تطويرها أو إنمائها خاصة في الزمن الذي أحكم فيه الدين سيطرته على القيم الأخلاقية والتربوية، فقد كان من المستحب واللازم أن يتزود كل فرد بالفضيلة التي تكون نتيجة عند الابتعاد عن الأفعال الخاطئة، والتي

[1]- راسل برتراند: في التربية. ص 53-54

كان يطلق عليها فيما مضى الإثم أو الخطيئة، هذا النوع من الأفكار سبب رئيسي في عدم احترامهم لعامل وصفة الذكاء الذي تكون له أثار إيجابية في حياة الإنسان، أفضل من تلك الفضيلة الاصطناعية الزائفة التي عطلت منذ أزمنة ماضية عملية الذكاء الإنساني الذي يرتبط بالمعرفة، لأنه كلما زاد مستوى الذكاء نما معه إدراك الإنسان للعالم وقدرته على تسييره بشكل صحيح، وفي نفس الوقت فإن تنمية عامل الذكاء لا يكون بدون تقديم معلومات يستفيد منها المتعلم ويستعملها للتكيف مع مواقف الحياة المختلفة. فتنمية الذكاء هو إحدى أعظم الصفات التي يجب الاهتمام بها لدى أي مشروع تربوي ضمن أي مجتمع إنساني، فقد كان المربون يسرفون بشكل مفرط في تقديم العقائد والأفكار التي يرونها صالحة دون العمل على تزويد المتعلمين بتربية الذكاء.[1]

ومن أهم الوسائل المساعدة على تحفيز هذه الصفة في الإنسان هو حب الاطلاع، ليس ذلك السلبي الذي يكون الغرض منه التجسس على الأمور الشخصية للغير واختلاس النظر من النافذة كما يفعله البعض من خلال الستائر، لأن هذا النوع فيه الكثير من الأذية فلاستطلاع الحقيقي مصدره حب المعرفة والاكتشاف ونرى هذا النوع الايجابي عند بعض الحيوانات مثل القطط التي تدخل بيتاً جديداً نراها تبحث كل ركن من المنزل وتشم كل قطعة تجدها أمامها، وهو نفسه عند الأطفال الصغار عندما نفتح لهم درجاً أو توضع أمامهم مائدة، هذا التعطش والفضول لاكتشاف الأشياء هو نفسه الاطلاع الإيجابي الذي يتوفر عند الإنسان البالغ، لكنه يتراجع كلما تقدمنا في العمر فالإنسان الذي يملك روحاً صالحة يفتح العنان لحواسه وعقله في الاستطلاع على كل القضايا التي تخص الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والعلمية والدينية. وكلما

[1]- راسل برتراند: في التربية. ص 56

ارتفعت مثل هذه الاهتمامات زاد مقدار الذكاء لدى الإنسان وعلى الاستطلاع حتى يكون إيجابياً أن يبعد المنافع الشخصية، وحتى تنمو صفة الذكاء في الإنسان يجب أن يتحلى بفضائل فكرية أخرى غير الاستطلاع كانفتاح الذهن وتقبل الحقائق واحترام الذات والغير، دون التركيز على الأهواء الفاسدة لأن انفتاح الذهن من الصفات التي يجب ترسيخها ضمن كل مشروع تربوي يبغي الوصول للإنسان الصالح مستقبلاً.[1]

على التربية أن تنمي الذكاء الإنساني بعيداً عن تصادم الأهواء والشهوات فكلما نبذنا من حياتنا مثل هذه العواطف حققنا الشجاعة والذكاء، فالمسيحية والاشتراكية لم تنتبه لمثل هذه الصفات ولم تحرر الحياة العقلية للإنسان من أفكارها السلبية ولم تشعره بالراحة أو بأنه إنسان صالح في هذا العالم، لا يتحقق الذكاء في النظام التربوي سوى من خلال تحرر الإنسان من حياة القطيع أو غريزته، فكثيراً ما تسعى التربية في هذين الشكلين أو غيرهما إلى تقوية هذه الحالة النفسية والعاطفية، فيصبح الإنسان مألوفاً على محبة من يبتغي التعاون معه كأسرته أو جيرانه أو زملائه أو الحزب السياسي الذي ينتمي اليه، وهذه عواطف معدية تكون مشتركة بين مجموعة كبيرة من الناس، فقد رأى راسل أثناء حمى الحربين العالميتين الأولى والثانية أن معظم المجتمعات التي شاركت فيها لا تثور فيهم عاطفة العداء إلا إذا استمدوا عوناً في شعورهم هذا من طرف كل فئات المجتمع المحيطة بهم إنها تربية فاسدة لا يجب أن نرضى بها إذا رغبنا في تحقيق قيم إنسانية كونية تشترك فيها البشرية جمعاء تكون التربية هي أساسها وليس العواطف القومية والنزعات العنصرية.[2]

[1]- المصدر السابق. ص 56-57

[2]- المصدر نفسه. ص 59

عندما تتوفر في المجتمع الإنساني صفات الشجاعة والحساسية والذكاء فإن هذا سيرفع من مستوى التربية، فتكون نتائجها مختلفة ومرضية إضافة إلى ذلك سيتحلى الإنسان بمشاعر المحبة الفردية لا الجماعية التي تعكسها أفكاره ومبادئه في كل خطوة يخطوها، وهذا ما يسمى بالحب المستقل في الإنسان الذي لا يخضع لأجواء الجماعة الضالة والعامة من الناس، فكلما وجد ذلك الإنسان المالك لأرائه الخاصة المستقلة ابتعدنا عن غريزة القطيع داخلنا وحققا جزءاً كبيراً من إنسانيتنا، ولن يوجد من يكرهنا بل سنكون مفعمين بالحب من طرف الجميع، يقول راسل " الإنسانية الصالحة لا يمكن لها أن تخلق ولا أن تربو إلا على أيدي أشخاص أحرار لا يهابون"[1]، ويرى راسل أن هناك إمكانية واحدة لإصلاح أي منظومة تربوية مستها الأفكار والعقائد الفاسدة وهي بإنتاج شعور وحدة العنصر البشري وبث روح التعاون، بالقضاء على كل الحواجز والقوميات وأن نعوضها بروح مختلفة، لأن العنصرية التي نراها ونشجع عليها اليوم هي مجرد حصيلة تتركها المدارس غير الصالحة التي يجب نزعها واستبدالها بأخرى أكثر إنسانية تحمل روحا مختلفة وجديدة.[2]

كما يجب على الدولة أن تعلم أجيالها العناية وتنمية الروح الإنسانية على حساب القيم الوطنية، لأن الإنسانية هي بمثابة الأسرة الواحدة التي يجب أن يتأكد جميع أفرادها بأن كل شخص داخلها سعيد، فإما أن تكون السعادة عامة أو لن يكون هناك أي شعور بالآخرين، ونحن نوافق راسل أن تربية الوطنية والقومية وتربية الدين ليست المصدر الأساسي لهذا الشعور الإنساني بل يجب أن يكون العقل الصارم الأساس الذي يشكلها.[3]

[1]– راسل برتراند: في التربية. ص 60

[2]– راسل برتراند: التربية والنظام الاجتماعي، مصدر سابق. ص 136

[3]– Robert.E.Egner, Russell's Best, Paperback, London,1 January 1971. P 143

يقترح راسل إبعاد كل أشكال التربية الدينية والوطنية التي تعمل على بث الخوف في نفوس المتعلمين، لأن هذا الفعل يقلل من الكرامة الإنسانية فهذه المؤسسات مثل الكنيسة والدولة تخرب التعليم بغلقها لأذهان المتعلمين وأرواحهم ومنعهم من إعمال النقد والتساؤل المفضي لليقين، كما أنها تفسد القيم العقلية وروح التسامح وتشجع على التعصب والتحيز الذي لن يكون أساساً موضوعياً للتربية والأخلاق.[1]

من الجدير أن نناقش أكبر المسائل والقضايا التي تخص الإنسان وأن نسعى لإصلاح محتويات وطرق التعليم الفردي والجماعي دون المساس بالقيم الدينية والأخلاق الإيجابية، فالتربية الحقيقية تنمي الخصائص الحسنة في الذات الإنسانية ولا ينبغي أن تشجع على الشك والتعصب، وإنما يجب أن تنمي الاتجاهات الإيجابية في التربية وأن تحذر من الوقوع في الاعتقادات الخاطئة والأيديولوجية لأنها قد تكون قاتلة.[2]

التربية هي مفتاح العالم الجديد لأنها الوحيدة القادرة على خلق أساليب تقدمية تعنى بالفرد، لذا يجب أن يركز كل نظام تربوي في جميع مراحله على تحسين طرق التعليم الإنساني و تطويره ابتداء بفعل القراءة والكتابة مروراً بتنمية قدرات العقل وصولاً بالمتعلم إلى برامج تعليمية ذات النفع العام، كالتشريح وعلوم الطب المختلفة وكل هذه الطرق يجب أن تحترم عامل السن لدى المتعلمين، حتى يصلوا إلى التعليم الإيجابي حيث يتلقى الطلاب تخصصات مختلفة في الآداب والعلوم الطبيعية والإنسانية والرياضيات.[3]

[1]– Robert.E.Egner, Russell's Best. p 142

[2]– Bertrand Russell, Education and The Good Life, H. Liveright, 1954. P 289

[3]– Ipid. page 52

قام راسل مع زوجته دورا بلاك بتأسيس مدرسة داخلية لطفليهما جون وكيت أسماها مدرسة بيكون هيل beacon hill scholl، وكان ذلك سنة 1927 اعتبر راسل هذا المشروع الذي قم به رفقة زوجته دورا عملاً أو تجربة تعليمية اجتماعية تسعى في سياقها لتطوير التعليم التقدمي والأفكار الحداثية حول الزواج وكذلك تربية الأطفال خلال النصف الأول من القرن العشرين[1]، كما قاما بفتح تسجيلات لغيرهما من الأطفال بغرض جعل المدرسة الإنجليزية تتبني طريقة توفير الحرية للناشئين ومساعدتهم على التفكير بأنفسهم حتى يمتلكوا كفاءة التغلب على مشكلات الحياة وتغيير عالمهم للأفضل، أراد راسل أن يحدد نموذجاً للإنسان الجديد الذي يحتاج له العالم مستقبلاً فالأفضل في العملية التعليمية أن لا نحرم الأطفال أي نوع من المعرفة سواءً تلك المتعلقة بالسلوك أو الأخلاق وحتى علوم المنطق لأن أفضل تجربة للتربية هي الديمقراطية دون العودة لتلك الطرق التعليمة التي تفرضها السلطة بكل صورها.[2]

استوحى راسل الأسس التي بنى عليها مدرسته من المبادئ التي تحدث عنها في كتابه أسس لإعادة البناء الاجتماعي، وهي مجموعة من المحاضرات قدمها سنة 1915 كان يهدف بها إلى تنمية الفلسفة السياسية والتربوية لدى الإنسان بعيداً عن الدوافع العمياء، ودون أن ينكر تلك الإيجابية لأنها المصدر وراء وجود رجال عظماء في تاريخ البشرية وهي دوافع مختلفة كالعلم والفن والحب، من هنا اقترح راسل أن يتم استبدال كل مؤسسة تربوية سلبية بمؤسسات أخرى تشجع الإنسان على الفردية وقيم الحرية واحترام حقوق الآخرين، ركزت المدرسة على برامج مختلطة متحررة من عقدة النظام الاجتماعي الانجليزي آنذاك ومنها تلك المتعلقة بالجنس والجسد وعلم التشريح

[1]– Deborah Gorham, Dora and Bretrand Russell and Beacon Hill Scholl, Ottawa,Canada,Kis,5B6. p 1

[2]– ipid.p 9

ومفهوم الزواج والأسرة وطرق تربية الأطفال، إضافة إلى تعليم بعض المهن مثل البناء والطلاء والنجارة والزراعة باعتبار أن المدرسة كانت في منزل ريفي يملكه شقيق راسل الأكبر.[1]

لم تكن فكرة المدرسة هي الأول على مستواها العالمي بل قد سبقه أو زامنه البعض من كبار الفلاسفة والمربين في تشكيل مثل هذه المدارس الخاصة بنوعية برامجها وأفكارها التحررية ونجد منها مدرسة الإصلاحيين الجدد في أمريكا مع جون ديوي، وكذلك أسس بول غيهيب وإديث كاسرير "مدرسة أودنوالد*"Odenwaldschule في ألمانيا سنة 1910، وفي إيطاليا كذلك عملت الباحثة النفسانية ماريا مونتيسوري على وضع طريقة جديدة لتدريس الأطفال الصغار باستعمال برامج وآليات جديدة صممتها الدكتورة مونتيسوري.[2]

استفاد راسل كثيراً في مدرسته هذه من مجموعة معلمين لم يدرسوا من قبل في أي مؤسسة تقليدية وسبب ذلك أنه لم يثق بالصنف الذي يملك في صميم تربيته إيديولوجيات معينة يسعى لتحقيقها، كما وضع لمدرسته برامجاً كتعليم القراءة والعلوم والحساب والآداب واللغات مثل الألمانية والفرنسية، وكذلك تعليم التاريخ مستخدماً طرقاً متنوعة للتعليم الإنساني تراعي كل الفروق وتلبي كل الحاجيات لدى المتعلمين، عمد راسل وزوجته دورا إلى تخطي طرق التدريس الكلاسيكية وهي خطوة شقت طريقها في مدارس أخصائيين وتربويين إنجليز كان من بينهم ألكسندر ساذرلاند نيل* صاحب الفكر

---

[1]– Deborah Gorham, Dora and Bretrand Russell and Beacon Hill Scholl.9-10

* مدرسة أودنوالد Odenwaldschool أقدم مدرسة ألمانية داخلية تم تأسيسها سنة 1910 تم غلقها سنة 2015.

[2] –ipid. 10

* ألكسندر سوذرلاند نيل Alexander Sutherland Neill 1883–1973 مدرِس ومؤلف اسكتلندي معروف بمدرسته «سمرهيل» وفلسفاتها فيما يتعلق بالتحرر من قهر البالغين والحكم الذاتي، كتب نيل كتابه الأول سجل معلم سنة 1915 ثم أسس مدرسة سمرهيل عند عودته إلى إنجلترا في عام 1924.

التربوي الليبرالي الأكثر تأثيراً في بريطانيا خلال القرن العشرين فقد رفض نيل أشكال التربية التحكمية لأن استعمال السلطة في هذه العملية يشكل خطراً حقيقياً على الأجيال أسس نيل مدرسة سمرهيل سنة 1924 في إنجلترا، تأثر راسل وزوجته بشخصية نيل لهذا أصبحت زوجته دورا إحدى المدافعات عن فكر هذه المدرسة التحرري في التربية كتبت دورا بدعم من زوجها مقالات في حقل التربية كان من بينها " دع الأطفال يحكمون أنفسهم" سنة 1933 ومقالاً أخر بعنوان " مدافع عن المدرسة المجانية" كان السؤال الحقيقي الجدير بالاهتمام حسبهما ليس هو ماذا نريد أن نعلم الطفل بل الأحق أن نطرح سؤالاً أخر وفحواه ماذا يريد الطفل أن يكون ماذا يريد المتعلم أن يصنع من نفسه؟.[1]

مع كل هذه المحاولات التي قام بها راسل صحبةَ زوجته دورا بلاك لكن هذه المدرسة فشلت في الأخير خاصة بعد فشل زواجه من دورا، كما أن المدرسة تأسست على احتمالات واسعة جداً لم يستطع أي واحد منهما أو من الطاقم التربوي الذي تم تعيينه أن يحقق غايات المدرسة، لأن أكبر خطأ وقعت فيه هذه المدرسة أنها حسب راسل حاولت تأسيس نظام تربوي في رقعة جغرافية ريفية صغيرة بين مجموعة معلمين ومتعلمين لا غير وهذا تقليص لدور المدرسة في المجتمع الحديث الذي يتميز باتساع المساحة التي يسكنها وكثرة الأفراد الذين ينتمون إليه.[2]

[1] – Deborah Gorham, Dora and Bretrand Russell and Beacon Hill Scholl.p 27

[2] – ipid.p 37-38

المبحث الثاني : مكانة راسل في الفلسفة المعاصرة

معرفة قيمة ومكانة برتراند راسل تظهر لنا كلما عمقنا النظر والتأمل في الفلسفة التي تلت الحربين العالميتين الأولى والثانية، والتي عالجت أكبر مشكلات القرن 20 سواء من الناحية السياسية أو الأخلاقية أو التربوية، أو تلك ذات الطابع العلمي كالتي تناولت قضايا المنطق والرياضيات، ومن أكثر هذه الفلسفات غزارة من ناحية الكتابة والتأليف نجد تلك الناطقة باللغة الإنجليزية، التي احتلت مكانة مرموقة في العالم الغربي وتركت أثارها إلى يومنا هذا، وقد كان راسل أحد أكبر الناطقين باللغة الإنجليزية وأعظمهم لما عرف عنه كشخصية محبة للسلام راغبة في توسيع المناخ الأخلاقي الإيجابي في كل مجتمع إنساني، وعلى الرغم من وجود أسماء أخرى حملت نفس هذه الغاية ولكن مع ذلك يبقى راسل ذا مكانة محورية في الفلسفة المعاصرة، ليس فقط لتناوله مشكلات عصره وإنما أيضا تميزه بأسلوبه الخاص الذي منح للفلسفة المعاصرة رؤية جديدة وقراءة لأعمق قضايا الواقع، ليواصل الكثير من الفلاسفة بعده مسيرتهم بنفس أسلوبه وأدواته التي ابتكرها.[1]

يشهد الكثير من فلاسفة ومفكري القرن العشرين أن أكبر تيارات الفكر الفلسفي الراهنة تعترف بمكانة راسل كونه موسوعة درست كل قضايا المجتمع الإنساني، بل بلغ الحد به لأن يكون من أكبر دارسي تاريخ الفكر البشري عبر العصور، كما يعود له الفضل في ظهور التيار التحليلي للغة كنظرة جديدة في الفلسفة، حاول من خلالها أن يحلل الواقع بنفس المنهج الذي تحلل به الدراسات الفيزيائية عالم الذرة، يقول راسل" إن الذرات التي أرغب الوصول إليها في نهاية التحليل هي ذرات منطقية وليست

[1]– ايه سي جرايلنج: برتراند راسل مقدمة قصيرة جدا، ترجمة إيمان جمال الدين الفرماوي، ط1 . ص 118

فيزيائية"[1]، فقد بدأ راسل فلسفته التحليلية للغة كتيار جديد تجاوز من خلاله المثالية الألمانية، وانتقد كل من فلسفة كانط وهيجل ليعمل بعد ذلك على بداية مشروعه الجديد في الفلسفة، خاصة بعد أن ألقى مجموعة من محاضراته كان عنوانها الذرية المنطقية. التي أصبحت بعد ذلك سببا في وصول الباحثين اللغويين بعد راسل إلى ما يسمى بالمنعطف اللغوي الذي قال عنه دولا كومبان" إنه المرجع المشترك بين أنصار الفلسفة التحليلية والذي يمثل أسلوب تفكيرها المهيمن إلى حد الأن على الساحة الأنجلو أمريكية إنه أكبر ابتكار في هذا القرن من وجهة نظر التقنية الفلسفية"،[2] أصبحت فلسفة راسل التحليلية نقطة جذب وتأثير على أكبر أقطاب التحليل المعاصر أمثال "كارناب" و"فيتجنشتاين" وألفرد أيز وغيرهم من الفلاسفة، فقد أدت فلسفة راسل إلى تركيب مباحث جديدة كبرى وهي الفلسفة التحليلية والفلسفة العلمية وهي أكبر نزعات الفلسفة المعاصرة.[3]

انجذب الكثير من الفلاسفة المعاصرين إلى فلسفة راسل، واعترف البعض منهم أن كتابه مبادئ الرياضيات يعد منعرجا في الفلسفة المعاصرة فقد اعتبر جون فايمان أن الفلسفة المعاصرة بدأت بكتاب راسل "مبادئ الرياضيات"، ومن بين الاعترافات الأخرى في تقدير راسل ومكانته هناك الفيلسوف الأمريكي دبليو فكواين، الذي اعترف هو الأخر بانجذابه لشخصية راسل وفلسفته منذ صغره أو فترة شبابه التي تعلم فيها أكبر قضايا المنطق والفلسفة، بعد اطلاعه على مؤلفات راسل حول المنطق والفلسفة والرياضيات وكذا نظريته في فلسفة المعرفة والعلم، ويظهر أثر راسل على كواين في

[1] –عبد القادر ماهر: فلسفة التحليل المعاصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت، د.ط. ص 159

[2] – دولاكومبان كريستيان: تاريخ الفلسفة في القرن العشرين، ترجمة حسن أحجيج، جداول للنشر والترجمة والتوزيع بيروت ط1. ص 48

[3] – اسماعيل صلاح: فلسفة اللغة والمنطق دراسة في فلسفة كواين، مكتبة الأدب جامعة القاهرة، دار المعارف،د.ط. ص 65

عبارته الشهيرة " لقد تردد صدى النبرة العلمية الحقيقية لمنطق راسل في تناوله لنظرية المعرفة فيما يتعلق بعالم الطبيعة وكان الصدى واضحا بشكل أكبر في كتاب معرفتنا بالعالم الخارجي سنة 1914 والذي أسهم في إشعال حماس بعضنا وخصوصا كارناب بأمال جديدة صوب مذهب الظواهر إضافة إلى كتابي "تحليل العقل" و"تحليل المادة" باعتبارهما أشد الكتب صلة بالفلسفة العلمية للقرن 20"[1]، يحظى راسل بمكانة قل ما يحظى بها أي فيلسوف أخر نتيجة اجتهاداته المتواصلة ومحاولته في التغلب على التناقضات التي أصابت العلم في الفترة الأخيرة وأكبر محاولاته هي العمل على وضع رياضيات يكون أساسها هو المنطق وهذا ما يسمى بالاتجاه المنطقي أو المنطقانية بصيغة أخرى والتي أسهمت بشكل فعال في إعادة تأسيس الرياضيات المعاصرة وفق نظرة جديدة أكثر فاعلية وتطوراً ويعتبر راسل إحدى أكبر الحلقات التي اكتمل معها نضج الرياضيات بعد القرن 19 حيث أقدم راسل على رد الرياضيات إلى المنطق ولم يكن هو الوحيد الذي امتاز بهذه النظرة الجديدة للرياضيات بل نجد أمثاله مثل ليبنتز وفريدج ودافيد هالبرت وكذلك صديقه وايتهد وكواين وغيرهم من الفلاسفة الذي ردوا الرياضيات إلى أسس منطقية.[2]

ما يميز راسل عن هؤلاء هو ابتكاره لإحدى أهم النظريات المعاصرة التي ساعدت على قلب أسس الرياضيات بعد القرن 19 والتي تعرف بنظرية الأنماط، التي أصبح لها تأثير قوي لدى الكثير من الفلاسفة خاصة أتباع الوضعية المنطقية في منتصف القرن الماضي والذين استفادوا كثيرا من بحوث راسل التي يظهر عمقها البالغ في ظواهرية إيدموند هوسرل، كما توجد هناك أبحاث أخرى لراسل لا تقل أهمية عن نظرية الأوصاف أو الأنماط، والتي تظهر قيمتها في الفلسفة عند ربطها المباشر بقضايا اللغة

[1]– ايه سي جرايلنج: برتراند راسل مقدمة قصيرة جدا. ص 119

[2]– Andri lalonde, vocabulaire tichnique et critique de philosophie, paris, 1996.p 572

والواقع والمعنى والإحالة، يقول كواين عن هذه النظرية " كانت نظرية الأوصاف المنطقية التي وضعها راسل مهمة من الناحية الفلسفية بفضل قيمتها التوضيحية للتحليل الفلسفي باعتبارها نموذجاً لتطبيق الفلسفة على مجال بعيد".[1]

كانت نظرية الأوصاف التي جاء بها راسل بمثابة تطبيق أو خطوة جديدة في علم المنطق، كما كانت لها فائدة أخرى في مجال الرياضيات وكل عملياتها إنها نظرية تساعد فهمنا وتحليلنا للعالم، ولعلم الرياضيات الذي لا طالما عرف بأنه علم الكم والمقدار بنوعيه المتصل والمنفصل الأول هو الهندسة والثاني هو علم الحساب أو العدد، ولكن هل تعريف راسل للرياضيات سيكون بنفس هذه النظرة؟ أم أنه سيصفها مثلما قال عنها ديكارت، تعبيرا عن إعجابه بهذا العلم لما فيه من براهين تعبر عن اليقين والبداهة، إيمانا منه بأن كل ما تقدمه الرياضيات غير قابل للشك أو الرفض لدرجة انه جعلها المثال الأعلى الذي ترد إليه كل العلوم.[2]

كان راسل من الفلاسفة الذين أظهروا بتحليلهم المنطقي أن فكرة العدد في الرياضيات لا تأتي إلا إذا عمل العقل على وضع خطوات سابقة لفكرة العدد، وتكون أبسط منها وهذه الخطوات مجالها هو المنطق، فالتفكير الرياضي عند راسل ما هو إلا مرحلة متأخرة سبقتها أصول منطقية أولا، وبهذا تكون الرياضيات في حقيقتها مجرد استمرار للمنطق، ويستدل راسل على ذلك أنه لو لم يكن العدد بهذه البساطة التي تبدو في كونه مركباً من عناصر تسبقه وجدت في الفكر كمنطق، فلماذا نعتمد في تعليم الأطفال الصغار الرياضيات بتلك الأفكار البسيطة؟ يقول راسل "أيسر الأفكار العقلية

[1]– ايه سي جرايلنج: برتراند راسل مقدمة قصيرة جدا. ص 119–120

[2]– روني ديكارت :مقال في المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة لكتاب ط ، سنة 1985. ص 48

هي التي لا تكون شديدة التركيب ولا التبسيط وهذه الشروط تتوفر في العدد"[1]، فتحديد مفهوم الرياضيات ومجموع ألفاظها عند راسل تكون أول خطواته هي البدء من ألفاظ أولية نقبلها مسبقا دون أن نكون بحاجة إلى تعريفها وبواسطتها نعرف ما نشاء من الألفاظ الرياضية، وقد ذهب راسل كغيره من المناطقة الرياضيين أن الرياضيات بكافة فروعها تشترك في مجموعة من اللامعرفات، وهذه الأخيرة هي مدركات رئيسة في علم المنطق مثل الفئة الاستدلال والصدق في القضايا، وإذا وجدت في قضية رياضية ما ألفاظ لم تعبر عن هذه المدركات المنطقية فإنها ليست من قضايا الرياضيات.[2]

عمد راسل في تعريفه للعدد على رده لمجموعة مدركات منطقية، ولعل منطق راسل وتفسيره للرياضيات وأساسها هو من بين أكثر القضايا التي أثارت انشغال الفلاسفة والرياضيين والمناطقة في الفترة المعاصرة، فلو تتبعنا أي كتاب في المنطق المعاصر الرياضي أو الرمزي سنجد حضورا واضحا وقوياً لراسل، لدرجة أنه ستكون معظم الموضوعات واللغة والمناهج المتبعة هي كذلك تخص راسل، تحت ما يسمى طبيعة الرياضيات البحتة التي لم يعرفها الكثير من الرياضيين والفلاسفة في القرن الماضي وهي الصبغة المنطقية للرياضيات، أي نقطة الالتقاء بين الرياضيات والمنطق الهادفة إلى اشتقاق كل القضايا الرياضية، والمفاهيم الخاصة بهذا العلم من مقدمات تظهر بأنها منطقية إلى حد بعيد، حتى أصبح الاختلاف بينهما مجرد فرق بين الصبي والرجل، فالمنطق هو شباب الرياضيات وهذه الأخيرة هي رجولة المنطق.[3]

---

[1]–Russel introdaction to matimaticol philosophie p 02

[2]– برتراند راسل: أصول الرياضيات الجزء الثاني،ترجمة محمد مرسي أحمد، وأحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف مصر ، ط2 .ص 112

[3]– محمد مهران: فلسفة برتراند راسل، دار المعارف ،ط3، 1986. ص 195

يعود اهتمام راسل بالمنطق والرياضيات إلى تأثره بأسماء أخرى سبقته في هذا المجال ومن أكثر الشخصيات التي أثرت فيه هو المنطقي والفيلسوف بيانو، الذي التقى معه أول مرة في باريس سنة 1900 وهناك اكتشف قدرة هذا الرجل المنطقي على النقاش، حيث طلب منه نسخاً عن كتبه ومؤلفاته، ثم انعزل لقراءتها أكثر وهنا اكتشف أن كتابات بيانو هي أداة للتحليل المنطقي لطالما بحث عنها وبفضلها توصل لأسلوب جديد كان غائب عنه من قبل يقول راسل" لما تتبعت مناقشات بيانو لاحظت أنه أكثر دقة من أي إنسان أخر وأنه إذا دخل في مناقشة مع الغير كانت حجته هي الأقوى وبانقضاء مدة يوم من لقائه تبين لي أن هذا راجع إلى منطقه الرياضي"[1]ونتيجة لاستفادة راسل من المنطق الرياضي ظهر تيار جديد أرجع أصل الرياضيات إلى المنطق واكتشف العلاقة الوثيقة بينهما، فقد أثبت راسل أن كل الثوابت الرياضية هي في النهاية منطقية وأن كل المقدمات التي نعتمدها في علم الرياضيات تخص تلك الثوابت المنطقية، وبالتالي فإن أي محاولة تمييز بين هاذين النوعين من التفكير الرياضي والمنطقي هي مجرد محاولة عديمة الجدوى.[2]

في إطار اهتمامه البالغ بالرياضيات والمنطق، قدم راسل الفرق بين أن نقول علم الرياضيات وفلسفة الرياضيات، الأولى هي عبارة عن استخدام رموز وعلامات كالأعداد والعلامات الدالة على الجمع والطرح والضرب والقسمة والتساوي وغيرها من الرموز، فالرياضيات تهتم بتركيب هذه المعطيات وصياغتها في شكل معادلات دون أن تقف عند هذه الرموز وتحللها في ذاتها، فمثلا هناك معادلة 1+0=1 وفيها يستبعد

[1]– راسل برتراند: سيرتي الذاتية، ترجمة الدكاترة، عبد الله عبد الحفيظ، فايز اسكندر، شفيق مجلي، أمين العيوطي، دار المعارف مصر،ط1. ص 225–226

[2]– راسل برتراند: أصول الرياضيات. ص 8–9

أي تحليل لمعنى الواحد أو علامة الزائد أو التساوي لأن تحليل هذه المعادلة في حد ذاتها هو موضوع في فلسفة الرياضيات.[1]

تميز تعريف راسل للرياضيات بتصوره الجديد الذي شق أثره عند غيره من الفلاسفة والرياضيين فلو نظرنا إلى تعريفه لمفهوم العدد سنجده أكثر واقعية وأبعد عن تجريد وهي طريقة منافية لطريقتي كانتور وبيانو التي نظرت إلى العدد بشكل تجريدي، وهي ما اختلف عنها راسل في تعريفه لبعض المفاهيم الرياضية، فإذا أردنا أن نعرف معنى العدد 3 فعلينا النظر إلى ثلاث موجودات مجتمعة، فنقول 3 رجال 3 أطفال التي أراها أمامي ولكن تصور العدد ثلاثة في أي فئة معينة لن يكون متاحا، إذا لم يكن لدينا علم سابق للعدد 3 وهذا التصور هو منطقي خالص.[2]

لم يعن راسل برد الرياضيات إلى المنطق أنه يحاول تحليل كل ما لدينا من مدركات رياضية إلى مدركات ذات طبيعة منطقية، فتصديقه بأن الرياضيات هي استمرار للمنطق ليس المقصود بها أن يستخدم مبادئ المنطق في أي استدلال أو معادلة، ولكن المقصود عند راسل في إدراجه للرياضيات في المنطق أن هذا العلم يمكن فيه تحويل بعض البناءات الرياضية إلى أخرى منطقية، لتصبح جزءاً أخر من أجزاء المنطق الخالص بحيث يمكن الاستغناء عن المصطلحات الرياضية وحلها إلى مدركات منطقية وبهذا الشكل توصل لوضع منطق جديد وهو المنطق الرمزي أو الرياضي.[3]

على غرار غيره من الفلاسفة كان راسل من كل النواحي صاحب أسلوب جديد في الفلسفة والذي أعطى للقرن العشرين وفلاسفته مسارا جديد هكذا قال عند جيلبرت رايل

[1]– زكي نجيب محمود: برتراند راسل، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف مصر، ط2. ص 49–50

[2]– زكي نجيب محمود: برتراند راسل. ص 58–59

[3]– المرجع نفسه. ص 60–61

ويظهر أسلوب راسل الجديد في إخضاع كل الفرضيات والمفاهيم الفلسفية للفحص الدقيق وأكثر بحوثه التي أكدت مكانته هو نظريته الأنماط والرياضيات البحتة.[1]

أهم عمل قدمه راسل حسب وجهة نظر رايل هو ابتكاره لطريقة جيدة أدخل بها راسل المنطق الصوري إلى الفلسفة، وهو ما شجع معظم طلبته في كامبريدج التمرن على المنطق ودراسته، فقد اعتبره فييمان صاحب أول محاولة تهدف بشكل دقيق إلى إمداد الرياضيات بأسس منطقية، لتكون هذه الانطلاقة الأولى للفلسفة التحليلية المعاصرة وكل مناهجها لهذا قال عنه كواين " إن الفلسفة التحليلية تعتمد تماما على كل أعمال راسل وأوراقه البحثية في فترة ما بين 1900-1930 وأعمال أخرى لحقتها سابقا خاصة الفصل الثاني من كتابه معرفتنا بالعالم الخارجي الذي كان عنوانه المنطق جوهر الفلسفة".[2]

إن إثبات مكانة راسل في الفلسفة المعاصرة يظهر بشكل كبير على أحد طلبته وهو لودفيج فيغنشتاين خاصة كتابه رسالة منطقية فلسفية، حيث كانت معظم أفكاره مستمدة من راسل رغم ذلك فالكثير يرون بأن الفصل الثاني من كتاب راسل معرفتنا بالعالم الخارجي هو إيحاء استقاه راسل من تلميذه، ولكن الحقيقة أن فيغنشتاين هو من تأثر بأستاذه ودليل ذلك أن الترتيب الذي نجده في كتاب رسالة منطقية يظهر بأنه مشابه لبنية راسل الفكرية في فصله الثاني "المنطق جوهر الفلسفة".[3]

يعتبر راسل كما قلنا سابقا أحد أكبر العقول في العالم الناطق باللغة الإنجليزية وأحد أكبر فلاسفة الحقبة المعاصرة من تاريخ الفلسفة، كونه من علماء الرياضيات في القرن العشرين إضافة لكونه أبا روحيا للفلسفة التحليلية، زد إلى ذلك فإنه شخص له

[1]- ايه سي جرايلينج: برتراند راسل مقدمة قصيرة. ص 120

[2]- المرجع نفسه. ص 120-122

[3]- المرجع نفسه. ص 122-123

من العاطفة والفلسفة والعدالة ما يجعله في مثابة شيخ الفلاسفة المعاصرين، لقد عرف عنه حبه للرياضيات، فقد قال هو نفسه أن الرياضيات ولدت في داخلي انطباع الحقيقة ومنحته الشعور بأنه أكثر إنسانية، فغالبا ما أنقذه هذا العلم من فكرة الانتحار التي راودته وهو في مرحلة الشباب، لكنه عزف عن ذلك رغبة منه في اكتشاف المزيد من خفايا هذا العلم، لقد صار راسل وبسرعة كبيرة أحد أكبر علماء الرياضيات والمنطق ومن أشهر مؤلفاته في هذا المجال هو "مبادئ الرياضيات" الكتاب الذي ألفه رفقة صديقة ألفريد وايتهد، والذي يسمى عند البعض "إنجيل علماء الرياضيات والمنطق" وهو مؤلف يدرس الخطوات الأساسية في التفكير الرياضي والمنطقي.[1]

بعيد عن الرياضيات والمنطق كإحدى أهم المشكلات التي عالجها راسل نجد اهتمامه الكبير بقضايا أخرى متنوعة، مما جعله يمتلك تلك القدرة الكبيرة على التأليف والكتابة فغالبا ما كان هذا الفيلسوف يخرج أكثر من كتاب واحد في السنة، مع تعدد وتنوع مقالاته التي تراوحت إلى ما يزيد عن 1900 مقال كلها أصبحت فيما بعد عناصر وصفحات في كتب مختلفة، ومن المسائل التي انشغل بها راسل تلك المتعلقة بالحرب والسلام والأخلاق والحرية والزواج والتربية، وقضايا السياسة والاقتصاد لذلك ليس هناك من ميدان فلسفي لم يبحث فيه فقد لقيت مؤلفاته الاهتمام الكبير الذي لم يصل إليه الكثير من معاصريه، ففي سنة 1935 كانت قد ترجمة له 17 كتابا باللغة الألمانية وهو ما لم يحققه غيره من الفلاسفة الذين عاصروه، ويعود هذا إلى أسلوبه في الكتابة وطريقته العلمية في التفكير فقد اعتبر في القرن التاسع عشرة النموذج الجديد أوالصورة الثانية لشخصية فولتير، بسبب مواقفه السياسية ومع ذلك فقد افتك من فولتير

[1]– روجيه بولدروا: أساطين الفكر عشرون فيلسوفا صنعوا القرن العشرين ترجمة علي نجيب إبراهيم دار الكتاب العربي بيروت ص 70–72

شيئاً لم يحض به هذا الأخير وهو تأثيره الحاسم على الفلسفة الأوروبية في القرن العشرين، وسبب ذلك هو إنتاجه الفلسفي وأسلوبه اللغوي.

ينقسم فكره إلى مرحلتين الأولى كان فيها تحت لواء الرياضيات التي أثرت فيه لحد كبير، وفي هذه الفترة اعتبر فيلسوفا أفلاطونيا خالصا ذلك لأن موقفه من الرياضيات كان واضحا ومباشرا وفي هذه المرحلة ظهر كتابه الشهير "مبادئ الرياضيات" وهو من أهم مؤلفاته الفلسفية والعلمية، ومع منتصف القرن التاسع العشر ظهر راسل بصورة جديدة يناصر فيها مناهج العلوم الطبيعية، مؤمنا بإمكانية الإنسان في الوصول إلى الطريقة المثلى في التحكم بالتكنولوجيا التي ستجعله يصل إلى التقدم العلمي والتطور المرغوب فيه.[1]

ومع كل اهتمامه الفائق بالرياضيات والمنطق كان لهذا الفيلسوف تصوره الخالص عن الفلسفة، ويظهر مفهومها على أنه موقف جديد جاء تحت تأثير النمط الفكري للمدرسة التي انتمى إليها في بداية مساره الفلسفي وهي الواقعية الجديدة، فقد أكد أن التفكير الحقيقي الذي يجب أن يتوفر في الفلسفة هو ذو طابع علمي لأنه جوهرها الحقيقي، إذ ينبغي عليها إذا ما رغبت في واقعية أكبر أن تستخرج أحكامها من العلوم الطبيعية والفيزياء وليس فقط من الدين والأخلاق، لأن أهم نشاط يجب أن تمارسه الفلسفة هو أن تقتصر بشكل كبير على المشكلات المتعلقة بالعلم وتقوم بدراستها وفق طريقة علمية كذلك، لذا تظهر لنا قيمة راسل في الفلسفة في أنه عمل على انتزاع أي نزعة رومانتيكية أو صوفية منها، لأن التفكير الفلسفي ليس وعاءاً فكرياً لتخفيف الألم إذ يجب على الفيلسوف أن يتعمق بكل صبر وهدوء في أغوار مشكلات مجتمعه بكل تفاصيلها، فمهمة الفلسفة التي قدمها راسل هي ليست تقديم حلول نهائية مؤكدة وإنما

[1]– إ.م . بوشنسكي الفلسفة المعاصرة في أوروبا ترجمة عزة القرني سلسلة عالم المعرفة سنة 1978 ص 73–75

هي فتح المجال أمام العلم ليطرح قضايا جديدة لأن الغاية الرئيسية للفلسفة هي إعمال النقد وتوضيح المفاهيم العلمية، بهذه الطريقة يتم تنبيه العقل للإحاطة بأسئلة جديدة هكذا فكر راسل بعد غوصه في مشاكل الرياضيات ومسائلها، ومن وجهة أخرى نجده قد استمر على نفس خطوات التيار التجريبي والوضعي في إنجلترا على نحو يشبه إلى حد ما هيوم وجون ستيوارت مل.[1]

من أهم المحاور التي امتاز بها فكر راسل نزعته التعددية ذات الطابع الواقعي وهو تيار امتاز به معظم الفلاسفة الانجليز، وعلى خطاه وضع راسل نظريته حول العلاقات والتي رأى فيها أنه لا وجود لأي علاقات داخلية بين الأشياء الواقعية، وأن كل ما نراه ونعرفه هو مجموعة علاقات خارجية تمت إضافتها إلى ماهية الشيء، وبهذا الشكل رفض راسل كل نظرية برادلي، وطور موقفه التعددي حتى وصل إلى الذرية المنطقية التي ترى بأن العالم هو عبارة عن معطيات حسية ترتبط مع بعضها وفق علاقات منطقية خالصة، ومن خلال هذه الرؤية ابتعد عن المثالية التي وجدت عند هيجل ليدافع عن الواقعية الانجليزية، إضافة إلى ذلك فإن قيمة راسل كبيرة فيما يخص مسألة المعرفة، والتي تظهر في تناوله لموضوع المادة والإدراك العقلي، إذ يرى راسل بهذا الخصوص أن العالم الخارجي رغم أنه مليء بالمادة التي لها وجود حقيقي واقعي عيني لكنه يرفض بأن تكون موضوعا مباشراً للمعرفة، لأننا في الحقيقة لا نعرف شيئاً سوى تلك الانطباعات التي تقدمها لنا الحواس وهو موقف ثنائي بينه وبين مور، فالمعرفة الصحيحة لهذا العالم لا تكون إلا من خلال التسليم المسبق بوجود موضوع خارجي للمعرفة، والذي تكون الحواس هي المسؤولة عن إدراكه هذه كانت نظرة راسل الأولية عن طبيعة المعرفة، لكنه سرعان ما غير وجهة نظره هذه ليقول بأن العالم ليس

[1]–إ.م . بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا.ص 75

مجموعة موضوعات أو أشياء، بل هو معطيات حسية تترابط فيما بينها منطقيا وهذه نظرية " الذرية "، وهذا لا ينفي أن راسل قبل أن يدرك هذه النظرية كان من الفلاسفة الذين يقرون بوجود معرفة مباشرة يكون أساسها هو الكليات أو المعاني الكلية وهي تشبه إلى حد بعيد الموقف الأفلاطوني في المعرفة[1].

إضافة لموقفه من المعرفة الخاصة بطبيعة الأشياء المادية، تناول بالتحليل والدراسة مسألة النفس وطريقة إدراكها فقد كان موقفه الأولي منها مماثل لهيوم، حيث اعتبر هو الأخر النفس حزمة من الأفكار وهذه الحقيقة تجعل من النفس جوهرا مختلفا عن ما هو مادي أو روحي، لأنه حسب وجهة نظر راسل هذه لا وجود لشيء اسمه المادة ولا شيء اسمه العقل، وإنما كل ما هناك هو مجموعة من المعطيات الحسية تتجمع بأشكال مختلفة ومتفاوتة تحكمها قوانين، وبالتالي فهي التي تحكم على ما هو عقلي أو نفسي فالنفس يحكمها قانون الحتمية التذكرية الذي يتفرع على كل احتمال من حتمية الجهاز العصبي، وما يميز هذا الجانب هو ذاتيته وهذه الأخيرة تعنى بجمع معطيات الحواس وتركزها في مكان واحد وهو الدماغ، من هذا المنطلق لم يعرف راسل الظاهرة النفسية على أنها نفسية قائمة في الوعي، لأنها لا تملك جميعا هذه الصفة وهي ليست مفاهيم كمثل العادة أو الذاكرة أو الفكر، لأن هذه مجرد منتجات "للحتمية التذكارية"، يُظهر لنا هذا التحليل أن راسل يميل للتفسير المادي في علم النفس لأنه اقتنع بأن الظواهر النفسية لها علاقة بالجوانب الفيزيزلوجية، وبالتالي فإنه ينظر لا للنفس على هيئة جوهر قائم بذاته ليصبح أحد المنظرين في علم النفس المعاصر رغم أنه لم يصنع المكانة التي صنعها فرويد أو بياجي أو غيرهم من أصحاب النظريات النفسية المعاصرة، كان لكتابات راسل الفضل الكبير في إبراز التداخل الوثيق بين

[1]– المرجع السابق ص 75

الفلسفة والعلم، حيث يجنح هذا الأخير لوضع معارف صحيحة ومؤكدة ولكن للفلسفة مكان وسيط بين العلم واللاهوت، إذ تأخذ من العلم الصرامة والإرادة العقلية ولكنها في ذات الوقت تطرح مواضيع ريبية يصعب الإلمام بها، وفي هذه الحالة تصبح شبيهة للاهوت، هذا الموقف الوسط الذي أوجده راسل للفلسفة ووضعها فيه يظهر أنه ليس عالما أو رياضيا بارعا أو رجل علم ومنطق، بل هو أيضا كاتب ورجل أخلاق وسياسة وفيلسوف أصيل.[1]

كانت لراسل مواقف قوية سببت له الكثير من المشاكل على الساحة الدولية، فقد دخل السجن خلال الحرب العالمية الأولى 1914-1918 نتيجة دعوته المتواصلة للسلام ومعارضة الحرب لكنه رغم ذلك فقد أمضى فترة سجنه في الكتابة والتأليف، إن روح راسل الاندفاعية التحررية صاحبته طيلة فترة حياته، فكان نتاج ذلك حياة مضطربة متشابكة مليئة بالبلبلة فقد أثارت حياته العاطفية والسياسية الساحة الفكرية والإعلامية، لدرجة أنها أصبحت تعبيرا عن الفضيحة والانسياب ففي عام 1940 حيث أعلن عنه كأستاذ بجامعة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، تلقى راسل العديد من المعارضات الضارية لشخصه ولفلسفته بسبب أن مواقفه كانت تدعو لتحرر الإنسان من الأعراف البرجوازية المتزمتة، فقد كان راسل شخصا مولعا بالاستفزاز والنقد المستمر فإذا ما بدت له قضية ما أنها غير عادلة فإنه لن يقدم أي تنازلات عنها، فقد كتب خلال سنة 1910في كتابه عناصر الأخلاق نقدا لاذعا لتلك العادات الضيقة الأفق والتي تمتاز بطابعها الأيديولوجي والديني وعارضها بشكل كبير، ليعوضها بقيم السعادة والحرية وعاطفة الحب، لهذا السبب فإن راسل كان مناصراً جريئاً للسلام باستثناء الحرب العالمية الثانية حيث رأى فيها ضرورة للحد من هوس وجنون النازية

[1]– روجيه بولدروا: أساطين الفكر. ص 74

الألمانية، كما صاحبت نزعته السلمية انتقاداته للأنظمة الفاسدة والعقائد الديكتاتورية مثل النازية والفاشية كما رفض الشيوعية، وكان ذلك متزامنا مع عودته من الاتحاد السوفياتي حيث كان له لقاء مع لينين وهو السبب الذي دفعه إلى كتابة مؤلفه الشهير " نظرية البلشفية وتطبيقاتها".[1]

بعد أن حصل راسل على جائزة نوبل* للآداب سنة 1950 نتيجة أعماله الأدبية والفلسفية الكثيرة والشهيرة، كتب هو نفسه عن تعجبه كونه لم ينتظر الحصول على هذه المكافأة العالمية، كما عبر عن انزعاجه من هذا التشريف الكبير الذي حظى به لأنه لم يفكر يوما في أن يتم تكريمه أو الاعتراف به، فقد كانت فلسفته في الحياة دفاعا عن القيم الإنسانية بعيدا عن حب الظهور والمكانة[2]، قام راسل بعد ذلك وبمساعدة من العالم الفيزيائي الألماني ألبرت أينشتاين بتأسيس لجنة مضادة رافضة لاستعمال الأسلحة النووية على شعوب العالم بأسره لم يتوقف مجهود راسل عند هذا الحد فقد عمل كذلك على تأسيس محكمة عرفت باسمه آنذاك أدينت فيها جرائم الحرب الأمريكية في الفيتنام وهو العمل الذي ساعده فيه الفيلسوف الفرنسي سارتر ليعمل كلاهما على التأسيس للنضال ضد الاستعمار ونشر الحرية الفكرية والنداء بحق الإنسان فقد جعلته نزعته التحريرية هذه رجل سلام عالمي.[3]

تركت الحرب في نفسية راسل الكثير من الهلع واليأس بعدما رأى جنون الانجليز وحبهم للحرب والدموية فكثيرا ما كان يلتقي بأشخاص لهم مكانة سياسية مرموقة ولكنهم

---

[1]– المرجع السابق. ص 75

*جائزة نوبل : هي من أهم جوائز القرن 20 بلا منازع تقدم في مجال، الفيزياء، الكيمياء، الطب، الآداب، والسلام وفي سنة 1969 أضيف لها علم الاقتصاد كسادس فرع، يعتبر ألفرد نوبل 1833–1896 صاحب فكرة جائزة نوبل المشهورة

[2]– محمود قاسم : موسوعة جائزة نوبل، مكتبة مدبولى، ميدان طلعت حرب، ط1 ، القاهرة 1995. ص 183

[3]– روجيه بولدروا: أساطين الفكر. ص 76

مغمورون بحب الحرب والهمجية مثل أيدي مارش السكرتير الخاص بونستون تشرشل رئيس وزراء إنجلترا، كره راسل الحرب وكثيرا ما أراد التقاعد والابتعاد من هذا العالم المجنون فقد قال لزوجته تشارلس سانجر ذات مرة " إن الحياة هذه الأيام هي الجحيم بعينه كم وددت أن أموت قبل سنة 1914" إن هذه الحالة النفسية اليائسة هي التي جعلته يتمرد على ثقافة عصره غير السلمية وهو الأمر الذي جعل منه شخصية معروفة عالجت في فلسفتها المشاكل السياسية بوجهة نظر إنسانية، ساعدت الأزمات السياسية الحروب على تكوين شخصية راسل المتمردة التي دائما ما حملت روح التصدي للعنصرية والظلم والتسلط، لهذا وجد في الكتابة والتأليف الأسلوب المناسب للتعبير عن معاناة الإنسان والدفاع عن كل حقوقه الفردية والجماعية،[1] كما دافع راسل كذلك عن حقوق المرأة وكتب في ذلك كتابا بعنوان "الزواج والروح" سنة 1929 حيث عمد فيه على نشر قيم المودة والوفاء في الحياة الزوجية تجاوزا للمشاكل العائلية وتقليلا من مخاطر الطلاق، إضافة إلى دعوته لتحسين الظروف الاجتماعية للأسر وتقديم أحسن تربية للأطفال.[2]

رغم تلك المكانة التي حضا بها راسل في الفلسفة الإنجليزية والأوروبية ومكانته كأحد أكبر علماء وفلاسفة القرن 19 لكنه صادف الكثير من الصعوبة كان أثقلها تلك التي حصلت معه في الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن أعلن مجلس الأساتذة في جامعة نيويورك سيتي عن تقاعد الأستاذين موريس رفاييل كوهان وهاري أوفرستريت من منصبهما فكرت إدارة الجامعة في تعيين من يخلفهما لتدريس مادة الفلسفة وهنا كان الاقتراح أن تتم دعوة الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل ليشغل هذا المنصب بقسم الفلسفة لمدة سنة ابتداءا من تاريخ 01 فيفري 1941 إلى غاية 30 جانفي 1942

[1]– محمود قاسم : موسوعة جائزة نوبل.ص 184

[2]– المرجع نفسه. ص 185

وهو ما تزامن مع تدريسه في جامعة كاليفورنيا، قابل جميع الأعضاء وكذا مجلس إدارة الجامعة وشتى المسؤولين فيها دعوة فيلسوف كبير مثل راسل بالاستحسان والترحيب، واعتبروه مكسباً كبيراً للجامعة لم تنعم به طوال حياتها الأكاديمية قبل راسل الدعوة فأرسل إليه رئيس المجلس العلمي في الجامعة خطابا يعبر فيه عن شكره وامتنانه لقبوله الدعوة فكان مضمون الخطاب كالأتي: عزيزي سيد راسل أعلم أنه بقبولك هذا تكون قد أضفت الكثير لاسم الجامعة وللقسم وهذا سيزيد من اهتمام الطلبة ومحيط الجامعة بالفلسفة وبقضايا الإنسان"[1]، أثناء الفترة التي تم استدعاؤه من قبل قسم الفلسفة كانت جامعة نيويورك سيتي معروفة باسم" هارفرد البروليتاريا" حيث كانت تتعرض لضغوطات شديدة بسبب هيئتها الطلابية أين كان المسئولون فيها معروفين بمعاملة الطلاب على أنهم جماهير غير واعية مغسولة الذهن لأن معظم الأساتذة كانوا حديثي التخرج من الكلية لهذا فإن وجود شخص مثل راسل في أزقتها كأن أمرا استثنائيا لم تعرفه كلية نيويورك سيتي من قبل.[2]

تقديرا منه واعترافا بمكانة راسل أصدر رئيس نيابة الجامعة بياناً للصحافة بشكل منفرد يوضح فيه قيمة هذا العالم الشهير اللورد راسل وهذا في تاريخ 24 فيفري 1940، وبعد فترة قصيرة من هذا البيان أصدر قسم الفلسفة برنامج عمل الفيلسوف الإنجليزي وهو على ثلاث دورات يقدم فيها ما يلي:

الفلسفة13: دراسة المفاهيم الحديثة للمنطق وعلاقتها بعلوم الرياضيات وبالفلسفة.

الفلسفة24: دراسة المشكلات المتعلقة بأسس الرياضيات.

---

[1]– Paul edwards .1956 . how bertanad russell was prevented from teaching at the college of the city of newyork. Page.2

[2]– Stephen lebrstien .appoitment denied. The inquistion of bertrand russell . academe volume87.issue6.nov/dec2004.

الفلسفة27: علاقة العلوم البحتة بالعلوم التطبيقية وتأثير الميتافيزيقا والنظريات العلمية.[1] و عندما انتشر خبر تعيين الفيلسوف الانجليزي تعالت الأصوات بالقدح والهجوم عليه فقد أرسل الأسقف بيشوب مانينج bishop manning خطابا نشرته كل صحف نيويورك قال فيه " ما عسى أن يقال عن كلياتنا وجامعاتنا الأمريكية التي عينت لشبابها أستاذاً مسؤولاً عن الفلسفة عرف بتهجمه على الدين والأخلاق ودفاعه عن الزنا والملذات الجنسية" لم تمض أيام حتى عاد هذا الأسقف إلى شن هجوم أخر على راسل قال فيه " هناك أناس اضطربت عقولهم وأخلاقهم لا يجدون ضيرا في تعيين شخص يقول في كتاباته المنشورة ليس هناك مقياس للأخلاق خارج الرغبات الإنسانية"،[2] كان خطاب الأسقف بمثابة حملة تشويه أعلنت ضد الفيلسوف راسل للتشهير به وللضغط والتخويف فبعدها شنت عليه الصحف الأمريكية هجوماً واتهمته بأبشع التهم قالت صحيفة التابلت أن تعيين راسل جاء كصدمة قاسية ومهينة لكل أهل نيويورك وسائر الأمريكان الحقيقيين وطالبت الجريدة في مقال افتتاحي لها بإلغاء هذا التعيين ووصفت راسل بأنه فيلسوف الوثنية والفوضوية الأخلاقية في بريطانيا العظمى، أما مجلة اليسوعيين الأسبوعية " أمريكا " فأشارت إلى راسل على أنه مدافع عن الانحلال الجنسي ضامر، ومطلق ومتهتك وهو الآن يلقن الطلبة في الجامعة سموم الإباحية والحياة المتهتكة المنحلة في أمور الجنس والحب الدنس وزواج المتعة هذا الإنسان المفسد الذي لم يكن أمينا مع عقله وضميره ،لم تسكت الصحافة عند هذا الحد فقد وصفته جريدة جورنال أند أمريكان بأنه يحبذ شيوعية النساء وحملهن سفاحا وتربية الأطفال كي يصبحوا أدوات طيعة لدولة ملحدة وتقدمت هيئات لا حصر لها

[1]– Paul edwards . how bertanad russell was prevented from teaching at the college of the city of newyork .page 2

[2]– ibid .page 3

تحرص على شؤون التربية والتعليم تطالب بطرد الفيلسوف الزائر كما تطالب بطرد جميع أعضاء مجلس التعليم الأعلى الذين صوتوا لتعيينه، زد إلى هذا توصل القساوسة في الهجوم على الفيلسوف فقد هاجمه القس جون شولتز في كلية أسوبس اللاهوتية قائلا " أن الشباب يتعلمون على يد راسل أن الكذب شيء لا وجود له وأن السطو مشروع له مبرراته وكذلك النهب والسرقة وهم يتعلمون كما يتعلم ليوب وليبولد * في شيكاغو أن الجرائم الفظيعة غير الإنسانية مشروعة"[1] إضافة إلى اتهامه بأنه يدعو الأبناء إلى كراهية الآباء والحقد عليهم كما أن تعاليمه تشجع على إراقة الدماء في سبيل المتعة الجنسية لذلك ظهرت اقتراحات قوية لعزل راسل نهائياً وكان منها أبناء كزافييه،فرع نيويورك للكاثوليكية المركزية الأمريكية، النظام القديم من Hibernians وفرسان كولومبوس، نقابة المحامين الكاثوليك، وجمعية القديسة جان دارك للاسم المقدس، مؤتمر الوزراء المعمدانيين المتروبوليت، مؤتمر الغرب الأوسط لجمعية نساء نيو إنجلاند، وأبناء امباير ستيت للثورة الأمريكية، كما قدم أحد أعضاء المجلس البلدي في نيويورك اقتراحا يطلب فيه من مجلس التعليم الأعلى إلغاء قرار تعيين برتراند راسل وفاز هذا الاقتراح بأغلبية أصوات أعضاء المجلس البلدي ، كما وضح أحد أعضاء المجلس البلدي كذلك أنه سيلغي معونته التي كان يقدمها للجامعة والمقدر قيمتها ب 7.500.000 دولار وهو التدعيم الخاص بعام 1941 في حال إذا لم يتم إلغاء التعيين[2]، وإثر هذه التدخلات التي تريد إهانة الفيلسوف ومنعه من التدريس في الجامعة هال رجال الجامعات في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية على أن لا يتدخل في هذا القرار أناس ليس لهم علاقة تربطهم بالحياة الأكاديمية أي صلة ، إذ تحرك حشد من الأساتذة لنصرة الفيلسوف راسل و كتب إثرها 17 عالما مميزا من بينهم بيكر

[1]– Paul edwards ,1956. page 4

[2]– ibid . page 4–5

من جامعة كورنيل ولوفجوي من هوبكنز وكذلك أعضاء من جامعة هارفرد وهم كامبل وكانون وسكلسينغر وبيري خطاباً لعمدة المدينة لاغورديا يحتجون فيه على هذا الهجوم المنظم ضد راسل والذي طبقت شهرته الأفاق واستطرد العلماء في خطابهم قائلين " أنه بمثل هذا الهجوم على رجال الفكر والفلاسفة فلن تكون هناك كلية أمريكية أو جامعة بمأمن من سيطرة محاكم التفتيش التي يسيرها أعداء الحرية الفكرية، أنها لميزة نادرة لأي طلبة في أي مكان أن يتلقوا العلم على يد رجل له عقل برتراند راسل ويجب على نقاده أن ينازلوه في شرف على أرض النقاش الفكري والتحليل العلمي وليس لهم الحق في إسكاته أو منعه من التدريس"[1] وتصدى صفوة من العلماء والفلاسفة للدفاع عن راسل من أمثال أينشتاين وديوي وهويتهد وقد ذكر أينشتاين في هذا الصدد " أن الأرواح العظيمة هي التي تجد دائما معارصة من التافهين والعاديين من الناس، لأنهم لا يستطيعون أن يفهموا أن إنسانا يمكنه أن لا يخضع للعقائد المتوارثة و أن يستخدم عقله جرأة وإقداماً ".[2] وقد كتبت دورولي تومسون في المقالات الافتتاحية لبليشرز ويكلي ونيويورك هيرالد تريبيون تدافع عن خلق الفيلسوف العظيم فقد ذكرت تحت عنوان " اللورد راسل غير منحل أخلاقيا " وقالت " أن أي إنسان يعرف راسل يعلم أنه رجل بأرفع مراتب الكمال الشخصي والتفوق العقلي ".[3] إبرازاً منه لقيمة راسل وصفه أستاذ الفلسفة موريس رفاييل كوهان الذي جاء راسل خلفا له بأنه فيلسوف ورجل علم وأخلاق وقد قارن راسل بسقراط وذكر أن إلغاء تعيين راسل سيكون وصمة عار في جبين مدينة نيويورك تماما كما أصبحت محاكمة سقراط وإدانته بزعم إفساد عقول الشباب وصمة عار في جبين أثينا، وقد وقف أباء الطلبة وأولياؤهم في صف برتراند

[1]– Paul edwards ,1956. page 6

[2]– Ipid page 6–7

[3]– Ipid . page 7

راسل فقد استحسنت جمعية الآباء بإجماع الأصوات الخطوة التي قامت بها الجامعة بتعيين هذا الفيلسوف وفي اجتماع عقده المجلس العلمي بتاريخ 18 مارس أصرت أغلبية الأصوات لدى أعضاء المجلس على موقفها السابق وأكدت تعيين راسل أستاذاً بالجامعة، هذا ما أثار غضب المعارضة وحالت بينه وبين التدريس بجامعة هارفرد التي كانت دعته هي الأخرى لإلقاء سلسلة محاضرات فيها بعنوان محاضرات ويليام جيمس، حيث كتب إثر هذا الطلب توماس دورجان الموكل التشريعي لمدينة بوسطن إلى جيمس ب كونانت مدير جامعة هارفرد حينذاك يقول له " أنت تعلم أن راسل يدافع عن رواج الصداقة والتجربة وحل الروابط التي تقيد السلوك الأخلاقي، ورجائي أن تلاحظ أن استئجار مثل هذا الرجل ينطوي على إهانة لكل مواطن أمريكي في ماساشوسيت "، [1] مواصلةً لموجة المعارضة تقدم المعارضون لراسل إلى الهيئة التشريعية بمدينة نيويورك يطلبون منها التدخل لدى مجلس التعليم الأعلى لإلغاء تعيين راسل في الجامعة الأمريكية، وبالفعل تقدم أحد أعضاء مجلس الشيوخ وهو سيناتور "فيلبس" إلى هذه الهيئة التشريعية باقتراح يدين راسل بأنه مدافع عن أخلاق زريبة الحيوانات شخص لا يصلح لأن يشغل منصباً هاماً في نظام التعليم لولاية نيويورك فوافقت اللجنة التشريعية بالإجماع على هذا الاقتراح دون أن ينهض صوت واحد للاعتراض عليه، بعد هذا أمر السيناتور وهو جون .ف. دنيجان تأديب أعضاء المجلس العلمي الذين سولت لهم أنفسهم تعيين راسل غير عابئين بتيار المعارضة الجارف وقام هذا الأخير بوصف فلسفة راسل بأنها تنتهك الدين والدولة والعلاقات العائلية وتواصلت الهجمات على الفيلسوف فكانت هناك مناورات كثيرة يقوم بها أعداؤه للقضاء على شهرته تدنيسا لفكره ولعل من أكثرها غرابة تلك التي قامت بها سيدة من بروكلين اسمها جين كاي التي ظهرت فجأة في مسرح الأحداث بنيويورك دون مقدمات

[1]– Paul edwards .1956 . page 8

إذ لم يسبق لها أن أبدت أي اهتمام بالشؤون العامة ورفعت هذه السيدة بوصفها دافعة ضرائب قضية في محكمة نيويورك العليا تهدف إلى إلغاء تعيين راسل في منصب أستاذ بالجامعة واستندت السيدة في عريضة الدعوى إلى شيئين هما : 01 أن راسل أجنبي ليس له حق العمل في الولايات المتحدة .02 أنه مدافع عن الفسق والانحلال الجنسي وأعلنت السيدة كاي أمام القضاء قلقها البالغ عما قد يصيب ابنتها جلوريا لو أنها تلقت العلم على يد هذا الرجل الفاسد، وفيما بعد أضاف محاموها اعتراضين آخرين على تعيين راسل ، أولهما أنه لم يجتز امتحان مسابقة للالتحاق بالمنصب كما تقتضي بذلك اللوائح ، وثانيهما أن السياسة العامة في الولايات المتحدة تتنافى مع إلحاق أي إنسان يعتنق الإلحاد بوظيفة التدريس [1].

وكلت هذه السيدة محاميا ينوب عنها لدى المحكمة اسمه جوزيف غولدستين وفي عريضة دعواه وصف هذا المحامي كتب راسل بأنها فاسقة وداعرة وشهوانية ونكاحية لا تقيم حرمة لشيء محدودة الأفق غير صادقة وخالية من أي نسيج أخلاقي ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد ذكر هذا المحامي أن راسل قام بتنظيم مستعمرة للمرأة في انجلترا، وأن أطفاله كانوا يقومون بعرض أنفسهم عراة، كما قام راسل اشتراكاً مع زوجته في عرض نفسيهما عاريين علناً وعلى مرأى من الناس، قال عنه المحامي غولدستين " راسل ليس فيلسوفاً بالمعنى الحرفي للكلمة وهو ليس محبا للحكمة ولا باحثاً عنها كما أنه ليس بالمستكشف لذلك العلم كل ما يدعو إليه من مبادئ ليس سوى خزعبلات وقضايا رخيصة مهلهلة تهدف إلى تضليل الناس "[2].

[1]– Paul edwards ,1956. page 8-9

[2]– Ipid. page 9

في بداية هذه الحملة التشهيرية قرر راسل الصمت دون الدافع عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة له واكتفى بالتعقيب على هجوم الأسقف مانينج بقوله "إنني لا أرغب في الرد على هجوم الأسقف مانينج أن أي إنسان يعقد العزم في شبابه على ألا يفكر وألا يفوه بغير الحق على الرغم من كل مظاهر العداء التي تقابله وعلى الرغم من التحريف وإساءة التصوير، يتوقع مثل هذه الهجمات وسرعان ما يعلم أن أفضل سبيل يسلكه هو تجاهلها "[1] وهذا ما يدل على حكمة راسل وسعة قلبه التي جعلته يتحمل ما حصل له فقط لأنه كان مدركا بأن حقيقته هي غير ذلك تماما، لأنه شاء الصمت وعدم التوغل في الصراع الذي كان حول تعيينه ورأى بأنه لا علاقة بين أرائه وقرار تعيينه كأستاذ بجامعة نيويورك، وبعد ذلك قرر راسل الخروج من صمته والدفاع عن نفسه ضد كل ما قاله الأسقف مانينج، فرد راسل قائلا " إنني لم أنظم مستعمرة للمرأة في انجلترا على الإطلاق، كما أنه لم يحدث وأن ظهرت أن وزوجتي عراة علنا أمام الناس كل هذه الاتهامات كاذبة لا تستند إلى أي أساس من الواقع "[2] كانت هذه أول عبارة رد بها راسل مدافعاً عن نفسه، وبعدها تم النظر في قضيته على مستوى محكمة نيويورك العليا أمام القاضي ماك جيهان حيث أدلى نيكولاس بونشي بشهادته كممثل لمجلس التعليم الأعلى وعبثا حاولت المحكمة أن تزج به في نقاش حول أراء راسل الشريرة الفاسدة وعدم كفاءته فقد أصر بونشي أن يقصر شهادته على الجانب القانوني من القضية التي تتداولها المحكمة ويتلخص في اعتبار تعيين راسل في جامعة أمريكية عملا غير قانوني بوصفه أجنبيا عن البلاد . وأنكر بوتشي عدم قانونية التعيين ، كما طلب من هيئة المحكمة رفض الدعوة المقدمة إليها، لكن القاضي ماك جيهان أجابه بطريقة تنذر بالشر أنه إذا وجد في كتب راسل ما يؤيد صحة الاتهامات الموجهة إليه

[1]– Paul edwards ,1956. page 9–10

[2]– ibid . page /10

فلن يقف الأمر عند هذا الحد وهذه الكتب التي أشار إليها القاضي هي التي أوردها المحامي جولد شتين في عريضة الدعوى التي أقامها برتراند راسل وهي: التعليم والحياة الطيبة – الزواج والأخلاق – التعليم والعالم الحديث – ما أعتقده ،[1]بعد انقضاء يومين نطق القاضي ماك جيهان وتضمن حكمه إلغاء تعيين راسل كمدرس للفلسفة في جامعة نيويورك كما وصف تصرف المجلس العلمي بالطائش والتعسفي وأيد القاضي حق المدعية في إقامة دعواها، بعد ذلك أشارت جريدة الجمهورية الجديدة إلى السرعة البالغة التي أصدر بها القاضي حكمه ووصفتها بأنها سرعة تفوق سرعة البشر مما دفع الفيلسوف الأمريكي المعروف جون ديوي للشك في أن يكون القاضي قد قرأ بالفعل الكتب التي أوصى محامي الإدعاء جوزيف غولدستين المحكمة بقراءتها كان من الواضح أنه يتعذر على أي إنسان أن يفرغ من قراءة هذه الكتب ودراستها في يومين فما بالك بكتابة تقرير مستفيض عنها كالذي كتبه القاضي ماك جيهان في هذه المدة الوجيزة وكان من الواضح أن القاضي لا يراعي أبسط قواعد العدالة أو الذوق فقد أصدر الحكم دون أن يكلف خاطره عناء الرجوع إلى راسل نفسه حتى يتأكد من أن فهمه لا يغاير حقيقة ما قصده الفيلسوف، أضف إلى ذلك أنه لم يحاول أن يتأكد من أن الرجل لا يزال يعتنق ذات الآراء التي سبق له أن عبر عنها في كتب مضى على كتابتها 8 أعوام حتى 15 عام[2] وهذا يظهر أنه قد تخللت محاكمة راسل في نيويورك الكثير من المخالفات القانونية الصارخة ولكنها هانت وتضاءلت أمام الهجمات الضارية عليه إن نص هذا الحكم إن دل على شيء فإنما يدل على شيء واحد وهو ما يمكن أن ينحدر إليه القضاء في دولة تتباهى بديمقراطيتها ،إن محاكمة راسل هذه تذكرنا بمحاكمة سقراط فقد وقف هو كذلك للمحاكمة في سن السبعين من عمره وكانت

[1]– Paul edwards ,1956. page 10-11

[2]–Ipid .page 11/10

التهم كلها كاذبة شنيعة مثل الإلحاد وإفساد عقول الشباب، لكن الفيلسوف الكبير لم يتنح عن منصبه رغم ما أثير حوله من سخط وبلبلة وفوضى فقد كتب برتراند راسل رسالة إلى جريدة نيويورك أن انسحابه في الواقع كان أمرا تقتضيه الحكمة لو كان يبغي راحته الخاصة، فقد كان هذا الانسحاب سيوفر عليه الشقاوة والألم اللذان تعرض لهما وقد فسر راسل عدم تنحيه عن هذه الوظيفة والصمود أمام تيار الرأي العام الجارف بأنه صمم البقاء لشعوره الدائب بأن انسحابه سيكون بمثابة خذلان للأمريكان المؤمنين بحرية الفكر والمناضلين من أجل حرية الكلمة وإن التراجع في نظره كان يعني الجبن والأنانية.

ومن الأمور التي حدثت أن عمدة مدينة نيويورك قام بخطوة هو الأخر لمنع راسل من التدريس في الجامعة فقد عمد إلى شطب ميزانية المنصب الشاغر حتى لا يتمكن الفيلسوف من التدريس حتى ولو كان حكم الاستئناف في صالحه، وبطبيعة الحال فقد استاء المجلس العلمي الأعلى للجامعة من التصرف الذي قام به العمدة وأراد المجلس أن يمضي في القضية مهما كانت الظروف والنتائج، لكن الهيئة القضائية رفضت رغم علمها بأن حكم القاضي ماك جيهان ليس عادلا، وأراد راسل أن يستخدم هو الأخر محاميا يدافع فيه عن سمعته التي لوثتها المعارضة ورفض طلبه لاعتبار أنه ليس لراسل مصلحة قانونية في هذه القضية ومن العجب أن ترى مصلحة جين كاي قانونية فتسمح لها برفع قضيتها ضد راسل وخلال هذه الأحداث غير العادلة في حق الفيلسوف عبر جون ديوي عن سخطه من مثل هذه القرارات قائلاً " نحن –الأمريكيين– لا نملك إلا أن ينشرح وجهنا خزياً وعاراً على هذه الوصمة التي لطخت سمعة عدالتنا " وهكذا تأكد راسل بأن ديوي كان رجلاً وفيلسوفاً بالمعنى الحقيقي للكلمة رغم أنه قد كان بينهما خلاف كبير ظهر في كتابه تاريخ الفلسفة الغربية الجزء الثالث عندما تحدث عن

ديوي ونظريته التربوية وبذلك أصبح متأكداً من أن ما حصل معه بسبب تيار المعارضة لا يعبر عن حقيقة جميع الأمريكيين فقد كان دائم الإعجاب بالليبرالية الأمريكية وديمقراطيتها،[1]ورغم تلك الانتقادات اللاذعة التي تعرض لها إلى أن مكانته بقيت دائماً محل احترام وتقدير فبعد أن انتهى من التدريس بجامعة نيويورك شد رحاله إلى جامعة هارفارد المعروفة حيث لم يقم المسؤولون في الجامعة وزناً لاعتراضات القادحين وذمهم، وقررت الجامعة تعيين برتراند راسل وهناك حاضر راسل دون أن يعكر مزاجه أي أحد وبعدها انتقل الفيلسوف إلى بنسيلفانيا حيث حاضر هناك سنتين وفي عام 1950 عاد للتدريس في كولومبيا واستقبل بحفاوة وتقدير لم يشهدهما من قبل تشبه حفاوة وترحيب الفرنسيين بفولتير عند عودته إلى باريس سنة 1778.[2]

[1] –Paul edwards ,1956. page 34

[2] –Ipid 34/35

الخاتمة

من خلال مسار بحثنا هذا في موضوع النزعة الإنسانية وقيم الحياة المختلفة الأخلاقية والتربوية والسياسية والدينية وجدت أنه من اللازم أن تتفق الأمم والشعوب على جوامع قيمية مشتركة يمكنها تأسيس روابط راقية تخدم المجتمع البشري. وتعدّ القيم الإنسانية مثل الحرية والتعاون والتسامح حسب راسل من أهم القيم التي يجب أن يجتمع بفعل الأفراد في مختلف العصور والأزمنة.

تحثّنا الدراسة لمفهوم الإنسان إلى الإيمان بوجود وحدتين أساسيتين: وحدة الأصل البشري ووحدة القيم الإنسانية والأخلاقية التي ندعم بها كل معاملاتنا وعلاقتنا مع الأخرين، لذا فإنه ليس بإمكان الإنسانية مواجهة تحدياتها وصراعاتها المريرة إن هي لم تتحد وتتعاضد لتعزيز قيم الإنسانية المشتركة دون حصرها وتقييدها بأي إيديولوجية أو عقيدة أو فلسفة ما لأن وحدتها هذه لا تشكل طمساً للخصوصية بل هي ترسيخ للهوية العالمية ذات الطابع الإنساني هذه كانت رسالة راسل قبل أن تفارق روحه هذا العالم سنة ،1970 ولكن مع ذلك ما تزال روحه التحررية المعادية للظلم والتدهور الغير الإنساني تمارس تأثيرها لدى المهتمين بالشأن الفلسفي والأدبي والأخلاقي والعلمي، ما تزال أعمال راسل موضوعاً للبحث والتساؤل لأنه من السهل أن نحيط بكل نظامه الفكري والثقافي الذي كان بمثابة الشاهد على أكثر اللحظات الإنسانية حدت وهي مرحلة اكتساب أسلحة الدمار الشامل والسعي إلى قضاء الإنسان على الإنسان.

من خلال هذه الأطروحة التي كانت موسومة بعنوان " **حدود النزعة الإنسانية في فلسفة برتراند راسل** " تعرفت على أعمق العواطف الإنسانية التي حركة التاريخ الإنساني منذ أقدم العصور وصولاً إلى يومنا هذا واكتشفت مدى أهمية أن نعيد النظر في حقيقة الإنسان وأن نتساءل من جديد هل ما يزال عاقلاً أم أنه بلغ درجة الجنون الجارف إلى نهاية هذا العالم، كانت هذه الرحلة من البحث العلمي والفلسفي منعرجاً

أساسياً في حياتي اكتشفت به أحد أكبر عقول الفلسفة المعاصرة وهو الفيلسوف والأديب والمؤرخ برترابد راسل الذي لم يتوقف يوماً عن مناصرة قضايا الإنسان والمجتمع والفردانية سعياً منه إلى تزويد العالم بالوسائل المناسبة لتجاوز الأزمات التي حدثت في مستويات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية كل هذا من شأنه أن يصنع للأجيال القادمة مستقبلاً أمناً أكثر من الذي عاشه راسل خلال فترة حياته التي رأى فيها حمى الحربين العالميتين الأولى والثانية.

كان لهذا العمل نتائج تحصلنا عليها من خلال تحليلنا لثلاثة فصول فكانت إفرازات الفصل الأول بمثابة نقد وتأسيس للقيم الإنسانية وللنزعة التي تحركه أما في حصيلة الفصل الثاني أدركت بأن راسل أحد واضعي دعائم مفهوم العالمية أوالشمولية التي انعطفت بعد 20 سنة من بعده لتعطي لنفسها تسمية جديدة وهي العولمة أو العالم بصورته الواحدة التي تتحرك تحت رؤية واحدة وهي ليبرالية الفكر وحرية الرأي والتعبير في نهاية هذا الفصل ظهرت لي كوسموبوليتية برتراند راسل أونظرته الكونية للنظام السياسي العالمي الذي يعزز القيم المشتركة ومفهوم الأخوة الإنسانية فالإنسانية قيمة عالمية وحقيقة تاريخية وإيمانية في الوقت ذاته، فكرامة الإنسان أصلية فيه وما الاختلاف بين البشر في الثقافة أو المعتقدات سوى تعبير عن روح فنية جمالية إبداعية.

كانت التربية أساساً ينطلق منه راسل دائماً إذا ما كان الموضوع هو الإنسان لأنها عملية ضرورية في بناء وترسيخ مفهوم الخير الإنساني، وهذا يؤسس لبناء الاستقرار ويحد من إمكانية حدوث النزاعات، فالتربية الصحيحة هي التي تعمد على إعطائنا نموذجاً عن الإنسان الصالح الذي يرتقي بفكره عن الحدود الوطنية و العرقية والقومية فقيمة التربية هي قبول التعددية والتنوع وشحذ طاقات الإنسان ودفعه نحو التنافس في

العمل الصالح فقد شهدنا في العقود الأخيرة اهتزازاً مؤرقاً في قيمة التعددية وتصاعداً للمشاعر العدائية والانقسامات الطائفية بين أبناء المجتمعات الواحدة في عالمنا! وهنا أقول لا معنى للتربية دون أن نحترم معتقدات الغير وحقوقهم.

كانت قيمة راسل ظاهر ودون أي اختلاف فقد نختلف معه في الكثير من المسائل ولكن لن يكون ذلك في فلسفته التربوية والأخلاقية والمنطقية لأنها كانت واقعية بشكل كبير نابعة من دراسة عميقة ومتسلسلة للتاريخ الإنساني وفى نهاية المطاف لا يمكننا أن نستشعر عالمية إيجابية مثلما هي عند راسل كفيلسوف أقسم على نفسه بأن يساند الشعوب المظلومة المستعبدة من قوى مختلفة إن راسل هو فيلسوف ورجل سلام لابد أن نجعل من فلسفته مشروعاً في عالمنا العربي بالخصوص فكره السياسي والتربوي والأخلاقي أو ما نسميه الفكر الإنساني عند شيخ الفلاسفة.

لا يمكننا تجاوز الصراعات التي عانت منها الإنسانية إلا بخلق الوئام بين الإنسان وطبيعته ومع غيره وكذلك اتجاه ذاته لأن أول خطوة نحو إصلاح ذواتنا هو فهم طبيعتها والحد من الانتشار الواسع لرغباتها المؤذية لهذا فإن مواصلة الفلسفة في دعمها لقضايا الإنسان والأخلاق يجب أن تبقى موجودة رغم ما قد يتلقاه رجال الفكر الحر كما حصل مع راسل، و لكن مع ذلك ستبقى الروح الفلسفية في تغيير العالم نحو الأفضل من أهم الدوافع التي تجعلنا نعمل من أجل خلق برامج جديدة سواء في منظوماتنا التربوية أو الأخلاقية وهذا ما قدمه راسل بشكل مفصل ودقيق.

إن الفلسفة التربوية والأخلاقية التي أمدنا بها راسل هي التي فتحت أمامنا المجال لنتعمق أكثر في العلاقة الموجودة بين التربية ومسائل الحياة السياسية والاقتصادية لأن فهم النسيج الاجتماعي لن يكون دون الأخذ بالآثار التي تركها فينا الأنظمة السياسية والعقائدية والفكرية، لابد على الإنسانية أن تغرس أقوى القيم الإنسانية مثلما فعلت

فلسفة راسل التي جعلتنا ندرك الواقع الإنساني ونعرف قيمة أن نوفر للأجيال ما يلزمهم لحياة هادئة وسليمة إن أول خطوة نحو استقرار العالم الذي نعيش فيه هو نبذ كل أساليب الحرب والبحث عن السعادة الإنسانية من خلال الاهتمام بالصحة والتعليم وكذا كل مسائل الحياة الإنسانية.

يعد فكر الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل مشروعا فلسفيا راقيا بحيث توصلت من خلال التعامل مع فكره وتحليله إلى ما يلي:

- حياتنا اليوم تمثلها الكثير من العواطف وتحركها قيم وأيديولوجيات مريضة وفاسدة تجعلنا نعيش في عالم مسدود إنسانيا بحدود تعيق نظرتنا للآخرين كإخوة لنا نبادلهم كل المحبة ونبغي لهم نفس الخيرات التي ننعم بها.
- الفلسفة الإنسانية عند راسل هي محصلة بحث عميق يمكنه أن يكون محفزا لبناء العلاقات الدولية الراهنة وفق نظرة الصالح العام وليس بمنظور المصلحة الشخصية.
- فلسفة راسل هي إنفتاح على العالم الإنساني ومحاولة في فهمه لهذا يجب أن يصبح هذا الفيلسوف مشروعا في كل منظومة اجتماعية معاصرة لأن الأفكار التي جاء بها هي إنعاش للقيم الإنسانية وإعادة إحياء للذات الإنسانية التي دمرتها ويلات الكراهية والحروب الضارية.
- لا يجب ان تبقى فلسفة راسل رهينة العالم الإنجليزي فقط بل يجب أن تعم العالم كله، فالعالمية التي جاء بها وإن كان هناك البعض من التناقض الظاهر حولها جعل النظام العالمي في حكومة نيابية واحدة إلا أنها تبقى محاولة جدية ومؤسسة بشكل عقلاني وعلمي لأن نظرته للعالم أصبحت تبدوا نتائجها اليوم

فأساليب الحياة أصبحت أكثر قمعا مع انتشار روح الوطنية التي نرى آثارها في كل بقاع العالم.

- لابد على الفكر العربي المعاصر أن يجعل من الفلسفة الإنسانية عند راسل موضوعا له يشتغل عليه مستقبلا لأن التركيز الذي وجدته في بعض رسائل الدكتوراه والماجستير والماستر هو حول مواضيع التربية المنطق السياسة ولم أجد منها ما يهتم بالنظرة الإنسانية وأهدافها العالمية الكونية.
- إن فلسفة راسل فتحت المجال في منتصف القرن الماضي لوضع أسس ودعائم العالمية فقد سمحت فلسفته بنشر قيم جديدة تسمح بالتقارب الإنساني في مجالات مختلفة الاقتصاد التجارة السياسية التربية ...
- نجد اليوم الأثر الكبير الذي تركه راسل في التربية الانجليزية والأمريكية أين تنتشر مبادئ الديمقراطية والليبرالية وتقل كلما كبلت الأفكار وهذا ما نجده في العالم العربي الذي يعيش تراجعا ملحوظا في الحريات الفكرية والعقائدية وفي قبول التعددية والاختلاف.
- صارت فلسفة راسل في القرن العشرين مرجعا أساسيا لعلوم كثيرة مثل الرياضيات والمنطق وأصبح الحديث عنه يشبه الحديث عن عباقرة اليونان لأن الفلسفة التي قدمها قد لا تظهر إلى بعد مائة سنة أخرى أو أكثر وها نحن على مقربة من مرور حوالي 50 سنة على وفاة هذا الفيلسوف ولكننا لا نجد فلاسفة يملكون مثل عبقرية راسل الفذة خاصة كونه فيلسوفا موسوعيا عالج كل مواضيع الفكر الإنساني.

- حركت فلسفة راسل معظم الفلاسفة الذين تبعوه فيما بعد نحو فهم العالم بشكل أكثر دقة ونقصد بهم فلاسفة اللغة والمنطق والرياضيات محاولين بذلك وضع الفلسفة في مسارها الأول وهي شموليتها وإنسانيتها وعالميتها.
- لا يمكن للعالم اليوم أن يعيش دون ارساء تلك القيم التي جاء بها راسل وأقصد بها التسامح والحب والاعجاب والتي توفر لنا عناء البحث عن الوسيلة السياسية أو العسكرية التي نقضي بها على صراعاتنا. فالحقيقة التي توصل لها راسل نراها اليوم حاضرة امامنا، دخول شعوب العالم في صراعات غير مبررة تحدث لأسباب تافهة ولكنها تلقى من يدعمها لتحقق أكبر غاياتها غير الإنسانية.
- في الأخير أرى أن مواصلة البحث في فلسفة راسل الإنسانية هو مشروع فلسفي لم يكتمل بعد لذا يجب أن يلقى هذا الفيلسوف الترحيب والدعم من قبل الباحثين والأكاديميين لهذا كان الهدف الأول من هذا العمل هو محاولة إخراج البحث الراسلي من دائرة الفكر العلمي والمنطقي واللغوي والتربوي إلى حقل أخر أكثر إنسانية.

أفاق البحث و أبعاده المستقبلية :

لم نستطع في هذه الأطروحة أن نحيط بكل المسائل التي أردنا خوضها في غمار هذا البحث لهذا سنعمل على فتح باب الاجتهاد في هذا الموضوع من خلال ادراج دراسات نقرب بها الفكر الفلسفي والسياسي لدى راسل واسقاطه على واقعنا العربي من أجل تقديم إصلاحات خاصة على المستويين التربوي والسياسي نظرا لما نعيشه من تراجع في مثل هذه المواضيع ففكر راسل حسب ما قمنا به من دراسة هو عملية بناء لمنهج وأسلوب تربوي وسياسي بعيد عن إيديولوجية وهذا ما نحن اليوم بحاجة له أمام الصراع الحاد الذي تشهده أنظمتنا.

هذا العمل يجب أن يصبح موضوعا للدراسة في حقل الفلسفة لأنه يسلط الضوء على أحد أهم المفاهيم التي نحن بحاجة لها وهو القيم الإنسانية والأخلاقية التي نشهد لها تراجعا ملحوظ، وتدهورا يكاد يفقدها أجمل خصوصياتها.

لابد على الباحثين في ميدان الفلسفة المعاصرة أن يعمقوا النظر أكثر في فلسفة راسل العلمية وهذا بتقريبها من الجوانب الاجتماعية والسياسية كأن تكون هناك مواضيع تدرس العلم وأثره على الحياة السياسية وحتى التربوية من خلال فلسفة راسل برتراند.

ليس من السهل أن أبعادا مستقبلية لهذا العمل ولكن أكبر مشروع لنا أن نكون أول المؤسسين لفلسفة تخترق الحدود العالمية وتفعل روح التقارب من خلال هذه الأطروحة التي كانت مجرد انطلاقة نحو مسار بحث فلسفي نتمنى أن تكون له بذور وإنجازات كبرى مستقبلا.

المصادر و المراجع

1 قائمة المصادر باللغة العربية

راسل برتراند: حكمة الغرب الجزء الثاني " الفلسفة الحديثة والمعاصرة " ترجمة فؤاد زكريا سلسلة عالم المعرفة، د.ط، سنة 1983.

ـــــــــ أمال جديدة في عالم متغير، ترجمة عبد الكريم أحمد مراجعة علي أدهم مكتبة الفكر الجديد، د.ط،سنة 2018.

ـــــــــ انتصار السعادة، ترجمة محمد قدري عمارة، مراجعة إلهامى جلال عمارة المشروع القومي للترجمة، ط 2.

ـــــــــ السلطة والفرد، تعريب شاهد الحمود، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ط1،سنة 1961.

ـــــــــ الدين والعلم، ترجمة رمسيس عوض، دار الهلال، ط1.

ـــــــــ بحوث غير مألوفة، ترجمة سمير عبده، دار التكوين للتأليف والطباعة والنشر، بيروت، د.ط، سنة 2009.

ـــــــــ أسس لإعادة البناء الاجتماعي، ترجمة إبراهيم يوسف النجار، ط1، سنة 1987.

ـــــــــ كتاب المحاورات،ترجمة محمد عبد الله الشفقي، سلسلة كتب ثقافية الجمهورية العربية المتحدة، د.ط.

ـــــــــ ما الذي أؤمن به مقالات في الحرية والدين والعقلانية، ترجمة الدكتور عدي الزعبي ممدوح،د.ط.

ـــــــــ حكمة الغرب ج2 الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، د.ط ، سنة 1983 .

ـــــــــ تحليل العقل، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دار التكوين للترجمة والتأليف والنشر، ط 1، سنة 2016.

ـــــــــ تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة محمد فتحي الشنطى، المصرية العامة للكتاب، د.ط ، سنة 1988.

ـــــــــ مثل سياسية عليا، ترجمة فؤاد كامل عبد العزيز، د.ط.

ـــــــــ تاريخ الفلسفة الغربية الجزء 3، الفلسفة الحديثة، ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطى، الدار المصرية العامة للكتاب،د.ط، سنة 1988.

ـــــــــ حكمة الغرب، الجزء الثاني، ترجمة فؤاد زكرياء، سلسلة عالم المعرفة،د.ط سنة 1938.

ـــــــــ تاريخ الفلسفة الغربية،ج1 الفلسفة القديمة، ترجمة زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب،د.ط، سنة 2010.

ـــــــــ هل للإنسان مستقبل، ترجمة عابد الرباط، أقلام عربية للنشر والتوزيع،د.ط سنة 2019.

ـــــــــ نحو عالم أفضل ترجمة دريني خشبة – عبد الكريم احمد العالمية للطباعة والنشر سلسلة الألف كتاب مصر القاهرة،د.ط، سنة 1956.

ـــــــــ أثر العلم في المجتمع، ترجمة صباح صديق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، ط1 بيروت سنة 2008.

ـــــــــ التربيـة والنظـام الاجتمـاعي، ترجمـة سـمير عبـده، منشـورات دار مكتبـة الحيـاة بيروت لبنان،ط2.

ـــــــــ أصـول الرياضـيات الجـزء الثاني،ترجمـة محمـد مرسـي أحمـد، وأحمـد فـؤاد الأهواني، دار المعارف مصر ، ط2 .

ـــــــــ سيرتي الذاتيـة، ترجمـة الـدكاترة، عبـد الله عبـد الحفيظ، فـايز اسـكندر، شـفيق مجلي، أمين العيوطي، دار المعارف مصر،ط1.

ـــــــــ تاريخ الفلسفة الغربية، الجزء الأول الفلسفة القديمة، ترجمة، ز.نجيب محمود، الهيئة المصرية للكتاب ط1، سنة 2010.

ـــــــــ حكمـة الغرب الجزء الأول، ترجمـة فؤاد زكريـا، سلسـلة عـالم المعرفـة،د.ط سنة 1983.

2 قائمة المصادر باللغة الإنجليزية

- ✓ Russell bertrand : Why I Am Not A Christian.1927.by.Simon & Schuster (30 octobre 1967).
- ✓ Bertrand Russell, Education and The Good Life, H. Liveright, 1954.
- ✓ Russell, Bertrand (1919), Introduction to Mathematical Philosophy, George Allen and Unwin. (Reprinted: Routledge, 1993.)

3 قائمة المراجع باللغة العربية

- ✓ ايـه سـي جـرايلنج: برتراند راسـل مقدمـة قصـيرة جـدا، ترجمـة إيمـان جمـال الـدين الفرماوي، ط1 .

- ✓ اسماعيل صلاح: فلسفة اللغة والمنطق دراسة في فلسفة كواين، مكتبة الأدب جامعة القاهرة، دار المعارف،د.
- ✓ إريك فروم : مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط1،سنة 1998.
- ✓ إ.م . بوشنسكي الفلسفة المعاصرة في أوروبا ترجمة عزة القرني سلسلة عالم المعرفة سنة 1978
- ✓ جون لويس: الإنسان ذلك الكائن الفريد، ترجمة د.صالح جواد الكاظم،الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة،د.ط، سنة 1996
- ✓ جيوفاني بيكو دولا كيراندول: خطبة في الكرامة الإنسانية (بيان مانيفستو النهضة)، ترجمة حسين إسماعيل، المدونة الإيحائية الجديدة، د.ط.
- ✓ جان توشار: تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار الجزء الثاني ترجمة د ناجي الدراوشة دار التكوين للتاليف والترجمة والنشر، ط1 سنة 2010.
- ✓ دولاكومبان كريستيان: تاريخ الفلسفة في القرن العشرين، ترجمة حسن أحجيج، جداول للنشر والترجمة والتوزيع بيروت ط1
- ✓ هاربرت ماركوزه: الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرتبيشي، منشورات دار الأدب بيروت، ط2، سنة 1988.
- ✓ زكي نجيب محمود: برتراند راسل، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف مصر، ط2،

- ✓ حازم الببلاوى : دليل الرجل العادي إلى تاريخ الفكر الاقتصادي، دار الشروق بيروت لبنان، ط1، سنة 1995.
- ✓ يورغن هابرماس: العلم والتقنية كأيديولوجية ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، د.ط سنة 2003.
- ✓ كارل ماركس: رأس المال " الكتاب الأول"، ترجمة فهم كمنقش، دار التقدم، د.ط، سنة 1985.
- ✓ كوينتن سكن: أسس الفكر السياسي الحديث عصر الإصلاح الديني الجزء الثاني، ترجمة حيدر حاج إسماعيل،المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 بيروت سنة 2012.
- ✓ كانط إيمانويل: مشروع السلام الدائم ترجمة عثمان أمين – الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة،د.ط، سنة 2000.
- ✓ محمد مهران: فلسفة برتراند راسل، دار المعارف ،ط3، 1986.
- ✓ مصطفى الخشاب: تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، مطبعة البيان العربي القاهرة، ط1.
- ✓ محمد حسن الأبياري: المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، سنة 1978.
- ✓ نعوم تشومسكي: أشياء لم تسمع بها أبدا ...لقاءات ومقالات، ترجمة أسعد الحسين، دار نينوى للنشر والتوزيع، سنة2010.

- ✓ س. درسدن: الحركة الإنسانية والنهضة، ترجمة عمر شخاشيرو، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ط، دمشق سنة 1972.
- ✓ عبد القادر ماهر: فلسفة التحليل المعاصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت، د.ط.
- ✓ عبد الرحمان بدوي: فلسفة القانون والسياسة عند إيمانويل كانط، وكالة المطبوعات، الكويت، د.ط، سنة 1979.
- ✓ رمسيس عوض: برتراند راسل المفكر السياسي، سلسلة مذاهب وشخصيات، ط1، سنة 1966.
- ✓ رالف بارتون: إنسانية الإنسان، ترجمة، سلمى الخضراء الجيوسي ، منشورات مكتبة المعارف بيروت، د.ط.
- ✓ روني ديكارت :مقال في المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة لكتاب ط ، سنة 1985.
- ✓ روجيه بولدروا: أساطين الفكر عشرون فيلسوفا صنعوا القرن العشرين ترجمة علي نجيب إبراهيم دار الكتاب العربي بيروت.
- ✓ تيري إيغلتون: لماذا كان ماركس على حق؟ ترجمة غانم هنا، دار الكتاب العربي بيروت،د.ط ،سنة 2013.

4 قائمة المراجع باللغة الإنجليزية

- ✓ Britain Against Napoleon : The Organization Of Victory. 1793-1815.hardcover,may21.2014

- ✓ Deborah Gorham, Dora and Bretrand Russell and Beacon Hill Scholl, Ottawa,Canada,Kis,5B6
- ✓ Noam Chomsky : Hegemony or survival America's quest for global dominance, Allen and Unwin – September, 2004.
- ✓ Noam Chomsky : Hegemony or survival America's quest for global dominance.
- ✓ Paul edwards .1956 . how bertanad russell was prevented from teaching at the college of the city of newyork.
- ✓ Robert.E.Egner, Russell's Best, Paperback, London,1 January 1971.
- ✓ Stephen lebrstien .appoitment denied. The inquistion of bertrand russell . academe volume87.issue6.nov/dec2004.
- ✓ Werner.Jeager : The Theology of Early Greek philosophers,The Gifford Lectures 1936.

5 قائمة القواميس و المعاجم و الموسوعات

1 باللغة العربية

- ✓ جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت، ط3، سنة 2006.
- ✓ منير البعلبكي: قاموس المورد إنجليزي – عربي، ط1. أفريل 2018.
- ✓ مراد وهبة : المعجم الفلسفي، ط1. أوت 2010
- ✓ محمود قاسم : موسوعة جائزة نوبل، مكتبة مدبولى، ميدان طلعت حرب، ط1 القاهرة 1995.

2 باللغة الفرنسية

- ✓ Andri lalonde, vocabulaire tichnique et critique de philosophie, paris, 1996.

6 قائمة المقالات وراسائل الماجستير والدكتوراه

- ✓ وليد يوسفي: مقال المشروع السياسي الكانطي والمعقولية الكونية، مجلة التدوين، كلية العلوم الإجتماعية جامعة أحمد بن محمد وهران 2، المجلد 12 العدد 2